

الكتاب

فصلية ثقافية



85

خريف 2005

رئيس التحرير

محمود درويش

مدير التحرير

حسين خضر

تصدر عن : مؤسسة الكرمل الثقافية

مركز خليل السكاكيني الثقافي - ص.ب. ١٨٨٧ - رام الله - فلسطين

هاتف/ فاكس : ٢٩٨٧٣٧٤/٥ (٠٢)

E-mail : editor@alkarmel.org

الكرمل على الانترنت : <http://www.alkarmel.org>

تصدر طبعة الأول من : دار الشروق للنشر والتوزيع ، ص.ب. ٩٢٦٤٦٣

الرمز البريدي ١١١١٠ - عمان - الأردن - هاتف : ٦١٨١٩٠ / ١ - فاكس : ٦١٠٠٦٥

العدد 85

خريف 2005



باريس : Mr. S. Hadidi

17 avenue Georges Duhamel

Creteil 94000

France

الاشتراكات السنوية : ٨٠ دولاراً للأفراد ١٢٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة

Al-karmel Cultural Foundation

Arab Bank - Manara branch - Routing number : 49852

Ramallah - Palestine

فصلية ثقافية

الغلاف : تركيب للفنان حسني رضوان

تصميم الغلاف : الفنان خالد حوراني

التنفيذ والانتاج والطباعة : مؤسسة «الأيام» - رام الله

لستُ من الذين ينظرون إلى المرأة برضا . المرأة هنا هي انكشاف الذات في صورة صارت ملكية عامة . . . أي صار من حق غيرها أن يبحث عن ملامح ذاته فيها . فإذا وجد فيها ما يشبهه أو يعنيه من تعبير وتصوير ، قال : هذا أنا . وإذا لم يشعر على شراكة في النصّ / الصورة ، أشاح بوجهه قائلاً : لا شأن لي !

كما أخشى هذا التعليق الذي صار رائجاً في العلاقة بين الكثير من الشعر الحديث وبين أغلبية القراء ، منذ استمرّ الكثيرون من الشعراء توسيع الهوة بين القصيدة وكتبتها الثاني : المتلقي الذي لا يتحقّق المشروع الشعري بدونه ، ويدون تحرّكه في اتجاه النص . التهمّ متبادلة بين الطرفين . لكن أزمة الشعر ، إذا كانت هنالك أزمة ، هي أزمة شعراء . وعلى كل شاعر أن يجتهد في حلّها بطريقته الإبداعية الخاصة .

أعلمُ أنني سأتهمّ ، مرة أخرى ، بمعادة شعر الحداثة العربية التي يُعرّفها النُصّايون بمعارين . الأول : انفلاق الأنا على محتوياتها الذاتية دون السماح للدخول بالانفتاح على الخارج . والثاني : إقصاء الشعر الموزون عن جنة الحداثة . . . فلا حداثّة خارج قصيدة النثر . وتلك مقولة تحوّلت عقيدة يُكفّر من يقترّب من حدودها متسائلاً . وكلّ من يُسأل الحداثة الشعرية عمّا وصلت إليه يُتهمّ ، تلقائياً ، بمعادة قصيدة النثر ! لم أكفّ عن القول إن قصيدة النثر التي يكتبها المهويون هي من أهمّ منجزات الشعر العربي الحديث ، وإنها حقّقت شرعيّتها الجمالية من انفتاحها على العالم ، وعلى مختلف الأجناس الأدبية ، لكنها ليست الخيار الشعري الوحيد ، وليست «الحل النهائي» للمسألة الشعرية التي لا حلّ نهائياً لها ، فالقضاء الشعري واسع ومفتوح لكلّ الخيارات التي نعرفها والتي لا نعرفها . ونحن القراء لا نبحث في التجريب الشعري المتعدد إلا عن تحقيق الشعرية في القصيدة ، سواء كانت موزونة أو نثرية .

وأعلمُ أيضاً أن مجموعتي الشعرية الجديدة ، كسابقاتها ، ستزوّد خصومي الكثيرين بمزيد من أسلحة الاغتيال المعنوي الشائعة في ثقافة الكراهية النشطة . سيُقال - كما قيل ويُقال - إنني تخليت عن «شعر المقاومة» . وسأعترف أمام القضاة التجهّمين بأنني تخليت عن كتابة الشعر السياسي المباشر محدود الدلالات ، دون أن أتخلى عن مفهوم المقاومة الجمالية بالمعنى الواسع للكلمة . . . لا لأن الظروف تغيّرت ، ولأننا انتقلنا «من المقاومة إلى المساومة» ، كما يزعم فقهاء الحماسة ، بل لأنّ على الأسلوبية الشعرية أن تتغيّر باستمرار ، وعلى الشاعر أن لا يتوقّف عن تطوير أدواته الشعرية ، وعن توسيع أفقه الإنساني ، وأن لا يكرّر ما قاله مئات المرات . . . لنألاً تصاب اللغة الشعرية بالإرهاق والشيخوخة والنبطية ، وتقع في الشَرَك المنصوب لها : أن تتحوّل في القول الواحد المعاد المكرّر . فهل هذا يعني التخلي عن روح المقاومة في الشعر ؟

أما من دليل آخر على المقاومة سوى القول مثلاً : سجّل أنا عربي ، أو تكرار شعار : سأقاوم وأقاوم ؟ فليس من الضروري ، لا شعرياً ولا عملياً ، أن يقول المقاوم إنه يقاوم ، كما ليس من الضروري أن يقول العاشق إنه يعشق . لقد سمّانا غسان كنفاني «شعراء مقاومة» دون أن نعلم أننا شعراء مقاومة . كنا نكتب حياتنا كما نعيشها ونراها . وندوّن أحلامنا بالحرية وإصرارنا على أن نكون كما نريد . ونكتب قصائد حبّ للوطن ونساء محدّدات . فليس كل شيء رمزياً . وليس كل ساق شجرة نحيل خصر امرأة أو بالعكس ! لا يستطيع الشاعر أن يتحرّر من شرطه التاريخي . لكن الشعر يوفّر لنا هامش حرية وتعويضاً مجازياً عن عجزنا عن تغيير الواقع ، ويشدنا إلى لغة أعلى من الشروط التي نقيّدنا ونعرق الانسجام مع وجودنا الإنساني ، وقد يُساعدنا على فهم الذات بتحريرها عما يُعيق تحليقها الحرّ في فضاء بلا ضفاف .

إن التعبير عن حقّ الذات في التعرّف على نفسها ، وسط الجماعة ، هو شكل من أشكال البحث عن حرية

الأفراد الذين تتكون منهم الجماعة. ومن هنا، فإن الشعر المعبر عن سماتنا الإنسانية وهو من الفردية - وهي ليست فردية تماماً - في سياق الصراع الطويل، يُثّل البعد الإنساني الذاتي من فعل المقاومة الشعرية، حتى لو كان شعر حب أو طبيعة، أو تأملًا في وردة، أو خوفًا من موت عادي.

ليس صحيحًا أن ليس من حق الشاعر الفلسطيني أن يجلس على تلّة ويتأمل الغروب، وأن يصني إلى نداء الجسد أو الناي البعيد، إلا إذا ماتت روحه وروح المكان في روحه، وانقطع حبل الشرة بينه وبين فطرته الإنسانية.

وليس الفلسطيني مهنة أو شعارًا. إنه، في المقام الأول، كائن بشري، يحب الحياة وينتخف بزهرة اللوز، ويشعر بالقشعريرة من مطر الخريف الأول، ويأمرس الحب تلبيةً لشهوة الجسد الطبيعية، لا لنداء آخر... وينجب الأطفال للمحافظة على الاسم والنوع ومواصلة الحياة لا لطلب الموت، إلا إذا أصبح الموت فيما بعد أفضل من الحياة! وهذا يعني أن الاحتلال الطويل لم ينجح في محو طبيعتنا الإنسانية، ولم يفلح في إخضاع لغتنا وعواطفنا إلى ما يريد لها من الجفاف أمام الحاجز.

إن استيعاب الشعر لقوة الحياة البدئية فينا هو فعل مقاومة، فلماذا نتهم الشعر بالردة إذا تطلّع إلى ما فينا من جماليات حسية وحرية خيال وقاوم البشاعة بالجمال؟ إن الجمال حرية والحرية جمال. وهكذا يكون الشعر المدافع عن الحياة شكلاً من أشكال المقاومة النوعية.

هل أتساءل مرة أخرى إن كان الوطن ما زال في حاجة إلى يرايين شعرية، وإن كان الشعر ما زال في حاجة إلى يرايين وطنية؟ إن علاقة الشعر بالوطن لا تتحدّد بإفراق الشعر بالشعارات والخرافة والرايات. إنها علاقة عضوية لا تحتاج إلى برهان يومي، فهي سليقة ووعي وإرادة. ميراث واختيار. مُعطى ومبلغ. ولكن الشعر الوطني الرديء يسيء إلى صورة الوطن الذي يشمل الصراع عليه وفيه مستويات إبداعية لم تنته إليها دائماً.

لذلك، فإن حاجتنا إلى تطوير أشكال التعبير عن الجوانب الإنسانية في حياتنا العامة والخاصة، بتطوير جماليات الشعر، وأدبية الأدب، وإتقان المهنة الصعبة، والاحتمكام إلى المعايير الفنية العامة، لا إلى خصوصية الشرط الفلسطيني فقط، هي مهام وطنية وشعرية معاً، وهي ما يؤهّل شعرنا للوصول إلى منبر الحوار الإبداعي مع العالم، فيصبح الاعتراف بقدرتنا العالية على الإبداع أحد مصادر الإثبات إلى وطن هذا الإبداع. فكم من بلد أحيناه، دون أن نعرفه، لأننا أحببنا أديبه!

هكذا نمحي الحدود بين وطنية الشعر وبين نزعة الدائمة لاجتياز حواجز الثقافات والهويات، والتحليق المشترك في الأفق الإنساني الرحب، دون أن ننسى أن للشعر دوراً خاصاً في بلورة هوية ثقافية لشعب يُحارب في هويته.

نعم، على الشعراء أن يتذكروا كل العذاب، وأن يُضغوا إلى صوت الغياب، وأن يُسمّوا كل الأشياء، وأن يخوضوا كل المعارك. ولكن عليهم أيضاً ألا ينسوا واجبهم تجاه مهنتهم. وألا ينسوا أن الشعر لا يُعرّف، أساساً، في ما يقوله، بل بنوعية القول المختلف عن العادي، وألا ينسوا أن الشعر متعة، وصنعة، وجمال. وأن الشعر فرح غامض بالتغلب على الصعوبة والخسارة، وأنه رحلة لا تنتهي إلى البحث عن نفسه في المجهول.

وأنا هنا، لا أدافع عن كتابي الجديد الذي لم يعد لي. ولم أعد أتذكر شيئاً منه، منذ خرج مني وأدخاني في مآزق السؤال الفادح: ماذا بعد؟ بل أدافع عن حق الشعراء في البحث عن شعر جديد، يُنقّي الشعر عما ليس منه. فإن شقاء التجديد للتمتّع أفضل من سعادة التقليد المتحجّر.

محمود درويش

[تليت هذه الكلمة في حفل التوقيع على كتاب «تذمر اللوز أو ليمه في رام الله»]

الفهرست

مختارات

إزرا باوند:

أنا، حتى أنا الذي يعرف كل الدروب ترجمة وتقديم صبحي حليدي ٤٠-٧

شعر

- ١- ينطق عن الهوى طاهر رياض ٥١-٤١
- ٢- ريفيات كاظم جهاد ٧٥-٥٢
- ٣- أغاني الوارث المتلاف زكريا محمد ٩١-٧٦
- ٤- معركة المصير دينا شحاته ٩٣-٩٢

مقالات ودراسات

- ١- زحف القديسين، نذهب إلى الحرب ولكن على مضض منير العكش ١٢٩-٩٤
- ٢- طه حسين، الثقافة وتوليد الدولة الوطنية فيصل درّاج ١٥٨-١٣٠
- ٣- الصورة في خطاب ابن عربي، بين التوالج والتجلي خالد بلقاسم ١٧٥-١٥٩



المواد المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي «الكرمل»

حوار

جمال الدين بن الشيخ :

١٩٧-١٩٧

أحمد المديني

الإبداع العربي بين الشعري والمنتخيل

ذاكرة

٢١٠-١٩٨

صلاح حزين

١- إدوارد سعيد موسيقيا

٢- إدوارد سعيد،

٢١٦-٢١١

فخري صالح

الناقد الإنساني

٢٢٦-٢١٧

أحمد دحبور

٣- إبراهيم طوقان في مثنوية ميلاده



إزرا باوند أنا ، حتى أنا الذي يعرف كل الدروب

ترجمة وتقدير: صبحي حديدي

في عام ١٩٤٩ قرّرت لجنة تحكيم جائزة بولينغن الثقافية الأميركية ، المرموقة في القيمة المعنوية والزهيدة في المقابل المادي (ألف دولار أميركي) ، منح الجائزة إلى الشاعر الأميركي إزرا باوند (١٨٨٥-١٩٧٢) ، وكان آنذاك الشخصية الأدبية الأكثر إشكالية وإثارة للخلاف والسجال ، على الأصعدة الجمالية والنقدية والأخلاقية . وزاد في جسارة القرار وحساسيته أنّ الجائزة مُنحت للشاعر عن مجموعة القصائد التي عُرفت باسم «أناشيد بيزا» Pisan Cantos ، التي كتبها باوند أثناء فترة احتجازه في برج بيزا على يد القوّات الأميركية في إيطاليا ، والتي اعتقلته بتهمة الخيانة العظمى .

غير أنّ لجنة التحكيم كانت تضمّ ثلّة من كبار رجالات الأدب والنقد في ذلك العهد ، مثل ت . س . إليوت ، روبرت لويل ، و . هـ . أودن ، وكونراد إيكين . ولهذا تولّد مذاك نقاش حول نتاج باوند الشعري ، لا يكاد يغادر هذه المأنوية : هل يمكن للشعر الذي يعبر عن آراء شريرة (مثل تأييد الفاشية . . .) أن يكون عظيماً أو رفيعاً حقاً؟ ومن جانب آخر ، إذا كان ذلك الشعر عظيماً ورفيعاً حقاً ، هل ينبغي أن نلوم المعايير الأخلاقية والموقع الجماهيري للشعر في حدّ ذاته؟

والحال أن هذا النوع من «الحرب الباردة»، إذا جازت تسميتها هكذا، سوف تكتنف دراسة وقراءة شعر باوند منذ فترة مبكرة في حقبة ما بين الحربين الكونيتين، حين اقترنت بعض مواقف باوند بالفاشية الإيطالية، وحتى أيامنا هذه. وأما أكبر أضرارها فستجلى في تعميم منظم، وبسبب من اتهامه بالعداء للسامية أيضاً، على إنجازات رجل يعتبر أحد أبرز آباء الحداثة الشعرية الأنغلو-أميركية، والشخصية الأشد تأثيراً في مثلي وتيارات وأساليب تلك الحداثة على امتداد القرن العشرين بأسره.

ولقد كان باوند شاعراً من طراز فريد، في ما يخص مهارات كتابة الشعر من جهة، ومهارات التجريب فيه والتنظير له من جهة ثانية، فضلاً بالطبع عن مكانته كناقد مثقف متمرس لم يكن أعظم شعراء الإنكليزية في مطالع القرن الماضي (الإرلندي و، ب، بيتس)، يتردد في تسليمه قصيدته ليُعمل فيها باوند ما شاء من تصحيح وحذف وتبديل؛ الأمر الذي كان حال شاعر كبير آخر هو إليوت، الذي عهد إلى باوند بقصيدته الأشهر «الأرض اليباب»، وكيف انتهت إلى ما نعرف. ويُقال، دونما مبالغة البتة، أن مجموعة القصائد التي تناهز الـ ١٢٠ قصيدة طويلة أو متوسطة، والتي كتبها باوند تحت عنوان موحد هو «الأناشيد» The Cantos، هي الإنجاز الوحيد العظيم للغة الإنكليزية في ميدان النوع الملحمي، ربما منذ قصيدة ملتون «الفردوس المفقود»، التي تعود إلى القرن السابع عشر. و«الأناشيد» هذه تأملات روحية وفلسفية، وحفريات ثقافية وتاريخية مدهشة في الحضارة الحديثة، تعيد إنشاء أكثر من ألفي سنة من التاريخ الغربي، في مونتاج من الأسطورة القديمة والشذرة التاريخية والأغنية والحكاية. ولم يكن مدهشاً أن يحقق هذا النصّ الفريد المعادلة الصعبة بين إحياء الكثير من عناصر التراث، وتجريب الكثير من أدوات الحداثة.

لكنّ باوند طوّر أيضاً مجموعة كبيرة من الأشكال الشعرية التي تميّزت ببراعتها اللغوية ومهاراتها الإيقاعية، وتمثّلها الإبداعي لأدب آسيوية وشرقية، صينية ويابانية ومصرية وسومرية وكنعانية. وصاغ عدداً من المفاهيم الأساسية للحداثة الشعرية الكونية، كما تتجلى هذه في المدرستين اللتين رعاهما، «التصويرية» Imagism و«الدّرامية» Vorticism، وفي الكثير من الأعمال النقدية التي كتبها باوند تعليقاً على الشعر والشعرية. ورغم ما يُعاب عليه عادة من تعاطف مع الأنظمة الفاشية خلال الحرب العالمية الثانية، فإنّ غالبية دارسيه وقراءه

يقرون بامتلاكه روحية المفكر الراديكالي اللامع الذي أسبغ حيوية كبيرة على الأدب المعاصر، من خلال جملة التحديات التي طرحها أشعاره وكتابات وأراؤه النقدية.

ولد إنرا لوميس باوند في هايلي، آيداهو، ودرس في جامعة بنسلفانيا، حيث تعرف هناك على الشاعر وليام كارلوس وليامز والشاعرة هيلدا دوليتل (هـ. د.)، ثم انتقل إلى نيويورك وحصل من جامعتها على درجة في الفلسفة، وعاد إلى بنسلفانيا للدراسة الماجستير في لغات الرومانس. وبعد تجربة تدريس عائرة أبحر إلى أوروبا، مازاً بفينيسا حيث طبع هناك مجموعته الشعرية الأولى «بذلات خامدة» A Lume Spento، ١٩٠٨. استقر باوند في لندن، ودخل الأوساط الادبية لأمثال بيتس، فورد مادوكس فورد، وت. ي. هيوم، وسرعان ما حاز الشهرة كشاعر مع صدور مجموعته «شخص» Personae، ١٩٠٩، وكناقد في كتابه «روح الرومانس» The Spirit of Romance، ١٩١٠. ومنذئذ سوف يلعب دوراً حيوياً في تنشئة ورعاية عدد من الأدباء الطالعين، مثل إليوت وجيمس جويس، والإسهام الفعّال في الكثير من المجلات الأدبية مثل Poetry، و The Egoist، و The Little Review، و New Age. تزوّج من دوروثي شكسبير سنة ١٩١٤، وفي سنة ١٩١٧ نشر أوّل قصيدة من الأناشيد، ثم أصدر مجموعته Hugh Selwyn Mauberley في سنة ١٩٢٠، وغادر إلى العاصمة الفرنسية باريس. حيث أقام صداقات واسعة مع الدادائيين، جان كوكتو، إرنست همنغواي، وجرتروود شتاين. وفي سنة ١٩٢٤ غادر إلى رابالو في إيطاليا، وتفرّغ للأناشيد، وانخرط في دراسة الثقافة الصينية، مثلما انخرط في اهتمام لم يكن غريباً أبداً على شاعر مثله: إصلاح النظام النقدي العالمي!

وهناك أيضاً، بدءاً بالعام ١٩٣٢، انخرط في صفّ موسوليني، ونشر كتاباً في الدفاع عنه بعنوان «جيفرسون و/أو موسوليني»، وبلغ حماسه للفاشية الإيطالية ذروته في الأحاديث الإذاعية الدورية التي كان يلقيها من راديو روما. وحين احتلّ الحلفاء إيطاليا سنة ١٩٤٥، ألقت القوّات الاميركية القبض على باوند وزُجّ به في سجن عسكري في بيزا، حيث كتب الأناشيد التي حازت على جائزة بوللينغن للشعر. وفي تلك السنة تعرّض لانهايار عصبي، أعلن الاطباء إثره أنه غير مؤهل نفسياً للمحاكمة، فنُقل إلى مصحّ عقلي قرب واشنطن قضى فيه ١٢ سنة، ثم أفرج عنه سنة ١٩٥٨ بعد سلسلة من حملات التضامن التي نظمتها

شخصيات وهيئات ثقافية على امتداد العالم . عاد باوند إلى إيطاليا، حيث تابع العمل على الأناشيد بصمت تام، إلى حين وفاته سنة ١٩٧٢ . ويُحسب له أكثر من ٥٠ عملاً، بين شعر وترجمات شعرية، وكتابات نقدية وفلسفية وجمالية .

كان، إذًا، شاعراً وناقداً ومؤلفاً غزير الإنتاج، متعدد الاهتمامات، ولكنّ الجوهر في كلّ نشاطاته كان إحياء الحدائث في الفنّ والمجتمع من خلال خلق وحدة جديدة بين الماضي والحاضر . ولقد نهل من كلاسيكيات منسية أو مهملة في الآداب الأوروبية والأميركية والآسيوية (في وسع القارئ العودة، من أجل مزيد من التفاصيل حول هذا الجانب، إلى المادة الممتازة المكتشفة في المجلد ١١٢ من موسوعة Contemporary Literary Criticism، التي عدنا إليها مراراً في هذه المقدمة) . ولهذا، فإنّ شعره يمثل مزيجاً فريداً من الأشكال العتيقة، والتضمينات المعقدة، والتجريب الطليعي، والمهارات الفنية العالية، والسيطرة البارعة على الشكل والمعمار . ومجموعته الأولى «بذبالات خامدة»، تعكس ميوله الغنائية الرومانتيكية المبكرة، وقرية من الموضوعات الكلاسيكية والقروسطية، فضلاً عن تأثره بشعراء مثل روبرت براوننغ، شارلز سوينبرن، وفرانسوا فيون . والمجموعات اللاحقة سوف تكشف المزيد من مهارات باوند الشعرية، والمزيد من تمثله لأشكال الشعر الأوروبي الكلاسيكي، والأنغلو-ساكسوني، والفرنسي، والإيطالي، وشعر التروبادور في هذين البلدين، فضلاً عن الأشعار الآسيوية والمشرقية .

ولقد قاد المدرسة «التصويرية»، بوصفها حفيذة المدرسة الرمزية الفرنسية أساساً، فبشّر بضرورة أن يقوّي الشاعر التزامه بمبادئ الوضوح واللغة المحسوسة و«الكلمة المناسبة» le mot juste كما كان يردد بالفرنسية . وشخصية الناقد في مقالاته ليست أقلّ جاذبية من شخصية الشاعر في قصائده، خصوصاً في كتابه «كيف نقرأ»، ١٩٣١، حيث يفصّل القول في مفاهيم التشكيل اللغوي الشعري الموسيقي Melopoeia، والبصري Phanopoeia، والفكري Logopoeia؛ وكتابه «دليل إلى الثقافة»، ١٩٣٨، والذي يتضمن آراءه في الأدب والفنون التشكيلية والثقافة والاقتصاد .

وكان اهتمامه بالأدب الصينية قد ترك أثراً عميقاً في شعره وسرّع في ابتكاره منهج الفكرة المرسومة Ideogram، وهي توسيع لمبادئ المدرسة التصويرية بعد استلهاهم

إزرا باوند: مختارات

ومحسوسة الحرف الصيني. وهذا ما يبرز استخدامه لفردات أجنبية، وكتابات مصوّرة صينية، أو حتى سلالم موسيقية للتعبير عن حالات أو مفاهيم محددة. وكانت ترجماته من الشعر الصيني، والتي صدرت في مجموعة Cathay، فضلاً عن ترجماته لسونيئات الإيطالي غيدو كافالكانتي، بمثابة العلامات الأولى على ميله إلى الأقتعة الدرامية أو الشخصوص الوكيلة التي تتيح استدخال الماضي في نظائر تنتمي إلى الحاضر. وإذ اتكأ على الشاعر الرومي سكستوس بروبرشيوس لإبراز الموضوع الملحمي، فإنه ابتكر شخصية «هيو سلوين موبرلي» لكي يقارب موضوعات السخرية السوداء، ويرسم كاريكاتور الإنسان الغربي المعاصر، دون أن يغفل الجوانب المأساوية للإنسان ذاته وهو يعيش شرط ما بين الحرين الكونيتين.

وليس في وسع دارس باوند أن يقاوم إغراء اقتباس وإعادة اقتباس العبارة الشهيرة التي أطلقها إليوت في وصف باوند، وذلك بعد زمن من الإهداء الشهير لقصيدة «الأرض اليباب» إلى باوند «المعلم الأهر»، في مقال مثير بعنوان «التفوق المنفرد»، حيث يقول: «إن امرءاً يبتكر إبقاعات جديدة هو امرؤ يوسّع حساسيتنا وينقيها؛ وتلك ليست مسألة «تكنيك» فحسب. ولقد حدث أنني، في السنوات الأخيرة، أخذت ألعن السيد باوند مراراً، فلم أعد واثقاً البتة من أنني أستطيع نسب شعري إلى نفسي: كلما شعرت بالرضا عن ذاتي، أجدني أردد بعض الصدى من إحدى قصائد باوند! كذلك أضاف إليوت إن باوند: «مكّن عدداً من الأشخاص بينهم أنا نفسي، من تطوير حسّهم بالشعر، وهو بالتالي حسّن الشعر من خلال الآخرين كما من خلال نفسه. وليس في وسعي أن أفكر بأي شخص كتب شعراً، من أبناء جيلنا والجيل التالي، دون أن يكون شعره (إذا كان جيداً) قد تحسّن عن طريق دراسة باوند».

الشجرة

نهضتُ ساكناً وكنْتُ شجرة وسط غابة،

عارفاً حقيقة أشياء لم يقع عليها بصرٌ من قبل؛

عن «دافني» وقوس الغار

وعن الزوجين العجوزين الضيفين على مائدة الربّ

اللذين استتبنا الدردارة والسنديانة وسط السهل المنبسط.

ولولا التضرع الرقيق في كنف الأكلهة ،
ثم دنو الأرياب من المصطفى في قلب موطنها ،
لما كان لهذه البدائع أن تُرى ؛
ورغم هذا ، ها أنني شجرة وسط الغابة
وثمة الكثير الجديد الذي أدركه
وكان ، قبل ، حماقة في بصيرتي .^(١)

بعيداً عن مصر

أنا ، حتى أنا ، هو الذي يعرف الدروب
في منحرجات السماء ، والريح لهذا جسدي .

لقد أبصرتُ «سيدة الحياة» ،
أنا ، حتى أنا ، الطائر مع السنونو .

الأخضر والرمادي رداؤهما
تجرجر أذياله في طول الريح .

أنا ، حتى أنا ، الذي يعرف الدروب
في منحرجات السماء ، والريح لهذا جسدي .

Manus animum pinxit

يراعي في يدي

لأكتب القول المقبول . . .

وههنا فمي ليشدو بالغناء الصافي!

مَن عنده القم الذي يتسلّم النشيد،

أغنية اللوتس البلدي؟

أنا، حتى أنا، الذي يعرف الدروب

في منعرجات السماء، والريح لهذا جسدي.

أنا الشعلة الناهضة في الشمس،

أنا، حتى أنا، الطائر مع السنونو.

القمر لؤلؤة هائلة في مياه الياقوت الأزرق،

وباردة بين أصابعي المياه الدافقة.

أنا، حتى أنا، الذي يعرف الدروب

في منعرجات السماء، والريح لهذا جسدي. ^(٣٧)

وهكذا في نينوى

بلى! أنا شاعر وعلى ضريحي

ستشر الصبايا أوراق الورد

والرجال الغار، قبل أن يفلح الليل

في ذبح النهار بسيفه المظلم.

صاح! هذا الشيء ليس لي
وليس لك لكي تخفيه،
ذلك أن العادة عتيقة، عتيقة
وهنا في نينوى أبصرت
أكثر من صادق يمر ويحتل مكانه
في تلك القاعات المعتمة حيث لا أحد يعكر
صفو منامه أو أنشودته .
وحيث الكثيرون أنشدوا أناشيده
بمهارة أعلى، وروح وثابة أشد مني بأساً،

أكثر من شاعر واحد سوف يتفوق
على جمالي الذي تتأكله الأمواج،
بما لديه من رياح الزهر
بيد أنني الشاعر، وعلى ضريح
سيشر كل الرجال ورق الورد
قبل أن يصبح الليل الضياء
بسيفه الأزرق .

وليس، يا «رعنا»، أن رنين أغنيتي هو الأعلى
أو أخل في النخمة من أي سواها، بل أنني أنا
هنا الشاعر، الذي يحتسي الحياة
بأسر مما يحتسي أغراثر الرجال النيزد .

العيون

امكث أيها المعلم، فإننا متعبون، متعبون
ونتحسس أصابع الريح
على هذه السقوف التي تحتم فوقنا
مخضلة ثقيلة كالرصاص.

امكث أيها الشقيق، وانظرا الفجر ينملح
والشعلة الصفراء تشحب
والشمع يتناقص.

حزونا، فإننا نندثر
في هذه الرتبة الطافحة الطاغية
لعلامات الطباعة القبيحة، وللأسود
على الرقعة البيضاء.

حزونا، فتم واحد وحيد
لا بتسامته نفع أعم
من كل المعرفة العتيقة الدقية في أسفارك:
واليه سوف نشخص.

روما

«ثلاثاً سوف تنبعث روما». برونشيو

أيها الوافد الجديد الباحث عن روما في روما
والذي لا يعثر في روما على أي شيء نسّميه رومياً؛
نبالاً اهترأت من قديم وأماكن باتت مشاهداً،
واسم روما وحده يُقيي صفة الموطن بين هذه الأسوار.

أنظر كيف يمكن أن يحلّ الفخار والخراب
على بلد ضمّ العالم بأسره في شرائعه،
وكما غزا، هو اليوم يُغزى، لأنه
فريسة الوقت والوقت يأتي على الكلّ.

وروما التي روما ليست، بعد، سوى نصب واحد أعزل،
روما التي بمفردها اجتاحت روما التخوم،
وحده نهر التيبر، زائلاً عابراً دانياً من البحر،
يتبقى من روما. أواه أيها الكون، يالسخريتك المتقلبة!
ذاك الصامد الراسخ في أزمانك ينحدر،
وذاك الفار الذي تولى، يسابق الزمن الخاطف. (٣)

أنشودة الصاحب الطيّب

سمعان الغيور يتحدث بعد زمن قصير من الصلب

هل فقدنا الصاحب الأطيب من الجميع
على أيدي الكهنة وشجرة الشنق؟
بلى، كان حبيب الرجال الأشداء،

وحين جاؤوا جماعات لاقتياد الرجل سيدنا
كانت ابتسامته عذبة للناظرين ،
هتف صاحبنا الطيب : «فلتطلقوا ، أولاً ، سراح هؤلاء»
وأردف : «ولا حَلَّتْ عليكم اللعنة» .

وحين أطلقنا عبر الحراب العالية المتصالبة
وانسرحت السخرية في ضحكته ،
«لِمَ لم تحتجزوني حين كنت أُنحَوِّلُ
وحيداً في البلدة؟» هتف بهم .

وحين شربنا النبيذ الأحمر الفاخر في صحته
ساعة اجتمعنا للمرة الأخيرة ،
لم يكن كاهناً سميناً صاحبنا الطيب
بل رجلاً من صلب الرجال كان .

لقد رأيته يسوق مئة رجل
بحزمة حبال منفلة متأرجحة ،
لأنهم حوّلوا البيت العالي المقدس
إلى مقام للميسر والدائق .

لن يقلحوا في استدراجه إلى الكتاب ،
رغم خبث ما يسفرون ؛
فالصاحب الطيب لم يكن فأر لفائف

ولكنه، بلى، أحبّ البحر العباب .

ولئن ساورهم ظنّ أنهم اصطادوا صاحبنا الطيب،
فالحمقى، كلّ الحمقى، يكونون.
«سوف أذهب إلى الوليمة»، قال صاحبنا الطيب،
«رغم أنني سأذهب إلى شجرة الشنق» .

«رأيتموني أشفي الكسيع والكفيف،
وأحبي الموتى»، قال لنا،
«ولسوف ترون امرأة واحداً يفوق هذا كلّه:
كيف يموت الرجل الشجاع على شجرة» .

ابناً لله كان الصاحب الطيب
الذي أرادنا أن نكون أشقاءه .
رأيته يلقي الرعب في ألف رجل .
ورأيته معلقاً إلى شجرة .

لم يصرخ صرخة واحدة وهم يدقّون المسامير
فينجس الدم حارّاً طليقاً،
وحتى حين صارت لكلاب السماء القرمزية السنة،
ما سمعناه يصرخ صرخة واحدة .

مثل البحر الذي لا يطبق السفر
والريح عاتية طليقة،
مثل البحر الذي روضه في «جَنيسارت»

ستيد البشر كان الصاحب الطيب ،
ورفيق الريح والبحر ،
فلذا اعتقدوا أنهم ذبحوا صاحبنا الطيب
فلإنهم الحقمى أبد الدهر .

رأيتَه يأكل شهد العسل
بعد أن سَمَروه إلى شجرة .^(١)

الملاح

هل لي ، بغية الحقيقة في ما أختي ، أن أتلو
رطانة الرحلة ، وكيف أنني في أيام
المشقة تحملتُ مراراً .
سكنتُ إلى مقامات الأسي المريرة ،
وجيشان البحر الرهيب ، وكيف قضيتُ هناك
ليالي الحراسة المضنية قرب رأس السفينة
وهي تغوص نحو الجرف . أوجع البرد
قدمي ، وخذلهمما الضيق .
جليدية قيودها ، والتهديدات المقترحة
تُفطر قلبي مضغّة مضغّة ، والمسغبة تبعث
مزاجاً ملولاً راكداً . مخافة أن لا يعلم الإنسان
أنه يقيم في أرض جرداء حبيبة ،
أنظروا كيف أنني ، أنا الفقير إلى الخنوّ ، أجوب بحرّاً قارساً كالجليد ،

نبحوث من الشتاء، منبوذاً منفياً
مضيقاً عشيرتي؛
معلقاً مع ندف الجليد الصلبة، حيث تنهال رشات البرد،
وحيث لا أصبح السمع إلا إلى البحر العاتي
والموجة جليدية البرد، وصرخات البجع بين فينة وأخرى،
وحيث جلبه الطير ما ألوه به،
وصخب الكروان صانع ضحكتي،
وغناء النوارس كل شرابي.
والعواصف، تلك المتكسرة على الجرف الصخري، خرت على مؤخر السفينة
بأرياش جليدية؛ وغالباً ما يصرخ النسر
والرشاش على جناحيه.
لا أحد من الحماة
يمكن أن يدفع المرء إلى عز الملاحه.
إيمانه واهن بهذا، هو الذي في الحياة البهيجه
يتحمل الأعمال الثقيله بين الدساكر،
ثرياً، متفخ الأوداج من أثر النيذ، وكم أسام
وأنا أتصبر على المياه المالحه.
ها هي تثلج في الشمال، قريباً من ظلال الليل،
الصقيع جمّد الأرض، وعلى الأرض تساقط البرد بعدها،
الذرة الأبرد. ومع هذا، تفرع للتو
فكرة في القلب تضعني فوق تيارات عالية
أعبر، وحيداً، خضّم الموج الملحي.
الرغبة تنّ أيداً في قرارتي
فتجعل دأبي أن أرتحل، حتى أنني في البعيد منقلب

أفتش عن مقام ناءٍ غريب .
فلا أرى في البرّ رجلاً رقيق الحاشية ،
حتى لو وهبَ الأعطيات الكريمة ، فسيقى جشع الشباب في حناياه ؛
فلا فعله مع الجُسُور ، ولا حُكمه مع الوقي
سيخلّصانه من أسى السَفَر البحري
أيّا كانت مشيئة سيّده .
ليس له قلب نزاع للقيثار ، ولا اقتناء الخواتيم
ولا الافتتان بالزوجة ، أو مباهاج الدنيا
أو أيّ مثقال ذرة آخر سوى شقّ الموجة ،
غير أنّ الأشواق تستعته كي يغلّد المسير فوق المياه .
الباسقة تزهّر ، وجمال العليق يتكشف ،
حقول فسيحة للبهاء ، واليابسة تدنو رشيقه ،
وتراه ، في غمرة كلّ هذا ، بحث امرءٍ أتواق الطبع ،
والقلب يتلفت إلى الترحال ريثما يخال
أنه يغادر بعيداً على دروب الطوفان .
الوقوف ينادي بصراخ كثيب ،
ويشدو لسيد الصيف ، مندرأً بالأسى ،
ويدم القلب المرير . وابن المعمورة ليس يعرف
- هو الرجل المنعم - ما الذي يكند له البعض
ولام يقودهم دأب التجوال .
ولأنّ قلبي لا ينبجس من قفص صدري إلا الساعة ،
وأطواري تتبدّى في غمرة الطوفان المحاذي ،
فوق قدان الخوت ، أجنني أرتحل طويلاً وعرضاً .
ومن اتساع الأرض تتفاطر عليّ ،
تواقة وثابة ، طيورٌ عزلاء صارخة ،

تشعلد القلب المستكين في درب الحوت ،
وعلى مسالك المحيط ؛ وإذ ، في كل حال ، أرى
أن ربي قد قَسَم لي هذه الحياة الموات
في الحُل والترحال ، فإني على يقين
أنه ما من بقاء لأني رخاء دنيوي أبد
إلا ويعتره شيء من البلوى
التي ، قبل أن تحين ساعة الأدمي ، تقوض الميزان .
السقم أم الشيخوخة أم بغضاء السيف
تبحث النفس من الجسد المكبل بالقدر .
ومن أجل هذا ففي ناظر السيد أياً كان ،
ذاك الذي يتكلم بعد حين ، خيّر له مديح القادمين من بعده
بدل الفخار بمحض كلمة أخيرة ،
وخيّر أن يعمل قبل أن يتخطى الصفوف ،
ويجتنب الأرض البديعة خبث الأعداء
بالأعمال الجسورة . . .
وبهذا سوف يكرمه البشر أجمعون بعدها
ومديحه سيخلد بعلمهم ويكث في اللغة ،
إلى الأبد ، دائماً ، نفحة حياة خالدة ،
وبهيجة وسط الكرام .
أيام تنقضي قصيرة
وكل ما في كنوز الدنيا من خيلاء ،
لا تبقي ملوكاً أو قياصرة ،
أو أشرافاً واهبي ذهب مثل الدين بارحوا .
وأياً كان المرح عندهم فائقاً ،
أو كانت رفعتهم في الدنيا عظيمة ،

موحش كل هذا، ومباهج زائلة!
البقطة واهنة، والدنيا بصيرة.
اللحد يخفي المشقة. والنصل خفيض واطيء.
مجد الدنيا يشيخ ويذوي.
لا أحد يذرع الدنيا،
إلا ويدركها العمر قبله، فيشحب وجهه،
وأشيب الشعر يتنّ، والأقران فارقوا،
والسادة الأشراف إلى تراب،
وأنى له أن يكسى لحماً، في حياة تتوقف،
أو يدوق الحلوى أو يخامرہ الأسف،
أو ترتعش له يد أو يفكر بقلب غامر،
ورغم أنه قد يجلل القبر بالذهب،
فإن أشقاءه في المولد، بأجسادهم في المدافن
لن يكونوا أكثر مؤونة له. ^(٥)

العودة

أترى، ها هم يعودون؛ أترى
الحركات المترددة، والأقدام البطيئة،
الاضطراب في الخطو وتلك
التلويحة الحائرة!
أترى، ها هم يعودون، واحداً، واحداً،
بالفرع، بنصف استفاقة؛
كأن الثلج ينبغي أن يتردد

ويغمغم وسط الريح،
ثم يعود في نصف استدارة؛
تلك هي «المجنّحة بالرهبة»
التي لا تُستهك حرمتها

آلهة الحناء المجنّح!
ترافقها كلاب الصيد الفضية
تشتمّ أثر الهواء!

إلّهي! إلّهي!
تلك كانت الأسرع في الإغارة؛
تلك، ذات الرائحة النفاذة؛
تلك كانت نفوس الدم.

بطء على المقود،
شعوب يعترّي رجال المقود! ^(٧)

الريبع

«السفرجل الكيدوني في الربيع». إبيكوس

الربيع الكيدوني وموكبه المصاحب،
حوريات شجر الفاكهة وبنات المياه،
يخطرُن أسفل ربح صحابة آتية من «ثراسي».

فني أرجاء مقام الأجام هذا
وينشرن النفحة المضينة،
وجذع كل كرمة
كسسته التماعات جديدة .
ورغبة ضارية
تسقط مثل برق أسود .
أيها القلب الواجف،
كل غصن استرد ما فقدته السنة الفائتة،
إلا هي، التي تخطر هنا وسط أزهار بخور مريم،
لا تسير الآن إلا شبحاً لصيقاً نحيلاً .^(٣)

مجاز الرقصة

لأجل العرس في قانا الجليل
يا سوداء العينين،
يا امرأة أحلامي،
ذات الصندل العاجي،
ليس مثلك بين الراقصات،
ليس لأيهن الأقدام الرشيقة .
لم أعر عليك بين الحيام،
في الظلمة المنكسرة .
لم أعر عليك عند رأس البئر
بين البنات حاملات الأباريق .
ذراعاك فتيان مثل شجيرة تحت اللحاء؛
وجهك مثل نهر طافح بالمصابيح .

بيضاوان مثل زهرة لوز كتفاك؛
مثل لوزة طازجة سُلمخت قشرتها؛
لا يحركك المخصيون؛
وليس يقضبان النحاس.

اللازورد المذهب والفضة في رنخس ساعدك.
بالثوب البني، بخيوط ذهب حيكت
رسوماً، التفت قامتك.
أيتها «الشجرة اللابثة عند النهر».

مثل ساقية صغيرة وسط البردي يداك عليّ،
ومثل جدول صقيع أصابعك.

وصيفاتك بيضاوات كالخصى؛
وموسيقاهن تصدح بك!

ليس مثلك بين الراقصات،
وليس لأيهن الأقدام الرشيقة.^(٨)

ترنيمة المصاعد

I

لا تكبر حيني أيتها الأكران الصينية،
فأنا أحوال الشر في الزجاج.

II

الريح تهب فوق القمح -
والفضة تنكتس،
ثمة حرب للمعدن خفيفة .

لقد عرفتُ قرص الذهب،
رأيتَه يدوب فوق .
عرفتُ المقام ذا الحجر اللامع،
رواق الألوان الفاتحة .

III

أيها الزجاج الشريفي خفاء، يا تشوش الألوان!
أيها الضوء المنطوي المنحني، يا روح الأسير،
ما الذي يدفعني إلى الحذر؟ ما الذي يقصيني؟
لماذا يطفح بهرجلك بالريبة الغريبة؟
أيها الزجاج الداهية الأريب، يا مسحوق الذهب!
يا شعيرات الكهرمان، أيتها التقزحات اللونية ذات الوجهين!^(١)

«ليو تشي إي»

حفيف الحرير انقطع،
والغبار انتال على امتداد الفناء،
لا نائمة لوقع أقدام، والأوراق

تعدو إلى أكوام لتهمد ساكنة ،
وهي ، مبهجة القلب ، تستلقي تحتها :

ورقة ندية تلتكأ عند العتبة . (١٠)

في محطة مترو

مرأى هذه الوجوه في احتشادها :
بتلات على غصن نديّ ، أسود . (١١)

أغنية الرماة في «شو»

ها نحن هنا ، نجمع أولى براعم السرخس
ونقول : متى سنعود إلى أوطاننا ؟
نحن الذين هنا لأن الـ «كين نين» هم أعداؤنا ،
وليس لنا أن نخلد إلى الراحة جرّاء هؤلاء المغول .
ننقب عن براعم السرخس الطرية ،
وحين ينطق أحد بكلمة «عودة» ، تطفح كلّ النفوس بالأسى .
أرواح ملأى بالأسى ، والأسى شاقّ ، ونحن جياع عطاش .
دفاعاتنا ليست حصينة بعد ، وليس في وسع أحد أن يسمح بعودة صديقه .
ننقب عن سيقان السرخس العتيقة .
ونقول : هل سيُسمح لنا بالعودة في تشرين الأول ؟
الشؤون الملكية ليست هيّة ، وليس لنا من عزاء .
الأسى مرير في نفوسنا ، ولكن هيهات أن نقرب إلى أوطاننا .

ما الزهرة التي أينعت؟

عربة من هذه؟ للقائد.

جياده، حتى جياده، تعبت. هي التي كانت قوية.

لا نملك قسماً من الراحة، بثلاث معارك في الشهر.

جياده تعبت، بحق السماء.

القادة يمتطونها، والجنود يحفون بهم.

الجياذ عالية التدريب، وللقادة سهام عاجية

وكنانات مطرزة بجلد السمك.

العدو سريع المباحثة، وعلينا الحذر.

كانت أشجار الصفصاف تتدلى مع الربيع حين أتينا،

وها نحن تحت الثلج نعود،

نمضي ببطء، جياحاً عطاشاً،

روحنا طافحة بالأسى، فَمَن سيلتفت إلى ما نحن فيه من شعب؟⁽¹⁷⁾

أهل الجنوب في البلاد الباردة

حصان الـ«داي» يصهل في وجه ربيع الـ«إيتسو» القارسة،

طيور الـ«إيتسو» لا تحمل الحب لـ«إين»، في الشمال،

العواطف تولد بفعل العادة.

البارحة خرجنا من بوابة «الإوزة البرية»،

واليوم من «يراع التنين».

الدهشة أصابتنا. احتياج الصحراء. شمس البحر.

القمل يتج كالنمل على عتادنا.

الذهن والروح يتبعان الرايات المرتيشة.

القتال الشرس لا يجزي شيئاً.

الولاء صعب التفسير . فمن سيحزن للقائد «ريشوغو» ،
الرشيق الخاطف ،
الذي فقدنا رأسه من أجل هذه المقاطعة ؟ (١٣)

في إطاره سكستوس بروبرشيوس
VI

متى ، متى ، وأنى للموت أن يسيل أجفاننا ،
نسير عراة على طول «أشرون»
على الرمث ذاته ثمة الظافر والمهزوم معاً ،
«ماريوس» و«جوغورثا» معاً ،
كتلة واحدة من الظلال المتشابكة .

القيصر يتأمر على الهند ،
ودجلة والفرات سيندققان ، من الآن فصاعداً ، بأمر منه ،
والـ «تييت» سوف يمتج رجال الشرطة الروم ،
وعلى البارثيين أن يعتادوا تمائيلنا
ويعتقوا الديانة الرومية ؛
رمث واحد على فيضان «أشرون» المقتنع
«ماريوس» و«جوغورثا» معاً .
وحتى في جنازتي لن تكون هناك قافلة طويلة
تحمل الأرواح الحارسة والرسوم ؛
لا أبواق ملأى بفراغي أنا ،

ولن تكون، أيضاً، على فراش «أتاليك»؛
التياب المعطرة متغيب.
والموكب بسيط مبتذل.
يكفي، يكفي ويزيد
متكون ثلاثة كتب في مائتي
هي التي سأحملها، هديتي غير المتواضعة، إلى «برسيفون».

سوف تتبع الصدر العاري الحرون
ولن تسأم من مناداتي باسمي، كما لن تسأم كثيراً
من طبع قبة أخيرة على شفتي
حين يتكسر العقيق السوري.

«ذاك الذي صار إلى تراب مهجور
كان ذات مرة عبداً لشهوة واحدة»:

ولتكتب المزيد
«لِمَ يتمهل الموت؟»
يحدث، أحياناً، أن تنعى صديقاً فقيداً،
فالعرف هكذا يقضي:

هذا الحرص على الراحلين،

ومنذ أن نطع الخنزير أدونيس في «إداليا»، وركضت
«أفروديت» باكية بشعر مرسل،
عبثاً تسترجعين الظلال،
عبثاً يا «سثيا». نداء الظل بلا مجيب،
والقول الصغير يأتي من العظام الصغيرة. (12)

المنشيد XLVII

مَنْ الذي، حتى في عماته، يَقِظُ البصيرة!
ذاك صوت تناهى في الظلام
عليك أولاً أن تسير في الطريق
إلى الجحيم
وإلى تعريشة «بروسرينه»، ابنة «سيرسيه»،
صبر طبقات الظلام الحالك، لتري «تيريزياس»،
كفياً كان، محض ظلّ، في الجحيم
مليئاً بالعلم الذي يجهله الرجال السمان،
قبل أن تبلغ نهاية طريقك .
معرفة ظلّ الظلّ،
وعليك أن تبهر بعد المعرفة
وأنت تعرف أقلّ مما تعرفه بهائم الوحش .
phtheggometha
thasson

(فلنرفع أصواتنا دون إعطاء)
المصاييح الصغيرة تتدافع في الخليج
ومخالب البحر تتلقطها .
«نبتون» يشرب بعد جزر المحاق .
تموزا تموزا
الشعلة الحمراء ماضية صوب البحر .

واختبارك سيجري عبر هذه البوابة .
من السفن الطويلة أشعلوا الأضواء في المياه
ومخالب البحر تلتقطها في الأمام .
كلاب «سيللا» تزمجر عند باطن الجرف ،
والأسنان البيضاء تقضم أسفل الصخرة ،
لكن الليل الشاحب يطفو بالمصابيح الصغيرة جهة البحر

TUDIONA

(أنت يا ديونا)

KAI MOIRA T ADONIN

(والأقدار من أجل أدونيس)

مع أدونيس يصبح البحر مخططاً بالأحمر
والأضواء تلتصع حمراء في الجرار الصغيرة .
شتلات الحنطة تنهض جديدة قرب الملبع ،
والزهرة من البذرة الخفيفة .
شيران ، شيران من المرأة ،
وبعد لا تؤمن بشيء . لا شيء يرتدي أية أهمية .
منكبة على هذا . وفي تيتها
ذلك المكر الذي تسميه النوايا الثقيلة ،
سواء ليلاً حين تصبح البومة ، أو أوان النسغ في الشتلة ،
لا تكمل ، وليس لسبب أو بخدعة مؤقتة
تستدعي العثة إلى الجبل
ويركض الثور أعمى على السيف ، naturans (وفقاً للطبيعة)

والى الكهف تُستدعى، يا «أوديسوس»
بفعل نبات الـ «مولو» تأخذ قسطاً قليلاً من الراحة،
ويفعل نبات الـ «مولو» تتحرر من ذاك الفراش
لعلك تعود يوماً إلى سواه
النجوم ليست في تعدادها،
هي عندها محض ثقب جوّالة.
إشرع في حرائتك
حين تأوي نهوم الشرا إلى مهاجعها،
إشرع في حرائتك
فهي ستمكث ٤٠ يوماً تحت سقف البحر
وهكذا ستمكث في حقول قرب سقف البحر
وفي وديان تتعرج هابطة نحو البحر.
حين تطير الغرائق عالياً
فكثّر بالحرائة.
اختبارك سيجري عبر هذه البوابة
ويومك بين باب وباب
ثوران مربوطان للمحرائة
أو ستة في الحقل
شحنة بيضاء تحت الزيتونات، وعلامة لازاحة الحجارة،
والبغال هنا محملة بالواح إردوازية على درب التلّ
وما برحت هكذا.
النجوم الصغيرة تختر الآن من غصن الزيتون،
والظلّ المتفرّع شعبتين يسقط مظلماً على السطحية
أكثر سواداً من طائر السنونو الطافي

الذي لا يكثر بحضورك،

وبصمة جناحه بقعة سوداء على آجر السقف

غَبَّ أن مضت البصمة مع صرخته .

وهكذا فإن الضوء هو ثقلك على كاهل «تيللوس»

والثلم الذي خلقت لم يحضر عميقاً

وزنك أخف من ظلّ

ومع هذا فقد قرصت في طول الجبال

ناب «سيللا» الأبيض أقل حنة

فهلاً وجدت عشاً أنعم من الفرج

وهلاً عثرت على مستراح أفضل

ألدك أساس أحمق، وهل عام وفاتك

سيجلب شتلة أسرع نمواً؟

هل دخلت في الجبال، عميقاً أكثر؟

الضوء اقتحم الكهف . أتري أترى!

الضوء هبط إلى الكهف،

بهاء على بهاء!

بازميل في يدي اخترقت هذه التلال:

ها أن العشب ينمو من جسدي،

وها أني أسمع الجنور تتحدث،

والهواء جليد على ورقتي،

والأغصان المتشعبة ترتحف وسط الريح .

هل «زيفيروس» أخف وزناً على الغصن، و«أليوتا» أكثر ضياءً على غصن اللوز؟

من هذا الباب دخلت إلى الجحيم .

يختر،

أدونيس يختر.

الفاكهة تلي ثانياً . الأضواء الصغيرة تتدافع مع المد،

ومخالب البحر تمطر المصاييح إلى الأمام.

فكر، إذا، بحر اثلثك

حين تأوي النجوم السبع إلى مهاجمها

أربعون يوماً راحة قرب سقف البحر

والرياح في الوديان تؤوب صوب البحر

KAI MOIRA T' ADONIN

حين غصن اللوز يطلق شعلته

حين يؤتى بالشتلات الجديدة إلى المذبح

TUDIONA ، KAIMOIRA

KAI MOIRA T' ADONIN

التي لها القدرة على الشفاء

التي لها السطوة على الوحوش الضارية. (١٥)

الشيد CXV.

(مقطع)

أهل العلم في فزع

والعقل الأوروبي تعطل

وندهام لويس اختار العمى

بدل أن يتعطل عقله .

ليل تحت ربيع وسط زهر الآلهة ،

البتلات ساكنة أو تكاد

موتزارت ، لينايوس ، سولونا ،

حين يكره أصحاب المرء بعضهم البعض

كيف يمكن أن يحلّ السلام في العالم ؟

خشونتهم حَرَقَتني في سنوات اليقظة .

قشرة خارجية مستهلكة

لكن لضياء يفتني أبدأ

وهج شاحب فوق السبخات

حيث قشّ الملح يهمس لتبدّل المدّ

زمان ، مكان ،

لا الحياة الجواب ولا الممات .

وللرجل الباحث عن الخير ،

أفعال الشرّ جزاء .

In meiner Heimat

(في موطني)

حيث الموتى يسبّرون

والأحياء صُنِعُوا من ورق مقوى .^(١٧)

هوامش المترجم :

(١) قصيدة مبكرة تعود إلى عام ١٩٠٨ ، وتُقتبس عادة كمثال على التزعة الغنائية الرومانتيكية التي اتسم بها شعر باوند في المراحل الأولى . في السطر ٣ ، «دافني» في الميثولوجيا الإغريقية تحوّلت ، بناء على طلبها ، إلى شجرة زيزفون لتضاد ملاحقة أبوللو . السطر ٤ ، هما «فيلمون» و«بوكيس» ، اللذان درّبا ومزّعا «زيوس» و«هيرميس» فكافأتهما الآلهة بالاستجابة إلى طلبهما في الموت معاً ، وفي التحوّل إلى شجرتين تتمانق أغصانهما .

(٢) قصيدة مبكرة بدورها ، كُتبت سنة ١٩٠٧ ، وهي مثال كلاسيكي على المهارات الشكلية والإيقاعية العالية التي ستصبح قرينة القصيدة الباوندية ، فضلاً عن كونها تتلذذ بما سيترسخ في نفس الشاعر من ولع بالأدب الشرقية ، وبينها «كتاب الموتى» الفرعوني الشهير والتراث السومري . البابلي ، كما يتجلى في قصيدته «هكذا في نينوى» .

(٣) الاقتباس باللاتينية في الأصل : Troica Roma resurges ، وسكستوس برويرشيوس (١٥٠ ق . م .) شاعر روميّ ، صاحب «سبثيا» التي تعدّ واحدة من عيون الرثاء في الأدب الغربي الكلاسيكي . وسيكرس له باوند مجموعة القصائد المعروفة باسم «في إطاره سكستوس برويرشيوس» .

(٤) سمعان الفيّور Simon Zelotes ، أو الكنعاني كما يُعرف أحياناً ، هو أحد الرسل ويتردد ذكره في معظم الأناجيل . ومن الواضح أنّ القصيدة حافلة بإشارات إلى تفاصيل حياة يسوع . وهذه ، مثل سابقتها «الشجرة» ، «بعبداً عن مصر» ، «هكذا في نينوى» ، «العيون» ، و«روما» ، هي من مجموعة «شخوص» Personae التي تمتدّ كتابتها على سنوات ١٩٠٨-١٩١٠ .

(٥) هذه واحدة من أشهر قصائد باوند ، ولا تكاد تغيب عن أيّ مختارات من أشعاره ، كما تُناقش غالباً في معظم الدراسات النقدية التي تناولت تجربة الشاعر . ولقد نُشرت للمرّة الأولى في مجلة New Age ، أواخر سنة ١٩١١ ، ضمن سلسلة كان باوند يكتبها تحت عنوان موحد هو «تجميع أوصال أورفيوس» . والحال أنها نموذج بارز في كلة شعرية خاصة تميّز بها باوند ، هي القصائد المترجمة التي تُنسب إلى الشاعر دون إشكالية كبيرة غالباً ، لأنها ببساطة ليست ترجمة تماماً ، أو هي أكثر من مجرد ترجمة . هنالك مجموعة القصائد المترجمة عن الشاعر الروميّ سكستوس برويرشيوس ، وتلك المترجمة عن الشعر الياباني والصيني . وهذا النصّ واحد من أقدم النصوص الشعرية الأنغلو - سكسونية المكتوبة بالإنكليزية القديمة Old English ، ويشتهر باسم The Sea farer ، وقد قُدّم في ترجمات شعرية ونثرية عديدة . ولكنه ينقلب على يد باوند إلى نصّ جديد مدّش في اعتبارات عديدة . ثمة تلك المهارات اللغوية والصرفية والإيقاعية ، الصوتية خاصة ، التي لا تشبه أيّ نظائر في النصّ الأصلي (على سبيل المثال : «التصل خفيض واطيء» هي ترجمة باوند للأصل الذي يقول : «المجد انحسر» . وثمة ذلك «التحرير الوثني للقصيدة» ، على حدّ تعبير مايكل ألكسندر ، أي تجريبها على يد باوند من طابعها الديني المسيحي وتحريكها إلى إشراف تأملية

وملحمة إنسانية أولاً، تخصّ البشر وليس الكينونة الميتافيزيقية. إنها، كذلك، واحدة من كبريات القصائد التي يستعرض فيها باوند مهاراته الشعرية العالية، في النظم والتشكيل الإيقاعي ونيش المفردات القديمة وإعادة توظيفها على نحو شديد الإبداع والشاعرية من جهة، وشديد الانضباط دلاليّاً من جهة ثانية، وشديد التفنن والاقتصاد ثالثاً. إنها، أخيراً، واحدة من أجمل قصائد الشاعر وأصعبها قراءة وترجمة، غنيّة عن القول.

(٦) أثارت هذه القصيدة إعجاب الشاعر الإيرلندي الكبير و. ب. ييتس، حتى يتردّد أنه، بعد قراءتها، وافق أن يمزج باوند بالقلم الأزرق على بعض قصائد ييتس، أي أن يتخلّل فيها حذفاً وتصحيحاً وتحريراً كما فعل مع قصيدة ت. س. إليوت «الأرض الباب». وعبارة «المجنّحة بالرهبة» غامضة، وإن كان بعض الشراح يحيلها إلى الإلهين زيوس وجوبيتر، وكلاهما رمز النسر. وقصيدتنا «الملاح» و«المودة» من مجموعة «ردّ الصاع» Riposte، التي صدرت سنة ١٩١٢.

(٧) الاقتباس باليونانية في الأصل: من الشاعر إبيكوس الذي اعتبره باوند «اللون الصافي» في علية ألوان الشعر الإغريقي. وكيدونيا بلد في كريت، ولفظها في اليونانية يتصادى مع لفظ مفردة «السفرجل». أمّا «نراسي»، فهي الأرض الحقيقة من البلقان الشرقي.

(٨) كتب باوند هذه القصيدة لتكون على غرار «المودة» إيقاعياً ومعمارياً، مع فارق أنها أيضاً مثال على طرائقه في اعتماد الأوزان ضمن شكل الشعر الحرّ «بحيث تكون الحركة مثل ضربات الطبل» وعلى وقع المفردات ذاتها، كما قال. والإشارة إلى عرس قاتا الجليل تحيل إلى يوحنا (١: ٢) حيث قام يسوع بأولى معجزاته فحوّل الماء نبيلاً. هنالك أيضاً، في السطر ١٠، صدى لأسطورة «دافني» التي انقلبت إلى شجرة؛ وفي السطرين ١٢ و١٣ حالة إلى الأسطورة الإغريقية عن الحورية فيليس التي انقلبت إلى شجرة لوز. و«الشجرة اللابنة عند النهر»، في السطر ١٩، وترد في الأصل هكذا: Nathat-Ikanaie، قد تعود إلى أختانوت.

(٩) «ترنيمة للمساعد» هو العنوان الفرعي للمزامير ١٢٠-١٣٤، وهذه القصيدة بين سلسلة كرسها باوند لهجاء معدن الذهب، ضمن اعتبارات اقتصادية وأخلاقية تخصّ معالجاته لمسائل الفقر والغنى ومفهوم المال والقيمة التداولية إجمالاً.

(١٠) «ليو تشي إي» (١٥٧-٨٧ ق.م)، شاعر وإمبراطور صيني من سلالة «هان». والقصيدة تُرجمت، أو بالأحرى: كُتبت، ضمن مجموعة قصائد صينية أخرى قصيرة، بمثابة تنويعات على شكل الـ «هايكو».

(١١) القصيدة الأقصر والأشهر في سلسلة ما سيسمّي باوند «قصيدة الصورة الواحدة»، والتي نُشرت في حزيران (نيسان) ١٩١٣، وتستند بميلاد «الحركة التصويرية». ومن الجدير بالذكر أن باوند كان، كلما نُشرت القصيدة، يصرّ على ترتيب طباعي خاصّ يتضمن فراغات محددة داخل السطور لغاية إيقاعية في نظره، على النحو التالي: «مرأى هذه الوجوه في احتشادها: بتلات على غصن نديّ، أمود». وقصائد «الربيع»، «مجاز الرقصة»، «ترنيمة المساعد»، «ليو تشي إي»، و«في محطة مترو» هي من مجموعة «أضحية للجموع»

Lustra التي صدرت سنة ١٩١٦ .

(١٢) القصيدة في الأصل للشاعر والملك الصيني «بونو»، من سلالة «تشو»، وتعود إلى ١١٠٠ قبل الميلاد. وهي واحدة من أبرز قصائد مجموعة «كاثاي» Cathay التي صدرت سنة ١٩١٥ وتضمنت ترجمات باوند من الشعر الصيني غالباً، اعتماداً على هوامش ومصنفات إرنست فينولوزا، الباحث الشهير المختص بالثقافة الصينية.

(١٣) القصيدة للشاعر الصيني «لي بو»، أو «يههاكو» كما يُسمى أحياناً. والد «هاي» هو الشمال، والد «يتسو» الجنوب، والد «لين» اسم حملة، باللغة الصينية على التوالي. والإشارتان إلى بؤابة «الإوزة البنية» و«يراع التين» تقيدان للمسير في الإمبراطورية من أنصاها إلى أنصاها.

(١٤) نموذج من قصائد مجموعة «في إطاره سكستوس يرويرشيوس»، التي صدرت سنة ١٩١٧. إحالات القصيدة: «أشرون» اسم يُطلق على عدد من الأنهار، خصوصاً ذلك الذي يصب في العالم السفلي، و«كايروس ماريوس» كان قسلاً سبع مزارع، وهو الذي أسر وأعدم «جورجورثا» طاغية «نوميديا»، والإشارة إلى الهند تذكر بما قيل من أن القصر قبيل وفاته فُكر في غزو الهند، والبارثيون قبائل أقامت شرق بحر قزوين، وتمكنت من هزيمة مارك أنتوني في موقعة «فراواتا» الشهيرة، والد «أتالي» نسبة إلى «أتالوس» حاكم «بيرغاموم» وإليه يُنسب اختراع حياكة الشيايب من الذهب، والمقيق السوري إشارة إلى صندوق المرهم الذي يوضع على، أو يُلقى في، حفرة الجنائز.

(١٥) هذه، في تقديرنا، هي القصيدة الأجمل بين مجموع الأناشيد Cantos التي لم يتوقف باوند عن كتابتها منذ العام ١٩٠٤ وحتى وفاته سنة ١٩٧٢. ومن الواضح أن في القصيدة تلميحات عديدة من هوميروس وحكاية أوديسيوس (هوليس) بصفة خاصة، ولكنها تتجاوز الثقافة الهوميرية إلى أزمنة حالكة حديثة بقدر ما هي قديمة، حيث المتاهات دروب قسرية أمام المصائر البشرية. المفردتان phtheggometha و thasson هما تشكيل أقرب إلى الرسم الصوتي لعبارة «فطر فع أصواتنا دون إعطاء» التي تعنيها مكتوبة باليونانية، ونحو يرد هكلدا في الأصل: Tamuz، ونبات الد «مولو» Molli هو المشبة التي يعطيها «هيرميس» لـ «أوديسيوس» كي يقاوم مختر «سيريس»، و«تيللوس» Telius هي إلهة الأرض عند الروم، و«زيفيروس» و«أبليروتا» هما الريح الغربية والشرقية على التوالي.

(١٦) وندهام لويس (١٨٨٤-١٩٥٧) كاتب وفنان تشكيلي كندي-بريطاني، يُعتبر الأب المحرّض على تأسيس المذهب التجريدي المعاصر المعروف باسم «النؤامية»، والذي سيطلقه باوند على صعيد الشعر والتظهير الأدبي. وكان لويس قد «اختار الحمى» بالفعل حين رفض إجراء جراحة لتصحيح ورم خبيث. والإشارات التي تخصّ الزمن في هذا النشيد غيل، غالباً، إلى كتاب لويس «الزمن والإنسان الغربي»، ١٩٢٧. «لينايروس» هو الكتابة اللاتينية لاسم المستكشف وعالم النبات السويدي كارل فون لينيه (١٧٠٧-١٧٧٨)، و«سولونا» هي مسقط رأس أوفيد، وتقع شرق روما.



ينطق عن الهوى قصائد

طاهر رياض

البحر

«ليس البحر بعيداً»
قال بصوت حافٍ ،
ورمى يديه جهات غامضة
خلف تخوم الليل .

سألت : وكيف يكون البحر ؟
- سماء سائلة ،
أزرق أحياناً ، أخضر أحياناً ،
لا تحت له لا فوق
ولا يسكنه غير الغرقى

قلت : الغرقى موتى
قال : الأحياء إذن موتى . .

- لكن الأمواج ..

- مراكب للضوء ، فراش قلق للأقمار ،
طيور غابرة

لم يبق سوى أجنحة منها ، تهلر ..

- أحلم بالبحر ،

فعلمني كيف أمد إلى البحر خطاي

ومتيحني في البحر

وضوئي بقناديل البحر ، وقل لي ...

- ليس البحر بعيداً ،

لكنك تلهو بالأسماء

وتعكر ظلي ..

ثم بصوت حافٍ قال :

البحر سراب مملوء بالماء

ذاكرة

هل كنت وحيداً في «بافوس»؟

لا أتذكر !

قال صديقي :

كنا نلهو برذاذ البحر معاً ،
ونعصّ الأرصفة الممتلئة بالخطوات العمياء ؛

وقال صديق آخر :
أهرقنا كل نبيد العيد ،
ودوّخنا جسدنا موسيقى ؛

امرأة أعرفها لكني لا أتذكرها قالت :
عطري ما زال على كفيك ،
تشمم كفيك ،
تحسّ صدرك تلقّ عليه ملاسة نهديّ
وشدة ظهري ،
واسأل تفاحك هل كان ليخضر ويقسو
لولا سلّت بجاني فوق حصي الشيطان . .
ألا تتذكر ؟
.. لا أتذكر ..

يبدو أنني أفقد ذاكرتي ،
أو
أنني كنت وحيداً - حقاً -
في «بافوس» !

هو

لا ربح له

لا لون
ولا طعم
... وليس الماء

لا يأخذ شكل إناء
أو يمكن أن يحويه إناء

أشهى مما لا اسم له
والد صدق من كل الأسماء

عريان أبداً
بردان أبداً
وبه تنفطى كي تدفأ
كل الأشياء

ليس فضاء
لكن يغمر كل فضاء
بين يديه
ويصحو في عينيه
أقل فراغاً
وأحد سماء

هزيت
وهو طريق
وهو السير إلى بيت

فوق طريق
مرصوف بالخطوط الأضواء
والوجهات العمياء

وهو البعد
القرب
الوصل
الفصل
الغيب
الممكن
... وهو سواه

كنت لأحرفه
لولا أن الفجر انتهب الليل
على غفلة حس ،
لولا غاصت في ذاكرة الغيم ،
بلا عود ،
كتيان الصحراء

هي

لم أزل ماشياً في السراب البدائي
أنسج من غيبه امرأة أشتهيها

لم أزل أسمع الشمس تخبز أردافها
وأشم الندى يتخمر في حلمتها

لم أزل لا أستي يدي
بغير يديها

هي امرأتي كلها ،
لحمها بيت لحمي
ونكهة روحي من طمي أنفاسها

وجها وجهتي قائماً للوصال ،
وأرنبها خلوتي

إذا قبليني
على فمها يا حياة ،
ويا موت كن نطفةً تتلهى بها رحمها
.. نطفةً أيها الموت ؛

واقعد هنالك في ثقب ابرتها
يا سرايي البدائي
وأشهد مروري كخيوط رفيع من اللوز ،
خيط يدور على نفسه
ويدور
إلى أن يغيث
وينسج من غيبه امرأة
يشتها ..

حفيف

كل شيء يحدث الآن ولا يحدث ،
فوق المقعد الجلدي
بين النار والسقف الذي يهوي ويبدأ ؛
مثل أن يعطش ماء ، مثل أن نبقي بعيدين
ووجهي بين كفيك
ومناقك نهاراً تحت كفي

تُحسِن ارتعاشاً غائباً في زرد الظهر ؟
إذن . . نملاً كأسينا
كما احتلنا قديماً ،
ونصلي كي يُعلّي «بأخ» نهديك
إلى حيث قُثم مرّ بطوف

وتعالي نصفخ عطونا في صور العتمة :
هذي أنت تمشين على وقع المطر
وتغنين على إيقاع فوضاه ،
وهذي ضحكتي جمعتها من رقصة الحور ،
وفي زاوية الصورة ملقَى مهملاً
عِقْد من الرمل خفيف

كل شيء يحدث الآن ولا يحدث ،
في الغرفة وجهان غريبان ،

هوأة مشخّن بالصمت ،
وقت يتلقى لزجاً من ساعة الحائط ..
هل لاحظت كم تشبه امرأة سواها
ويكم من نزق يشبه نجم أخته ؟

أينا كان إذن أنشئ
وأني ذكرأ كان ؟ التبتنا ...
وكما يحدث في الموت
نخسفنا من دم الذكرى على عوراتنا
ومسحنا ظلماتنا من يدينا

ربما هذا الخفيف
كل ما يبقى
وما ينسأه في ذاكرة العشب
الخريف ا

كلام

سأحسب أنني مت
وأنت آخر حي يصلي علي
وأنت حفار قبري
وشاهدي
والمعزون ،

والكلمات التي تتردد بين الشفاه

كصمغ ،

وأناك تبتهجين ،

ودمعلك ينحب في وجنتيك

بأنني مث ..

بأنني ، أخيراً ، سكْتُ !

سأحسب أن يدي حين مسّت يديكِ

شرائح بمسّ الهواء

لأول مرّة

وأن المياه التي حملته بعيداً ..

بعيداً رمته

على حين غرّة !

سأحسب جسمي بيتاً من القشّ

تسكنه الريح ؛

قلبي بئراً

نحف

لتبلغ سرّ قرارنها ؛

ونهار ي أصابع مبتورة

تتقرى ، على مهل ، كقفا ..

وسأحسبني ولداً تافهاً
يتسكع في طرقٍ لا تؤدي إلى بيته ،
يركل الوقت تزجيةً للفراغ ،
يفتني
لبنجو
من
صوته ..

سأحسب هذا الكلام ضللاً
لعناني في لغتي ،

ثم أغرس في الطين ساقتي
كي يحصد الصيف ركضهما ،

وأجرب نومي على كل ليلٍ
يمز بلا موعدٍ
ويقيم إلى آخر العمر
في غرفتي ..

أصغي ، أحياناً ، كي لا أسمع شيئاً
وأغمس كفي في الماء فتغلو سمكة

أحرث بالمجذاف الخشبي هواء الفجر
وأحياناً أحصده بالشبكة

أبحث عن أرضٍ تحمل خفتها
وسماءٍ تتحمل وزر خطاياها

أزرع نومي بعيونٍ يقظى
وهشيم مرايا

أحبس في علبة كبريتٍ ريحاً
وأبددها عوداً عوداً

أسمح لامرأةٍ أن تخللني
أسمح لامرأةٍ أخرى أن تخبز لي نهديها

أتسلى . . فأحك بشيٍ شيئاً
حتى أنسيه اسمه

أحياناً أضحك حتى الموت
بقلب مجنونٍ
وقم ملاكٍ بالعتمة !



ريفيات

كاظم جهاد

- ١ -

في مساء القرية الأرجوانية
شمسٌ مطبوخة على مهل
تتشبث بناصية السماء
وترفض الغروب.

هلاهلٌ بعيدة
تعلن عن عرس
في منزل الأُم صبحاتٍ مرتجلة.
بأصابعها الممهورة بالحناء
تودّع الخطيبة
سنواتٍ عزلتها بنشيجٍ حقيقي.

كاظم جهاد، شاعر عراقي / باريس.

- ٢ -

لا حدود للأفق . نجمة الرعيان
تغمز ببالغ الدعة
لصورتها المنعكسة في الماء .

شبابة الراعي ما كتفت عن الأنين
لا نلدري
ما يتحسر عليه سائق القطيع .

- ٣ -

حمل ينفو
فراشة تنثر في الجوّ الحالم
مشاعل جّوالة
تنشر على مدى التريف نورها البرتقالي .

جدع نخلة نحيف هو جسر القرية
بخفة يعبره الأطفال والشيوخ
من ملمس لحاء الشجرة الحائل
تعرف القدم طريقها بيقين .

نافثاً دخان سيجارته
يتابع أبي دوائر الدخان
يقول إنها تصنع كتابة في السماء

تكتف بلفحة ما تزال مبهمّة
أسرار الكيان .

- ٤ -

تنشر المرأة ثياباً ملقونة
ترتبها في قوس قزح
القلاّح يحصد كفاف يومه
والحقول الصهباء
تتشرب عليها أسراب من الجراد .

في أذن الشاعر
تطن إشاعة سحيقة في القدم
نفسه تحلته عن آثار أئام قديمة .
أصفر هو الأفق . والعاصفة تنذر .

قطعان الرعيان
ترجع وحدها إلى الحظائر
الرعيان منشغلون بحجر غريب
يحسبونه نازلاً من السماء .

- ٥ -

أرواح الموتى الصغار
ما فتئت تطلق صيحاتها .

نَداهة لا تَمَلَّ من العويل هي الروح
إن أنت أضعت روحك ، يقولون ،
فلتبحث عنها في الطبقة الرقيقة
التي تتوسط الماء وقيعان الأنهار
هناك تطلق الروح المنفصلة
عواءها الخافت الأبدى .

عصائب سوداء
تحيط بهالة القمر البدر
طفلة الجار المثينة منذ أعوام
تظهر من النافذة وتختفي
« - لا لاسبب تزورنا أرواح الموتى »
تقول الخالة المتجهمة
وتمعن في التخمين .

- ٢ -

صيادون
يملاون المسالك الوعرة
بجثث الخنازير البرية
جواميس تدوس على شتلات الورد
الشاعر الناشئ يعانق نخلة منفردة
ويقول : ماذا لو حسبتها فتاتي؟

رهط جراء

يُز سائرًا القهقري ونباح ذئاب
يسدل على القرية كآبة مقلّسة .

الجوّ مجلّل بالغموض
أزيز محركاتٍ قريية
يوهم بغزو آليّ . منذ أن زحفت المدينة
إلى مشارف التريف
بأشياءها المصنّعة وخرائبها
والأسلاف يبعثون برسائل إنذار
ملوّحين بعمق جارف
سيشمل الأبقار والنساء .

-٧-

طويلاً راقب الفتية عيني الميت
منهما كان ينبعث حزنٌ ولا أشدّ
شيء ما في زاوية جفّتيه الأيسرين
ينبئ بأن صراحاً مع الموت
كان قد عاث بكيانه
في اللحظات الأخيرة
« لا يبدو أنه ارتضى موته » ، يُعقب
واحد من الشيوخ
ملخصاً الموقف كله .

حمرة الورود وزرقة السماء
دقيق الأحلام السائح وأبخرة الأنهار
الطنني المشتعل في قيعان الجداول الناشفة
أني مستقبل يطلع من هذا كله ؟ ،
يتساءل الصبي متفلسفاً .

تطيرات

تعبير فضاء القرية وتحمل النساء
يعتصمن في بيوتهن ثلاثة أيام متوالية
كان ينبغي أن يُعقر ثور
لتخرج القرية من بهوتها المفاجئ .

العم الذي لم يتهاى له
أن يقاتل الإنجليز قبل أربعين عاماً
بتسحي في آخر المضيف ركناً قصياً
وبالغ الندم يزدرد أيامه .

يحلم بفرصة قادمة
تعيد بين إخوته الكبار رجلاً .

معركته القادمة إن حصلت

سيخوضها ولا ريب
مستنداً على عصاه
أو محمولاً على محفة الشيوخ.

«- يكفي أن أشم رائحة بارود» ،
عبارته الوحيدة
بها ينغم منذ أربعين عاماً
نهاره الطاعن في الأحلام.

- ١٠ -

طيلة خمسين عاماً
كان جدي يتتهج المسلك الشجري ذاته
الفاصل بين بيته ودارة إخوانه .
أشجار زرعها بيديه
توطئ نهجه عن اليمين
وعن الشمال .
بين أشجار التمران والتوت
يتصب شجر بلا رائحة
يقول هو إن عبقة النفاذ
ملاً حواسه كلها
لأنه هو زارعه
ولأن الشجر ضمنين باريجه
على الغرياء .

كذلك هو جدي
الذي لم أعرفه
والذي أستعيد هنا صورته
مهتدياً بكلمات أُمِّي .

- ١١ -

في قلب مقبرة القرية
تُعقد الشيبية مهرجاناتها الربيعي .
يسقون القبور ماءً مبردًا
ويعلقون على الشواهد
أكاليل ريحانٍ وزهورٍ خشخاش
وفي آخر الحفل يُرخي
سدولهُ النعاس
على الصنيبة المحتفلين .

الجمهور النائم لا يكاد يُميز
عن ساكني القبور تحتَه .
بهتةً واحدةً وعطلةً للشعور
مُقَسَّمةً .

غير واحدٍ يفكر
بتبادلٍ موقعه والميت
ولن يكون ذلك بطراً
بحياةٍ يحسبها الجميع

كأهنا ما نكون .

- ١٢ -

الفتاة المسكونة

بأوجاع جنسها التائق للصحة
ترفس في الرضاء مُطلقة
صراخها القوي .

بالعصي يضرّبونها تعزيماً
والفتاة تصرخ :

« - أنه في جسدي لقيم » .

فجأة صحوها تستعيد

تبسم من هذيانها وتقوم
برأه من كلّ وسوسة
ومنيعة على الألم .

- ١٣ -

أماننا يركض الخنزير البرّي

وبالعصي نركض نحن خلفه

لم تكن رغبتنا أن نصرعه

بل الجري وراء قوة غاشمة

تطويع الخوف

ذلك ما كان يحدو بنا إلى التركض .

في ذروة تعب
توقف الحيوان ملتفتاً إلينا
كان في نظره شبه استسلام
فرجعنا أدرأجنا شاعرين
بتحول طراً على كل منا .

لم أنل
إن كلاً منا
كان يستعجل البلوغ ويمضي ليله
متحسباً ما بين فخذه .

- ١٤ -

بين شجرتين
طلع لي مرة ثعبان ضخم
راح يتفرسني بعينين هادتين .
كان بالقبض يتفحصني
يزني بنظرة عادلة
كمن يريد معرفة من كنت .
بكامل الهدوء
نهضت من جلستي القرفصاء
وبالهدوء نفسه
ماشياً القهقري عنه ابتعدت .

بوداعة هائلة
بقيّ الثعبان يتأمل خطواتي
كما لو كان يغبطني
بل يغبط في حقيقة الأمر نفسه
لأنني بسات الطفل
وهبته فرصة نادرة
ليتنصر
على سورة السم التي كانت
ولا شك متصاعدة فيه
كمحرار زئبق
تُبقيه برودة معينة
واقفاً لا يريم.

- ١٥ -

على الشجرة جوقه عصافير
يبدأ واحد بالغناء
وعند جملة معينة
يتوقف
ليتلقف الجملة طائر سواه
ويتمها.

بالغ التلاحم متماسكاً
كان ذلك اللحن المتسلسل.

عندما تبتعد الجوقة
يتواصل شذوها في دمي .

- ١٦ -

عمياء هي القبرة
- يقول الأسلاف -
من فرط الوجد .

نازلاً في الفضاء يرسم العنليب
دوائر مكتملة
طالما جعلتني أنساك
عن سر رقصه الحلقتي هذا .

رصاصه صتياد
لن تمحو الدائرة الأخيرة
المنقوشة في كبد السماء
بحبر حقيقي .

- ١٧ -

جأزنا الميت
رفيقي في ألعاب الطفولة
ما برح يشغل مكانه
في ذاكرة الحقول .

خاطرُ القضاء يتحدّث عنه
وحصباؤه الملوّنة به تُذكر.
في اللعب نترك له مكاناً
ولدى اقتسام قطع الحلوى المسروقة
من حانوت القرية المشرعة أبوابه
نحسب له حساباً .
الأغنية التي لا تُقلد
هي أغنيته
وفي هذا أيضاً
عرف أن يُبقي لنفسه
مساحة شاذرة
إلى الأبد .

- ١٨ -

في الدرب المُفضية إلى العراء
حيثما امتد ما كنّا ندعوه
بالعالم المجهول
نتصب مقبرة القرية .

بعض قبورها كان
منزوع الشاهدة حتى يُذكر
بهم شاسع
فاغتر إلى الأبد يصرخ في الزمان جوعه .

هذه الأضرحة المشائية
لا أحد فكّر بأن يردمها
إلى الأبد ستبقى
على سعتها مفتوحة
خطاياها الصامت لا أحد ليسكته
وشكواها الأليمة
يتلقاها الجميع مثل بركة .

- ١٩ -

لم يكن ذلك عواء كلاب
بل شبه نشيد جنائزي
تطلقه الحيوانات في سعارها الغريب
باكية لا أحد .

ترمق القمر بنظرة شرسة
ويجنّ جنونها وتبدأ
عواء طويلاً
يشرف عليه قائد أوركسترا
لا بدّ بين مجموعها المترامية .

خائفاً على القمر يفكر الصغير :
« - كلّ هذا العواء قد يُرجف في الليل قلبه » .

بِثَبَاتٍ يَتَوَاصِلُ
أَزْيُرُ حَشْرَاتِ التَّرِيفِ
يُرْسِمُ فِي الْفَضَاءِ الْمُحْتَقِنِ بِفَحِيحِ
كَائِنَاتِهِ الْمُتَعَايِشَةِ عَلَى مَضْضِ
جَمَلًا مُوسِيقِيَّةَ
تَهْيِمُنَ عَلَيْهَا النَّبْرَاتُ الْحَادَّةُ
وَتَكَادُ تَسْمَعُ فِيهَا أَحْيَانًا
مَا يَشْبَهُ صَرِيرَ مَنَشَارٍ هَائِلٍ
يَقْبِضُ عَلَى الْكَوْنِ كُلِّهِ
لَحْتِ رَحْمَةً أَسْنَانُهُ الْمَصْفُوحَةُ .

تَحْبِلُ الطَّبِيعَةُ فِي الْمَسَاءِ
بِرُعْبِهَا الْغَرِيزِيَّ
وَفِي الصَّبَاحِ تَهْدَأُ
عِنْدَمَا يَسْتَعِيدُ هَافِيَتَهُ
شُدُو أَطْيَارِهَا الرُّوقِيَّةِ .

أَزْيُرُ وَشُدُو
شُدُو وَأَزْيُرُ
يَتَعَاقِبَانِ تَعَاقِبَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ
وَفِي خَيَالِ الْوَحْدَانِ الْمَسْحُورِ
يَتَبَادَلَانِ
دَوْرَتَيْنِ مِنَ الْحُبُورِ وَالذَّخْرِ الْهَادِي .

- ٢١ -

حصانٌ أعرج
بخطواته غير المنتظمة
على تربة الحقل الناعمة بالماء
يرسم آثاراً غريبة .

ببالغ التمهّل تواصل السور
معراجها في الفضاء
وببالغ الحسّم تنقّض
على قلب الفريسة .

أحياناً .
يقطع التورس سباحته التسعة
وفي هندستها شبه المدرسة
يُحدث خللاً
قد يكون محسوباً أو أمله
نخفّة مفاجئة .

البط أغنيته خناء
الدوري يتخبر لقوته ناضج الثمار
وخارج إرادة المجتفين
يمخر القارب في عرض الماء
عارفاً وجهه المقررة .

- ٢٢ -

في غنائها المطرد
نهاراً بأكمله
تُفرغ المرأة سلتها
من الهموم .
عندما تحسب أن قد انحلت
كامل جعبتها تستأنف الغناء
بالقدر نفسه حزناً
وياكياً بالقدر نفسه
ناطقاً هذه المرة بعناء الأسلاف .

- ٢٣ -

جأزنا الذي في رحلة صيدٍ
صرعته طليقة طائشة
أنحى ولعلّي لا أخطئ
نفاصيل مساره الكثيف
من جهة الأحياء إلى مُنقلب موته .

في لحظات الصبح والليل
التي كانت قد بقيت له
أراح من التجديف قبضته الصلبة
وترك القارب يتهدى

في عرض النهر
الذي بدأت قطرات من الدم
تخضبه بأرجوانها العنيف .

بذلك الحنين المبهم
طفقت صوّر طفولته تتداعى
في خاطره بكامل العذوبة .
أبصر السماء الزائقة المرأى
تطلّ عليه من بين الأغصان
الزرقاء الناعمة بدت له
لأول مرة
فادحة وعجائبة
وعندما دنا الليل
بدا له القمر مكتمل اللغز
صندوقاً من الألم يرقى ناصية السماء
يشيعه عويل جنازتي
تطلقه نساء القرية وكلابها الكثيرة .

من أغصان الشجر
كانت تنهمر خضرة شائقة
تمنى لو كانت وساده الأخير .

الليل نفسه
بدا له شيئاً مادياً
صبرة غامضة ومظلمة

تكتنف الكيان
وتعلمه بنومة هائلة
ودّلوا استيقظ الآن منها .

ودّلوا يلدرف دمعته أو اثنتين
لكنّ الألم كان يزيد صحوه
ويضاغف فيه الرغبة
في أن يفهم
ما الذي جاء به إلى هذه الرحلة
هو الذي كان يعشق خموله
ويلدّ له مرأى الأشجار
تحضنها
نظرة الكائن المتمدد على العشب .

لم يكن الأسف هو ما يشعر به
لا ولا رثاء ذاته
بل يقينه من أنّ الألام
إنّ لم تطفئ في آخر الشوط وعينه
فستكون شيئاً محتملاً
لمبة قد يحلقها
مسمّى قد يكون ماهراً فيه
أو خاطرة صغيرة .

في المساء تغمدُ اللثاب
حلقنها المعهودة .
حول نقطة بذاتها تحتشد
وتطلق عواءها الجنائزي .
ثم تنفرق وتبدأ بالعندو
لتعود من بعد إلى ذات النقطة
وتستأنف عواءها الطويل .

تجتمع اللثاب
فتشعر مثلنا بخطورة الشيء
وما إن تنفرد حتى
يهزمها إلى الشراكة
جروءنا القديم نفسه .

«هل للأسماك إحساس بالزمن؟»
جاءك دريدا

قيل أن يموت
السمكة المنقذة خارج الماء
تحرك خياشيمها بانتظام
وتوسمها نوقاً إلى الهواء .

وحده والذي بين الجميع
كان يعتقد بذاكرة الأسماك
ويفترض لها معرفة بالآلام.

مراراً أسمعتُه أعداؤه
كلاماً كهذا:

«من اعتقد بذاكرة سمكية
ما ربح في حياته غزوة واحدة».

-٢٦-

في مرورها تكنس العاصفة
بيوتاً كثيرة
تمر أولاً بكوخ المجنون المتوحد
فيمتزج أنيزها بصراخه
عابراً الأجواء
مثلراً الحوامل بولادة
سابقة لأوانها .
في طريقها تقتلع
أشجار الزان الضخمة
ومن أوراقها الملهبة
تصنع مهرجاناً جوالاً .
تحمل العاصفة إلى العجوز المختبئة
مزيداً من الهديان

والشيخ المترهل تذكره
 برحلات بحرية
 قام بها صبيًا
 وعندما تبلغ العاصفة
 مزار الولي صاحب الكرامات
 تنتحني لهنية إجلالاً
 ثم تواصل زحفها الدائري
 خرطوماً من الهواء والتراب
 يخيف الكائنات والأشياء
 وكلما مرت العاصفة
 ويقدر ما
 تغلف وراءها بين الأشجار
 من قرايين وضحايا
 يحسب الصبي أن وعيه
 قد كُبر
 واغتنى بصورة حنيفة أو اثنتين.

- ٢٧ -

صورة صورة وفكرة فكرة
 يحسب الصبي سني نصجه
 بات لا يتقدم صوب الأشياء
 إلا بقدر ما تعد به
 من كشوف
 المفاجأة صارت هي

شرط وجوده الوحيد
عندما لا يبقى ما يُدهشه
يشعر بشيخوخة ثقيلة
تنشر على كتفيه معطفها الأسود.

-٢٨-

بدقة مساح
تقضم اليساريع أوراق الأشجار
وتترك نهاياتها المشدبة
جميلة كزخرف
هكذا لا يغادر قدامى الفرسان
ميدان قتال
من دون أن يدعوا فيه
لمسة مُحسنة
هي دفعة مرورهم بالمكان
والى القادمين هي رسالتهم.

-٢٩-

من حقل إلى سواه
يتنقل الصبي
ومن مخبأ إلى آخر
يفحص بعينه وأذنيه
يتشمم الطرق مستغفراً

كافة حوائسه
بكاء سرّي يتصاعد
لا يلدي من أية بقعة
ذاهباً في كل اتجاه
من عروق التخيل يتصاعد
ومن ميازيب الغرف الطيبة
ينهمر
لا يلدي الصبي أي خلق يزجيه
ولا أية عين حقة به تفيض
لعله ضمير هذه الأرض المشقة
يُعرب عن نفسه
بمثل هذا التواضع شبه الصامت
من حين إلى حين .

- ٣٠ -

في العيد عقروا ثوراً كبيراً
برائحة شواله تسربت البيوت
من خصيتيه أكل الأكابر
ماسحين أصابعهم بأطراف الشفاه
الصغار قيل لهم ألا يقرؤوه
في اللحظة السابقة للذبح
لأن نظرتهم المعتاة
إن هي نفلت إلى داخل طفل
فلا فكأنك له منها بعد ذاك أبداً .



أغاني الوارث المتلاف زكريا محمد

موت في رام الله

الليلة

عاريا أقف قدام المرأة

في ضوء البدر الذي يحبو على عتبة بيتي

الليلة تطلق علي النار

من المرأة

أو من بندقية في مستوطنة (بسفوت)

التي تطل على سريري

وسوف أموت

سوف أموت

زكريا محمد، شاعر من فلسطين / رام الله

ويظل الضوء يحبو ويحبو
لكي يرضع من ثديي .

٢٠٠٤

قطط

أشعلنا النار
كي نخرج منا ظلالنا
فنقول لأنفسنا واثقين :
نحن هنا . . . نحن هنا

ضير أن النعاس يفجؤنا
فتنطفئ نارنا

يا ويلنا
يا ويلنا
النار تخلقنا
والعنة تلفينا
والقطة تبول على نارنا
وتخلطنا بظلالنا .

٢٠٠٤

تخميم

بتنا على الهضبة
ولم يكن من داع لأي سراج

لو أضأنا عودا
لأنفجر الدم
الضوء دم نازف
والليل رقاء كل دم مهذور

على الهضبة
لا تفتح فمك لتقول: يا أنخي
لست أخاك
أنا أذن مفتوحة لجندب الليل
أنا موجة من حرير تطفئ بيد ناعمة:
الضوء والعين والنجمة:

٢٠٠٤

صليبان

صليب صليب في خرشات طفل
صليب ذهبي على صدر الصبية
صليب كبير فوق الكنيسة

الدم ينزف منها كلها

أنا العابد
أنا من يتبع الصليبان
الدم يقطر في نومي ويقطني.

بَدَّ

بيتك هو البد
لا أحد سيطحن لك قمحك
وحلك ستدير مثل حمار حجر الطاحون
حيث ستأكل شعيرك واقفا
وتنام واقفا .

١٩٩٩

مخاط

ارحموا الموتى
دعهم لحالهم
هم لو تدرون لا يرغبون في قرابين لأرواحهم
فليست لهم أرواح
ولا يريدون كلمات على شواهد قبورهم
فهم لا يقرأون

ما يعلبهم أنهم غارقون
في عار يدعى الموت
لأنه يسيل منهم
كما يسيل المخاط من أنوف الصغار

إن كنتم تريدون عونهم حقاً
اتركوا لهم لفة من ورق المراحيص وراء الباب
سوف يأتون لأخذها
كي يمسحوا العار الذي يقطر من جباههم ومناخرهم.

٢٠٠٤

صرخة

جمعنا الصوت من كل مكان:

من قحف رؤوسنا

من يأسنا

ومن حاويات القمامة

ثم أطلقنا صرختنا

آه

ما ألعتها صرخة!

تبعتها كأننا نتبع أنداء أمهاتنا

انحدرتنا وراءها في الوديان

والأرض المجهولة

آه

ما ألعتها.

ولدت بفم بكاء

وقطاط محلول
تلقفناها باسمين مرتجفين
ثم سميناهما
لكي تحرقنا
ويصعد الدخان إلى السماء .

صقر

بعدسته الذهبية
يصيد الصقر
الطريدة وظلها معا

اليوم
بشفقة مفاجئة ليست من طبعه
ترك للظل بأقدامه العاريات
أن يعبر خائفا
على الرمل الساخن
حتى عتمة الجحر .

٢٠٠٣

شهوة

- لم تتسع حلقنا السنور في الليل ١٩
- كي يلحق بلسان خشن

موتى

عندما ذهبوا إلى الموت لم يجدوه
كانت معهم صبرهم
وبلورات من سكر فضي

ذهبوا
فلم يجدوا شيئاً
دهشوا
أهذا هو الموت حقاً؟

وضعوا صبرهم على الأرض
وانتظروا
لكن لا أحد أشار إليهم كي يتبعوه
لا أحد مَرَّ لكي يأخذ أسماءهم

رأوا أن في الأمر خدعة ما
كان هذا أكيداً

لكنهم حين قرروا أن يعودوا
كان الليل قد محا الطريق

هم الآن يعضفون بآلورات السكر الفضي
ويدربون حناجرهم على الصرخات
التي لن يسمعها أحد
بانتظار أن يرفع الليل ستوره
التي لن ترفع أبدا .

٢٠٠٠

تتلى

النوم
مدينة الغرياء
يسكرون في حاناتها
ويحربون في أزقتها
ثم يقتلون بالرصاص قبيل الفجر .

٢٠٠٤

أهله

نقص بالقراضة أظافرنا كالأهله
والبلد فوقنا
يتأكله غضبه
نحن لا نراه
غير أننا نلمحه في حيون القطط
التي تغزو مخادعة عند أقدامنا
كي تخفي عنا عين البلر الحانقة الحمراء .

٢٠٠٤

ألوان

الأشجار لا ترانا
فهي مصابة بعمى الألوان
الخضرة لونها الوحيد
بكم أخضر كلامها

أما نحن فالألوان كلها ملكنا
طينا واسم يبدأ ب:
بالعنة الثقيلة
ثم الدم
ثم النار الإغريقية الحارقة .

٢٠٠٤

أعتاب

على الرصيف أمام البيت جلسنا:
كؤوسنا فارغة
والصمت يلفنا
الحياة هياكل عناقيد عنب مأكولة
تحت أقدامنا

العصافير على الأسلاك
تأمل أن نكون قتلى

فهبي تنتظر موتنا

كي تبحث عن حبة عنب هاربة تحت أقدامنا

ثم فجأة

يضرب البرق

وتسقط قطرات

ويعصف المطر

فجأة

تتأني الكلمات

وتطفئ خيالات عنا قيد جديدة

فتمتلئ الكأس

والحياة

تطرد بيدها العصافير عن الأسلاك.

٢٠٠٤

طيور محبوسة

أرواحنا طيور محبوسة في دواخلنا

حين يمر طائر شريد فوقنا

تسمع صوته ورقة جناحه

فتخفق بأجنحتها

وترف رفات خطرة

فتكاد قلوبنا تغلت من معاليقها

لا بد من قتلها هذه الطيور الشريرة

إنها أسوا من الكلاب الضالة
إنها كالجراد تهدد بأن تقضم الأوراق الخضراء الأخيرة على شجرة حياتنا .

٢٠٠٤

صقر

على الفصن
كاهن بجبة ترابية
عينه ثقب أسود يتلع الكون كله
كل حركة تغرق في دوامته

على الفصن
كاهن يدير عينه الذهبية
ثم ينفض جبهته الترابية
ويلقي على الأرض بظله

ثم تسمع الصرخات القصار

على الفصن
كاهن يتنبأ بالموت .

٢٠٠٤

كلماتنا

كلماتنا حبل نجاتنا
كلما أذعرنا الموت
بصقنا بها
وألصقناها في السقف
ونزلنا معلقين بها
تماما كما تفعل العناكب الصغار :
تدلي حبالا رفيعا
وتنزل معلقة من أفواهها . . .

٢٠٠٤

شجرة

في الوعر
شجرة تفكر بالمطر
أنا أيضا وقفت في الوعر مثلها مرة
وفكرت ببرق تشرين ورعده

كان هذا

قبل

أن

يمحي المعنى

وتضيق الحروف

الآن،

قبعتي على رأسي

مطرتي على جنبي

أمر عنها وأقول للنفسي:

شجرة حمقاء أخرى تفكر بالمطر.

٢٠٠٤

عاهرة

أفكر أحيانا أن أطلق النار على هذا الكلب

عنده ما هو أشد خطرا من الكَلْب: عيناه

أبعدوا عني

أبعدوا عيني اللتين تملأهما المودة كحشيش أخضر في الجبال

أبعدوا عني هذا الوحش

إن قلبه لأرق من قلب عاهرة.

٢٠٠٤

الحقيقة

الحقيقة عرية خضار

يدفعها بائع جوال

في طريق صاعد صعب
كلما صعد مترا
وضع تحت العجلة حجرا
كي لا تندهور في المنحدر

الحقيقة

غرسه تسقى كل يوم
أما الكلب فنبتة شوك
تشرب
من كل ماء حولها .

٢٠٠٤

أغاني الوارث للتلّاف

١

أورثني أبي مالا وعقارا
غير أنني أتلفته كله

لم أقامر
لم أعش رفها
ولم أتبع ملذات جسدي

في الأشياء الصغيرة بدحت ميراثي

في الأشياء الصغيرة

بيتي مملوء بها:
حمامار بديع من زيتون القدس
غزال صيني منحوت من حبة أرز
حجر يضيء في الليل من خراسان
وصحن من فخار
عليه حبة تبتلع ذيلها

٢

أعمل اليوم عند إسكاف
أكتسب من خرز الأحذية
وحين يمتلئ بطني
وأشرب كأس نبيذ
أعود إلى بيتي
وأنامل
بين الضوء والعتمة
حمامري الخشبي البديع
والحبة التي تبتلع ذاتها

٣

لا أحد يهتم بما أملك
أنا لا أعرضه على أحد

غير أنني جعلت على الجدران مرايا

لكي أكثر أشيائي

وأضاعفها:

الحمار البديع يصير قطيعا من حمر الزيتون

وأنا أصير عشرين رجلا

همهم أن يبددوا ثرواتهم على الأشياء التي لا تسمن

ولا تغني من جوع

٤

الصنعة تنحلر

من يقدرون الأشياء الصغيرة باتوا في القبور

لا أحد

كي يضرب رأسه بالحائط من مهارة الصانع

لا أحد

كي يقطع إصبغه لأنها لا تقدر على نحت بديع من خشب اللوز

ساعتي تقترب

بعدي سيكون العالم خاويا

لن يكون أحد قادرا على فهم الحياة التي تبلغ ذيلها

اليوم الذي ساحرق فيه أشيائي

يقترب هو الآخر . . .



معركة المصير دينا نتحاتة

يتحدثون بصخب عن تطويع وتركيع أمة
عن الاختراق والتغريب
عن معركة المصير

يتحدثون بعصبية عن الثوابت والمبادئ
والأصالة
وذاك الآخر الرهيب

المعركة تدوي من حولي
ولكنها تبدو بعيدة
أسمع أصداها على هامش حيك لي

فأنا مشغولة بمعركتي الجميلة معك
بتطويع أصابعك لجسدي
بتركيب حبك لأرادتي
باختراقك لي

مشغولة أنا بذلك التغريب اللذيذ
الذي يفصلني عن ذاتي
ويذيب فرديتي
ويدمجني فيك

وفي كل مرة تنتهي جولة من جولات معركتي معك
أتوق لجولة أخرى
وأعشق الاستسلام والهزيمة
معك ولك وفيك

رحف القديسين من المجاز الى الحقيقة
نذهب إلى الحرب، ولكن على مضض!!
منير العكش

«الولايات المتحدة - يحدها من الشمال القطب الشمالي؛ ومن الجنوب منطقة الأتركتيكا [القطب الجنوبي]، ومن الشرق يحدها الإصحاح الأول من سفر التكوين، أما من الغرب فتحدها يوم القيامة».
(Arthur Bird، Looking Forward (١٨٩٩)

«أعني ليسوا في أميركا . إنهم يعيشون تحت أميركا» .
- رجل دين سلافي، ١٩١٠

- I -

في مكتبة كوب The Coop بساحة هارفرد مقهى أرتاح فيه عادة كلما أرهقني العمل أو أحيت
تقليب صفحات بعض المنشورات الجديدة التي أكره شراءها . ذات مساء ، بعد زيارة طويلة للصيديق

صالح عبد الجواد- وكان استاذاً زائراً في جامعة هارفرد- عثرت في هذه المكتبة على كتاب وثائقي طريف^(١) يضم معظم الخطابات التي برر بها ٢٤ رئيساً أميركياً حروبهم.

في الكتاب مئة وخطبتان تتكرر مفرداتها وتعاد حججها من حرب إلى حرب، ومن جيل إلى جيل، كأنها تنقص وتناسخ ولا يتغير فيها إلا الزمان وعناوين الموتى: أميركا «أكثر الأمم حبا للسلام». وهي لا تذهب إلى الحرب إلا على مضض» (الرئيس وودرويلسون Woodrow Wilson). وهي في كل حروبها لم تقتل إنساناً، فكل ضحايا هذه الحروب التي تتحدث عنها خطب الرؤساء كانوا «وحوشاً» أو كانوا يتمتعون بنسب متفاوتة إلى البشر، ويحتاجون إلى شيء من التأهيل «الحضاري» قد يقتضي بعض التعديل في خلقهم أو خلقهم أو أعمارهم، أو يحتاجون إلى قدر محسوب من التنظيم لعلاقتهم بالثروات الطبيعية في «البراري» أو «المجاهل» أو «الأراضي البور» التي يسكنونها، وذلك بما يعود بالخير والسعادة والرفاه على «ثروة الأمم».

مشهد مهيب واحد تعرضه هذه الخطب لآخر مئتي سنة من زحف القديسين^(٢) القديري من المجاز إلى الحقيقة؛ من أرض «كنعان الانكليزية الجديدة New English Canaan»^(٣) إلى أرض إبراهيم الإنكليزية الجديدة. الخطب جمعها المؤرخ رسل بوهايت Russell Buhite عميد كلية العلوم والفنون في جامعة ميزوري-رولا Missouri-Rolla، وقدم لها بمقدمة نقدية لاحظ فيها أن الرؤساء جميعاً أضفوا على حروبهم طبيعة «خيرية benevolent» تهون في سبيلها الضحايا والتضحيات أو ما يعرف في قاموس الحروب الأميركية بالأضرار الهامشية collateral damag، وأن لخطبهم التي تضمنت «نداءات عاطفية للدفاع عن النفس» أو «لنشر الديمقراطية» أو «لحماية الأرواح والممتلكات» أو غير ذلك من المهمات الرسالية النبيلة دائماً هدفاً عاماً هو «التضليل misleading»^(٤).

وعلى الرغم من الطبيعة التاريخية للمقدمة، فإنها تضمنت بعض الملاحظات الأدبية السريعة فأشارت مثلاً أن أبراهام لنكولن كان أبلغ الرؤساء خطابية، وأن الرئيس الحالي «استهتر بكل القواعد وكثر اللغة»^(٥) مع ما كثر من أشياء جميلة كثيرة ألحقت بالأضرار الهامشية.



للعودة إلى البيت من ساحة هارفرد، لابد من المرور بإشارتين ضوئيتين لعل أكثر ما تضيئانه هو الوجه الذي تعنيه خطاب هؤلاء الرؤساء بالتضحية التي يجب على الأمة الأميركية تقديمها في

حروبها «الخيرية» :

الأولى، عند تقاطع الساحة مع شارع «Garden» . هنا، حيث يختنق التقاطع بالسيارات والمارة في الصباح والمساء، يقامر رجل معوّق بحياته فيقفز بين صفوف السيارات مستجدياً لقمة عيشه . إنه (أولعله) مشرف على الستين من عمره، يتعكّر على عصا، يمسكها بيد، ويمسك بيده الأخرى «كرتونة» مقتطعة من علب الدكاكين السمراء كُتب عليها : «محارب قديم، جائع، وبلا مأوى» .

الإشارة الثانية، تنتصب على تقاطع أخطر وأشدّ ازدحاماً تخرج عنده من كامبردج إلى جارتها «أرلنغتون» Arlington) أو إلى الطريق السريعة رقم ٢ . هنا تلتقي بحاريتين قديمتين يتناوبان على قمار الموت في أوقات يبدو أنهما يتفقان عليها . الرجل لا يختلف عن رفيق السلاح في ساحة هارفرد إلا في العامة، فهو لا يعرج ولا يتوكأ على عصا بل يكشف صدره عن جرح قديم عريض ذي قُلب عنبية يمتد من أعلى عنقه حتى بداية ثديه . أما المرأة فيبدو أنها ضريرة تهتدي بعيون كلبها الأسود الذي يلازمها ويحرسها . إنها تقف على حافة المستديرة المزينة بالعشب والزهور صيفا وبالثلج شتاء، لا تتحرك منها . إلى جانبها عربة معدنية صغيرة من عربات المخازن الكبرى محشوة بأكياس قمامة سوداء بالية مغبرة، من الواضح أن فيها كل ما أبقت لها «ثروة الأمم» من أوسمة الحرب التي أعطيتها ورمتها في غابة العمى .

الرجل والمرأة ومعظم هؤلاء المعطوين الذين حصدتهم الحروب «الخيرية» من حقول الفقر والطبقات الدنيا؛ من السود، والملونين، والهنود، والطلاب الذين ربطتهم وزارة الدفاع بجنزير في أعناقهم^(١)، ومن المهاجرين الجدد الحالمين بالجنسية، ومن المعدلين في الأرض، فأغرثهم بالمن والسلوى، وسُمّتهم بالأبطال، وزيتهم بالنياشين، وأغرقتهم بالأحلام، وربطت كرامتهم بكرامة العلم المتلألئ بالنجوم، هاهم مذلولون مهانون جائعون بلا مأوى، لم تبق لهم «ثروة الأمم» من وطن سوى عراء الصيف، أوكيس من البلاستيك في الشتاء يندسون فيه ليلاً وينامون في أرض كنعان الواسعة، ولم تترك لهم من عَلم سوى هذه «الكرتونة» يزينون بها معظم مفارق الطرق، ومداخل قطارات الأنفاق وأبواب السينما والمسارح والكنايس وحدائق البيت الأبيض وأرصفت البنك الدولي . بعضهم يعتمد مجابهة عينيك بملابس الحرب المرقطة وبعضهم لا ينسى أن يحليها بالأشرطة والنياشين التي علاها القدر ولم تعد تصلح حتى للاستجداء .

للجنرالات وطن آخر. إنهم منذ انتهاء الحرب الأهلية في عام ١٨٦٥ يخرجون من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر؛ من سفك الدم إلى تقطيره في المصارف؛ تتلقفهم الشركات الكبرى لاستغلال مواهبهم في رسم استراتيجيات اقتصادية لا تقل «خيرية» عن استراتيجياتهم الحربية. والمعادلة في حساب «ثروة الأمم» بسيطة جدا: لكي يستطيع «ماكدونالد» ملء بطون فقراء العالم بالهمبرغر لابد أولا من إرسال طائرات «ماكدونالد دوغلاس» وصواريخه لتزيين سماءات هؤلاء الفقراء بالمشاعل النارية.

العام الذي انتهت فيه الحرب الأهلية شهد زواجا تاريخيا بين «فكرة أميركا» بأهدافها الثلاثة، وثوابت تاريخها الخمسة^(٧)، وبين «ثروة الأمم»، هو الذي أعطى مهمة استعباد من استعصى عن الموت كتعاني العالم الجديد طابعا نفعا لآلحيا الأسطورة التاريخية بدونه، بينما احتفظ بطابع القداسة لاستعباد من طاردتهم الأسطورة ولهت في أعقابهم آلاف السنين.

الطرفان على جبهة هذه الحرب، وهم في معظمهم ممن يعرف بالزنايير WASPs^(٨)، أدركا أن «ثروة الأمم» تنفذ فكرة أميركا من الانتحار، وتقدم للمتحاربين جميعا تسوية رابحة لمسألة العبودية.

في هذا العام الذي كشف فيه معظم جنرالات الحرب الأهلية عن عبقرتهم الاقتصادية، وعن أن «فكرة أميركا» و«ثروة الأمم» كالمسدس للرصاصة، كان الهنود الذين أخطأهم الموت يشيعون الهزيع الأخير من سيادتهم على ما أبقت لهم الحروب الخيرية من بلادهم، ويحثون التراب فوق معاهداتهم التي حولتها القوة إلى «أوراق للتمسيح»^(٩). صعود هذا يعني هبوط ذلك. وموت هذا يعني حياة ذلك. وفي النهاية، فإن استعباد هذا الكنعاني الأحمر مجازاً (في تجربة مفيدة على الطريق إلى الحقيقة) هو من أعمدة هيكل الأسطورة نفسها، وله قدسية عناصرها الأخرى التي سكنت ولا تزال تسكن هواجس ومخيلات وغرائز كل المؤمنين بها. والزنايير الذين تعهدوا الأسطورة أكثرهم إيماناً وتسليماً وحرصاً على الطقوس.

جنرالات الحرب الأهلية هم الذين أطلقوا رصاصة الرحمة على معاهدات الهنود وحولوا «السيادة» والحكم الذاتي إلى مزرعة لتربية الطواويس حين رسموا للشركات العملاقة استراتيجيات «خردقة» معازل reservations الهنود (وهي فعليا قمام متناثرة، يسك الزنايير بأعناقها وأعطيتها) بسكك الحديد ومناجم الفحم وآبار النفط، وهم الذين حدثوا

تقنيات مسخ هؤلاء الضحايا إلى ما لم يخطر على بال أوفيد. بذلك أحصبوا مخيلة هوليود بألوان كل ريش الطيور، وأغناها بكثير من صور «المتوحشين العراة»، وبمشاهد مهينة من دماياتهم وبلاعاتهم وخزعتهم وعدوانياتهم التي شاعت في أفلام الغرب الأمريكي، وبذلك صنعوا من كل طفل أميركي «جون وين»، وأهدوا رؤساء أميركا كنزا من المفردات والعبارات والدعاوى التي شاعت في خطبهم الحربية.



كل الأمكنة التي وصلتها حروب الخير، سواء أكانت في أعماق الغابات أم في أرض أعرق الحضارات الإنسانية، كالصين واليابان ومصر والهند مثلا، تحول أهلها إلى برابرة، أو سُسخوا إلى حيوانات تتدلى من مؤخراتهم أذنان الخنازير^(١٠). فالثقافة كما يقول مارك توين Mark Twain ساخرا «خلق العالم للإنسان؛ الإنسان الأبيض»^(١١). وإن أي طالب دراسات لغوية مبتدئ يلاحظ في هذا التراكم التاريخي الملل لفكرة «المجاهل» و«الأرض العذراء» أو «الخاوية» و«البربرية» و«الهمجية» و«التمدن» و«جننا لنحرركم، لا لنستعمركم». الخ، كما تعرضها خطب رؤساء أميركا وأدبيات المستعمرين الأنكلوسكسون في العالين الجديد والقديم، أنها أحب متكآت لغة حروبهم الخيرية.

هناك ما يشبه «الكاتالوغ» وضعه دافيد سبير David Spurr لهذه المفردات والعناصر الأسلوبية والمنطقية التي ميزت الكتابة الأنكلوسكسونية عن هذه المناطق «المدهشة» التي لا توجد إلا في مخيلاتهم، وعن هؤلاء الوحوش البشرية الذين طبخوهم بالطريقة المشهية ومع البهارات التي تغري بأكلهم. فهي في كل أشكال تعبيرها «تُزَيَّت» آلة الزحف الامبراطوري، حيث ينظر مفترها بعين خياله وعقدة اختياره؛ ينظر بعنجهية واحتقار إلى هذه الأرض المدهشة وهؤلاء «السكان natives» الأعاجيب الذين احتقر لغتهم قبل أن يسمعها، وشوّه آدابهم قبل أن يقرأها ويفهمها، ومسخرهم وسخر من قوانينهم وعاداتهم وأخلاقهم وعقولهم ونظرتهم إلى العالم قبل أن يراهم^(١٢).

حتى بعض العادات الحضارية التي قد يمارسها هؤلاء الهمج الملونون يمكن طردها من ملكوت الحضارة واستهجانها بسرعة. فالرحالة شارلز وورنر مثلا يستغرب حب المسلمين للنظافة الجسدية، لكنه يشك في جدواها الحضارية التي لا تتحقق إلا ببياض البشرة فيقول في كتابه «مومياءات

ومسلمون»: «يبدون هؤلاء المسلمين لا يدركون عبث تنظيف جلودهم [غير البيضاء] ولم يكتشفوا لا جدوى فركها وحكها»^(١٣).

هذه المكتآت اللغوية [المجاهل] و«الأرض العذراء» و«البربرية» و«الهمجية» و«التمدن» و«جننا لنحرركم، لا لنستعمركم». الخ[في رأي سير-وهومن أبرز المختصين باللغة الإمبراطورية، وله كتابان نقديان عن جويس وإليوت-عناصر ثابتة في الشنشات الإمبراطورية لدى الزنايير، سواء ظهرت في الروايات، أو أدب الرحلات، أو التحقيقات الصحفية، أو الكتابات والخطب الرسمية. وهي في كل صورها وأشكال تعبيرها أسلحة في المشروع السياسي لبناء الإمبراطورية^(١٤).



مع انتهاء الزحف نحو الغرب (باستثناء تلك «القمام» التي حُشر فيها من تبقى من همج والقارة)، وامتداد عيون الزنايير إلى غرب الغرب؛ إلى عتبات المحيط وما وراء عتباته وعناقيد جزائره، اتسع مفهوم المجاهل wilderness أو الأراضي البور (١٤ أ) wasteland ليشمل كل أرض لا يسكنها أو يستثمرها الزنايير. لقد استكملت فكرة أميركا (١٤ ب) في «كنعان الانكليزية الجديدة» كل ما يلزم لانتعاش الأسطورة المؤسسة والعودة بها إلى مهدها الأول.

في هذا الإطار، تم تعميم «المجاهل» على كل محطات الرحلة القدرية المقدسة حول كوكب الأرض. لم تُستثن منها قارات كاملة كانت عامرة تعج بالحياة وتنتج أروع الآداب والفنون والقوانين والصناعات يوم لم يكن في الأرض عرق ملق اسمه الأنكلوسكسون. بذلك خُلعت صفة «الهمجية» على أعرق حضارات العالم، في الصين والهند واليابان ومصر ووادي الرافدين. وسرعان ما تحلى أبناء هذه الحضارات بكل صفات سكان الغابات والكهوف، وصُنّفوا أنثروبولوجياً مع إنسان جاوة Homo erectus of Java.



معظم الأطفال الأميركيين مثلاً، لا يعرفون عن أفريقيا أكثر مما شاهدوه في أفلام طرزان، ويعتقدون أن الريش (لا الشعر) ينبت في رؤوس الهنود، مثلما يعتقدون اليوم أن الفلسطينيين هم الذين يستعمرون أرض إسرائيل^(١٥).

يكفي أن تزور متحف سميثونيان للتاريخ الطبيعي National Museum of Natural History في المنطقة الواقعة بين البيت الأبيض وهضبة الكايتول لتري هذه التصنيفات العجيبة

لشعوب العالم مجسدة أمام عينيك. هنا تقف حائرا متسائلاً: لماذا تُعرض نماذج من الهياكل العظمية لسكان الصين والهند ومصر ووادي الرافدين ومعظم البلدان التي شهدت ولادة حضارتنا الإنسانية إلى جانب هياكل وعاديات السحالي والسلاحف والسمك والديبة والمأموت والديناصورات والحيوانات المنقرضة؟ أين الزنابير؟ أليس لهذا الشعب المختار هياكل عظمية؟ أليس للمتحضرين ذوي الدم الأزرق تاريخ يوصف بالطبيعي؟

هنا ينجز العرض والسرد مهمة خيرية نبيلة. إن مثل هذه التصنيفات العجيبة لحقول «علمية» خلقت مع بداية حركات الاستعمار الأوروبي، وفي سياقه، جعلت مسألة «تمدين» هذه الكائنات - كائنات ما قبل اللغة، وما قبل الإنسان - لا تختلف عن تأليف الحيوانات التي كستنا بصوفها وغذّتنا بحليبها ولم تبخل علينا بلحمها وشحمها. إنها حتمية قدرية كحتمية تمدين أرض كنعان الإنكليزية «حيث الهنود [الكنعانيون الحمر] والحيوانات يسرحون ويمرحون معاً دون سلاسل في رقابهم»^(١٦).

معظم المفردات النبيلة في قاموس «التمدين» الذي يرافق رحلة الزنابير القدرية إلى مغرب الشمس، تؤكد أن فقهاء هذه اللغة ونطاسيها متفقون على أن ليس لهمج الأرض من تزيان سوى لسع الزنابير، وأن قدر هؤلاء الزنابير أن يكتنوا مزيداً من الشحم واللحم عبر تمدين الشعوب الهمجية وإعمار مجاهلهم وتحرير ثرواتهم و... عقولهم. هذه حضارة غنية وقدرها أن تزداد غنى مهما كانت الضحايا والتضحيات.

وفعلاً، فإن كل حملات «التمدين» التي رافقت عولة «فكرة أميركا» وإعادة صياغة الطبيعة والتاريخ إيقاع الأسطورة، كانت تسعى إلى تكييف حاجات وعادات وأخلاق وأفكار وأذواق «الهمج» لاستيعاب «فائض الإنتاج» الأمريكي. وقد كان تمدين المحظوظين الذين استعصوا على الإبادة من الكنعانيين بالغلط ورشة خرافية للهندسة البشرية سرعان ما تكررت فصوله حيثما رُفرت الراية الثلاثة بالنجوم، وحيثما أُنشدَ رسل الحضارة: «مَدَنُوهم بينديque civilize them with a crag» في الفيليبين وجزائر المحيطات وفي الصين وأميركا اللاتينية والعربية.



ما أن وضع جنرالات الحرب الأهلية عقربياتهم العسكرية في خلمة «ثروة الأمم»، حتى انضم «الازدهار» إلى آيات القدر المتجلي Manifest Destiny الذي أعطى الزنابير حقاً إلهياً جديداً

بالتوسع اللانهائي في أراضي الهمج، وأهداهم مبرراً إضافياً لعولة «المجاز الكنعاني» وترجمة «فكرة أميركا» إلى كل لغات العالم القديم، يخلق الحاجة إلى استهلاك «الوفرة» غرق الزنابير حتى شعفة رؤوسهم في صناعة بشر الأرض من جديد، وصفت كلها بحملات التمدن، واحتاجت كلها إلى الحروب الخيرية و«الهضم الخيري». من لندن إلى سيدني، ومن كنعان المجاز إلى كنعان الحقيقة، لغة لم ييلها التكرار، ولا رثها بعد آلاف الأميال عن الدار.

على مدى كل هذه القرون التي تلت الموجة الاستعمارية الأولى، لم تتزحزح فكرة أميركا عن أهدافها ولا تنازلت عن ثوابتها. لم تكن الوفرة التي سخت عليهم بها أرض كنعان لتزيدهم إلا إيماناً بقدرهم المتجلي زحفاً وتوسعا مع مدار الشمس، وإلا عطشاً إلى استنبات حاجات وشهوات لدى الهمج توحد بين قابليتهم للتمدن وبين إقبالهم على استهلاك ما يراد لهم استهلاكه.

لقد اكتشفت «ثروة الأمم» أن في ملك الهمج أن يتولوا وظيفة مضاعفة في هذا القدر المتجلي، فيهم تتعولم «فكرة أميركا»، وبهم تزدهر هذه الثروة وترضي الرب.

يقدر معلوم من التنقيح في خلق هؤلاء الهمج والتشريح في أخلاقهم وثقافتهم يُسَخرون لإحدى الحسنيين: إما للعمل في صناعة هذه الوفرة وإما لاستهلاكها.

إن ازدهار «ثروة الأمم» يعتمد على تهيج المتوحشين على استهلاك ما يصنعه إخوانهم المروضون على إنتاج «الوفرة» لحساب الزنابير.

وفي الحالين أسندت «فكرة أميركا» تمدن هذين المسخرين (قدرياً، وطبيعياً، وإلهياً، وما تشائياً) لازدهار «ثروة الأمم» إلى عبقرية الجنرالات، وأنقذت «الجلاد المقدس» بذلك من فظاعة الضجر.



فجر جديد في أفق كنعان الإنكليزية، وشمس القدر المتجلي التي ملأت بأشعتها القارة بدأت تذر قرننها على جزائر المحيط وتقترب من شواطئ الصين. الرئيس مكيني تحدث مع الله^(١٧) ليلاً في أروقة البيت الأبيض، وتلقى منه ألواح تمدين الفيليبين وهداية وثنيها.

في تلك الفترة التي فاضت فيها وفرة الأرض المنهوبة عن حاجة كل من فيها، صارت حملات «التمدن» تجري على وتيرة «فضل الإنتاج» أو على ما يشتهيه «الازدهار»، وصار قدر الزحف نحو غرب الغرب يتضمن فيما يتضمن استثمار ميثافيزياء كراهية الكنعانيين في مشروع «التمدن».

وهذا ما استلزم خلق أساطير جديدة عن واقع الآخرين تسمح لأمركا (كما يقول جوسيا سترونغ Josiah Strong أحد أنبياء عمليين العالم في كتيب بعنوان «بلادنا») بالزحف -ماديا وروحيا- إلى حيث يمضي بها قدرها المتجلي دون خوف على النقاء العرقي للزنانير .

إن عظمة هذا العرق لا تكمن في حضوره في كل مكان من العالم وزحفه نحو مناطق أخرى وشعوب مختلفة ، بل تكمن أيضا في إعادة صياغة طرق حياة هذه الشعوب باسم الحضارة [التي يحتكرها الأنكلوسكسون] . . . ولأنها حضارة روحية ومادية ، فإن تصدير المثالية المسيحية سوف يمضي يدا بيد مع تصدير الأقمشة والبضائع المصنعة . . . لقد آن للعالم ، كل العالم ، أن يتنصّر ويتمدّن . . . وهل إجراءات التمدن إلا أن تخلق في الهمجي احتياجات أعظم [للاستهلاك] وشهوات أقوى ؟ إن التبشير سوف يعبد الطريق للتجارة ، وإن الملايين في أفريقيا وآسيا يشعرون اليوم بالحاجة إلى حضارتنا المسيحية . إنها تنبض في عروق أفريقيا وتشيع الحياة في جنوب أميركا . وها هي العظام الريميم drybones لآسيا تتلملم ، فالتنفس الدافئ الذي تبعته حضارتنا يكسوا أضلاعها لحما . . . مما سيضيف هذه القارات إلى أسواقنا ، ويجعل من الولايات المتحدة مشغلا workshop جبارا للعالم كله»^(١٨) .

وفي كتاب سترونغ أكثر من تصريح وتلميح إلى أن تصميم الله لمستقبل العالم يعتمد كليا على الأنكلوسكسون ، وأن هذا الشعب المختار -من وجهة نظر داروينية مُلهوثة- هو المؤهل لصناعة مصير الإنسانية .

حتى فردريك تيرنر فيلسوف الثغور [الحرية] الذي ذهب إلى أن قدر رسالة «التمدين» الأميركية أن لا تطفئ حرا إلا بنار حرب جديدة ، نشر كتيباً طريفاً عن التجارة مع الهنود في وسكنسون بنى فيه للعروسين السعيدين «فكرة أميركا» و«ثروة الأمم» بيت الحجال ، ثم ربط قَدرَهُما بالثغور الحرية التي تركض أمامها الشمس . لقد أفاد تيرنر كثيرا من الاقتصادي الاستراتيجي ألفرد ثاير ماهن Alfred Thayer mahan العسكري البحار المخضرم والأستاذ في الأكاديمية الحرية الذي ربط مصير أميركا بالثغور الجديدة في المحيط . وعلى الرغم من كراهيته وخوفه من البحر ، فإنه دعا في كتابه «تأثير القوة البحرية على مسيرة التاريخ The Influence of Sea Power upon History» إلى التنسيق بين «الوفرة» الأميركية وبين الاستعمار والفتوح البحرية التي وصفها بأنها «ترياق التاريخ» .

ويمتلق داروني، كان يومها صرعة معظم حقول الدراسات «الحديثة»، أطلق برونك آدماس Brook Adams نظريته عن دور «ثروة الأمم» في «نشوء وانهايار الحضارات»^(١٩)، سرعان ما طورها في كتابه «سيادة الاقتصاد الأميركي» الذي وصف فيه الدولة الأميركية بأنها «شركة عملاقة» لا بد لها من التوسع في الأرض وعمدين العالم إذا كانت تريد البقاء وتؤمن فعلا بأنها أصلح الأمم^(٢٠). وبالتأكيد، لم تكن زيارة الله ليلا للرئيس مكنتلي في البيت الأبيض ودعوته إلى تمدين الفلبينيين والكوبيين إلا مباركة لهذه الأفكار.



لطالما تحولت مأساوية هذا التمدين الخيري الذي تسخوبه «ثروة الأمم» على همج الأرض إلى مادة أدبية أوفنية ساخرة. ففي أول مجموعة قصصية نشرها O Henry، بعنوان «ملوك وملفوف Cabbages and Kings»، يروي قصة ديبلوماسي أميركي التقى مصادفة في أرض متخيلة اسمها «أنشوريا» بائع أحذية أميركي كان رفيق صباه.

كل سكان البلدة «كوراليو» التي التقيا فيها كانوا حفاة عراة. هناك ثلاثة آلاف إنسان في هذه المدينة يمشون حفاة في الطرقات وليس في العالم بشر أخرج إلى الأحذية منهم. ومع ذلك فليس في «كوراليو» بائع أحذية واحد. والحال غنية عن الشرح، فالعلم بالحال يغني عن السؤال. هكذا شكّا بائع الأحذية إلى صديق طفولته مرارة الكساد. لقد تمشم ما تمشم وأنفق ما أنفق ليحمل إلى همج أنشوريا أبداع صناعة الأحذية الأميركية وليخطوبهم على طريق الحضارة، وها هم يقابلونه بالبحرود.

لكن الجتلمان بائع الأحذية لم يعدم حيلة، ففي كل «جتلمان» «سويرمان» يطير في الوقت المناسب. إن سكان أنشوريا لا يشعرون بالحاجة إلى الأحذية، فليخلق لهم سويرمان هذه الحاجة. هكذا استورد كميات هائلة من الشوك السام ورمائها في دروبهم مما اضطر الهمجي إلى شراء الحذاء الأميركي مرفقا بشهادة متحضر.



لهذا الشوك السام المهدى دائما مع أرق عواطف الحنان والشفقة والحمية الرسالية^(٢١) لغة سحرية تُمني القارئ والسامع باليوم الذي تَعْمُرُ فيه مجاهلٌ كلُّ كتنانٍ مشتتة بما عمرت به بليموث وجيمستاون من سيدات شقراوات تزين رؤوسهن قبعات كبيرة معروشة بالزهر، وأن لا يبقى في

شوارعها وحقوقها سوى بشر كاللؤلؤ المكنون يتلذذون صباحا بالبايكون^(٢٣)bacon، ويتهافون على قُداس الآحاد، ولا يحلمون إلا برؤيا يوحنا البطمي.

فتياً، لا بد لهذا المشهد القيامي من ديكور مسرحي تُعرض فيه عينات أثرية من «السكان الأصليين natives»، لعل واحدة من فتياتهم البدائيات نصف العاريات تُغرم بالجتلمان الأبيض الساحر وتفتح له، مما تفتح، أسرار «قبيلتها» ومخايب كنوزهم وأسلحة أبطالهم، كما سحر الكاتب جون سميث John Smith مؤسس مستعمرة جيمستاون الفتاة الهندية بوكاهنتا Pocahontas، وكما يسحر جيمس بوند بنات الأشرار المجرمين، ويسحر رُسُل الحضارة اليوم فتيات «أوغريب».

«إن القرون الثلاثة الماضية التي انتشر فيها الأنكلوسكسون في مجاهل العالم لم تكن أبهى ملامح الإنسانية وحسب، بل كانت أيضاً أعظم أحداث التاريخ وأشدّها أهمية وأبلغها تأثيراً»، كما يقول الرئيس روزفلت. وفي كتابه عن أفريقيا الكثير من هذه الأضغاث^(٢٤). لقد كتبه كما يقول عنوانه البليغ بلسان «صياد أميركي». وقدم له بمقدمة ذات دلالة عن غرامه بالتاريخ الطبيعي.

من هذا المنطلق الطبيعي، لم يترك روزفلت شعباً على وجه الأرض لم يرشحه لمتحف التاريخ الطبيعي. فالأفريقيون دون استثناء «عراة همج لهم أشكال القردة، يسكنون في الغابات ويفترسون وحوشاً ليست أكثر منهم وحشية، أو أحط منهم خلقة. وإن كل القارة مسكونة بأحط أنواع البربرية» وهذا ما كتبه أيضاً عن الصينيين وعن سكان أميركا اللاتينية^(٢٥)، وباللغة والصفات التي وصفت بها الجزائر على لسان سلفه الصالح جيمس ماديسون James Madison في خطبة حريه على هذا البلد العربي المسلم. (٢٣ فبراير / شباط ١٨١٥).



منذ أن نشر داروين «أصل الأنواع» انكبت العلوم الطبيعية والإنسانية في العالم الانكلوسكسوني على إثبات أن «البقاء للأصلح» يعني أن «البقاء للزنابير»، وأن «الانتخاب الطبيعي» يعني «الاختيار الإلهي» لهم، وأن هذا كله من فضل الله الذي «اختار» الأنكلوسكسون، وبارك حروبهم الخيرية، ومن آيات «القدر المتجلي Manifest Destiny» الذي يقود زحفهم من غرب إلى غرب، فإلى حيث يلج الليل في النهار.

بهذه الدارونية اكتشفت «فكرة أميركا» لأهدافها الثلاثة وثوابت تاريخها الخمسة لغة ومبررات

علمية حديثة سرعان ما استثمرت إضافيا في التنظير للتفوق العرقي والاقتصادي والسياسي والأخلاقي والثقافي... الخ وفي التبرير لدورها الراسالي وحروبها الخيرية. بهذا التنظير أعطت لنفسها دور القهر مان على الأنظمة السياسية المختلفة والأنظمة الاقتصادية المشاكسة لثروة الأمم، وبررت به «تهميج» ما تريد تهميجه من أخلاق وثقافات الشعوب.

لقد بنى تشارلز داروين للزنابير برجا إضافيا يطلون من عليائه على الأنواع السفلى من البشر، ينتقون منهم ما يحلو لهم ليمدنونهم، أو يمهلون منهم ما يحلو لهم إمهال. ولكل أجل ونصيب من الخير.

من هذا البرج التطوري، صارت الشعوب الهمجية في العالم السفلي مادة للدراسة رأت فيها كل العلوم نافذة مهمة على التاريخ الغابر للمتحضرين الأنكلوسكسون. فالتطور البشري يدل على أن المجتمعات تدرجت من الهمجية إلى البربرية فإلى عرش الحضارة الأعلى الذي يستوي عليه الزنابير. أما هؤلاء الهمج [الذين يمدنونهم اليوم] فيمثلون الحلقة المفقودة في سلسلة التطور البشري الذي يمتد عميقا في الزمن، ولعلمهم هم الأمل في الكشف عن الكيفية العجيبة التي تطور فيها الجتلتمان الإنكليزي من القرد^(٢٥). لكن هناك من ساقه بحثه «العلمي» إلى التأكيد على أن التطور الطبيعي لم يشمل كل من يقال عنهم إنهم بشر، وأن بعض الشعوب مثل الصينيين واليابانيين والمصريين يلهثون في مؤخرة هذا التطور، وأن بعضها لا يستطيع أن يقلد المتحضرين ويتعلم منهم إلا بالقدر الذي تستطيعه البهائم^(٢٦). «أي كيمياء تستطيع تغيير طبيعة دهمهم؟... كيف يمكن بطرفة عين رفعهم إلى المستوى الرفيع... الذي تطلب منا ألف سنة وجعلنا ما نحن عليه الآن نحن الأنكلوسكسون»^(٢٧). هؤلاء الهمج المخلّفون طبيعيا عن ركب التطور هم الذين أوفدتهم أريحية الزنابير ليتعلموا دروس الحضارة في العالم الآخر.

من فوائده مذهب التطور أنه شجع على صقل الجوهرية الأنكلوسكسونية بيولوجيا قبل أن يفكر الألمان بصقل جوهرتهم العرقية بخمسين سنة. فداروين الذي قضى على الضعيف بالانقراض الطبيعي، حذر من الاهتمام الصحي بالضعفاء وأثار المخاوف من العناية الفائقة بهم، لأن ذلك سيزيد من ضعفاء المجتمع المتحضر. بذلك صار القضاء الحتمي على الضعيف ينطبق أيضا على كل مستضعف. «إن كل الذين عملوا على تهجين الحيوانات الأليفة يعرفون أن هذا [الاهتمام الصحي بالضعفاء] يضرّ النوع الإنساني»^(٢٨).

وفعلا، فقد استثمرت تجارب «التهجين» طبيعيا وسياسيا لدعم «الانتخاب الطبيعي» للانكلوسكسون وتحسين شروطه. وكان فرانسيس غالتون Francis Galton (قريب داروين لأمه) أول المشتغلين في هندسة الذكاء العنصري في تاريخنا البشري. ولأنه كان يرى أن بإمكان «التهجين» أن يتحكم بالذكاء، فقد نذر حياته لهذا العلم الذي سينعم «العرق» الأنكلوسكسوني بخيره العميم^(٢٩).

ولم يتخلف الزنابير عن أهلهم في الجزيرة الأم، إذ سرعان ما أفادت «فكرة أميركا» من علم الخلايا الوراثية وتحسين النسل، وشاع التصنيف والتوصيف لكل من ليس زنبورا في أرض كنتان. لم يعد الأدب العنصري يحفل بأولئك الملونين السود أو الهنود في درك السلم البيولوجي فقد فرغ الأمر منهم، وقنطت عبقرية التمدن والتهجين والهندسة الحيوية من ملكاتهم العقلية، ففي النهاية لن يصلح العطار ما أفسد اللون.

صلُّ الجوهرة الانكلوسكسونية يقتضي كذلك حمايتها من كدر المهاجرين البيض وغير البيض. لهذا، لم يكد يغلق القرن أبوابه حتى أسس الزنابير عشرات المنظمات «العلمية» التي نذرت نفسها للحفاظ على بريق الجوهرة وحمايتها من الكدر. كل هذه المنظمات والروابط استثمرت علم الوراثة وتحسين النسل في شنشتها البلاغية وفي مرافعاتها أمام الكونغرس عن خطر المهاجرين غير الانكلوسكسون. أثناء مناقشة قانون «تحديد الهجرة» في الكونغرس، سأل نائبٌ زميله:

جيمس مكلافرتي James H. MacLafferty (جمهوري عن كاليفورنيا): هل يفكر الزميل المحترم في أن يكون الهدف الأساسي من هذا القانون هو التمييز العنصري بين بعض الناس؟ جيمس أوكونور: James OConnor (ديمقراطي من لويزيانا): : أظن أن اللجنة [التي تناقش القانون] ومترحي هذا القانون يعتقدون أن من الضروري التمييز العنصري بين الناس للحفاظ على مثاليات هذا البلد وأهدافه العليا.

مكلافرتي: هذا كلام طيب. هل ستميز عنصريا ضد الأعراق الآسيوية؟

أوكونور: أعتقد أن هذا تقليد متجذر في أميركا.

مكلافرتي: تقصد التمييز العنصري؟

أوكونور: نعم

مكلافرتي: وهل هو ضروري؟

أوكونور: قد يكون ضروريا.

مكلافرتي: وهل للتمييز العنصري مبرر؟

أوكونور: أحيانا.

مكلافرتي: أحسنت قولاً. (٣٠).

منذ أن أنقذت «ثروة الأمم» «فكرة أميركا» من الانتحار وقدمت لطرفي الحرب الأهلية كليهما نسوية رابحة، وإخراجاً نافعا لمسألة العبودية لا يتنكر لطبيعتها الخيرية، صار المهاجرون الفقراء، بعد الله، أكبر مصدر للثروة الوطنية^(٣١). الأميركية، فقد التحق معظمهم، وبدرجات متفاوتة، بركب العبيد «المحررين» في المزارع والمصانع، وتقاسموا معهم الخبز و«الدونية» وصناعة الازدهار، كما يروي ساكستون صاحب الشاهد السابق في رواية طريفة له بعنوان «بيت عنكبوت متألقي في الظلام Bright Web in the Darkness».

أكثر من ٢٦ مليون مهاجر جديد من كل بلاد البياض وصلوا إلى أرض كنعان الجديدة فلم يشفع لهم البياض، ولم يجدوا لهم أهلاً أرحب من أهلها الحمر و«المحررين» من عبيدها السود الذين أغدقت عليهم «فكرة أميركا» جميعاً نعمة «الهضم» وجيشاً كثيراً منهم في حروبها الخيرية، ولم تنس من التنبيه إلى خطرهم على نقاء الدم الانكلوسكسوني^(٣٢).

يومها لم يبق من مهمات «فكرة أميركا» في أرض كنعان الانكليزية إلا تمجيد الله باستعباد من استعصى من هؤلاء الكنعانيين بالغلط على الموت، واستنقاذ تلك المعازل وكنوزها من همجيتهم.

ويومها أيضاً، تساءل تيرنر فيلسوف الثغور عن الصورة المزرية التي ستؤول إليها «إسرائيل الله الجديدة Gods New Israel» إذا لم يُطهروا، هم هؤلاء المهاجرون الجدد، خلُقوا وخلُقا، ويُلقى بهم في مصاهر الحضارة. ثم بكى على ما آلت إليه «أرض الحرية من ضياع The free lands are gone». حيث لم يعد غريباً أن يلتقي الجتلمان في طريقه بهمجي يزين جسده العاري ووجهه بالأصبغة، كما يكرر ذلك في معظم كتبه.

كذلك وصف هنري جيمس الروائي الأرستقراطي في «المشهد الأميركي The American

Scene ما يصيبه من قرف كلما تعثر بوجوه الإيطاليين في طرقات بوسطن (مسقط رأسه)، أو غيرهم من هذا التلوث في شوارع إليس آيلاند Ellis Island (نيويورك) التي تضم اليوم متحفا لهؤلاء المهاجرين (تقول دعايته التي تستقبلك على الباب إن هذا الثغر البحري استقبل ١٢ مليون مهاجر بين ١٨٩٢ و ١٩٥٤)، ذلك لأن هذه المخلوقات الزاحفة من تحت جعلت «الزناير» يشعرون كما لو أن بيتهم (١) الآمن قد عَجَّ بالأشباح» (٣٣).

«هذه زبالة الأرض وصلت إلى وينشستر، وحين ستبدأ المذبحة لا بد أن يكون لي نصيب من رقابهم. ولربما أنني لن أكتفي بمجرد الذبح» (٣٤).

ولتدارك هذا الخطر المهدد للقاء العرقي أرسل الزناير إلى جزيرتهم البريطانية الأم ٣٦٠٠ وكيل هجرة لاستنهاض الهمم. كانوا ينظمون المحاضرات، ويقىمون المعارض، ويَرسون رؤساء تحرير الصحف ببطاقات سفر مجانية على متن أفخر السفن، ويجولون من مدينة مقدسة إلى أخرى لتشجيع البريطانيين على إنقاذ عترتهم الأميركية من تلوث الدم الطاهر بزبالة الأرض الزاحفة يومها من الصين (٣٥).

كان تدفق الصينيين على ولايات الشاطئ الغربي كابوسا أين منه اليوم كابوس المهاجرين من أميركا اللاتينية. فمن ولاية واشنطن وأورغن شمالا إلى حدود كاليفورنيا مع المكسيك جنوبا، ومن الأعماق القارية لهذه الولايات في أيداهو ونيشادا وأريزونا، كان الزناير يصرخون بصوت واحد «نريد أسواق الصين ولا نريد فائض سكانها» (٣٦). مرة يصفون هؤلاء المهاجرين الذين ينافسونهم بمهارتهم وتواضعهم وأجورهم الرخيصة بأنهم «أحط جنس بربري، جاؤوا لينافسوا أبناء العرق الأكثر ذكاء والأرفع ذوقا... ويقدموا للرأسمالية نوعا جديدا من العبيد» (٣٧)، ومرة بأنهم «وحوش ذوو أذنان طويلة» (٣٨).

حتى لجنة الكونغرس التي حققت في «خطر» التدفق الصيني ثبت لديها أن «أدمغة الصينيين معطوبة» (٣٩).

على مدى أكثر من عقدين، خاض الحزبان الرئيسيان انتخاباتهما في تلك المناطق بشعارات تتنافس في صياغة هذه الديباجة الخالدة: «ما أكره الصينيين وما أشهى أسواقهم». بل إن «حزب العمال»، وهو أول حزب ماركسي في الولايات المتحدة، حصد ما يعادل ثلث الأصوات في انتخابات ١٨٧١ بسبب الشعار الذي ناضل من أجله لأكثر من عشر سنوات: «يجب على

المعكش: زحف القديسين

الصينيين أن يرحلوا «The Chinese must go». وهو شعار لم يختلف عما نادى به الحزبان الرئيسيان إلا في أنه لم يتضمن هذه الإضافة: «أو يذوبوا».

أما كيف يذوبون، ومن حُق عليه أن يذوب فقد أجابت The Atlantic Monthly عن ذلك بمقالة ساخرة عنوانها «أن تكون متحضرا أكثر من اللازم» جاء فيها:

«خذ هذا المهاجر الهمجي بيدك. قصّ شعره. ضِع بنطلونا في ساقه. أدخله المدرسة [الأميركية] العامة. أعطه جريدة يومية وانظر كيف سيتطور عقله، وتتغير مشاعره. ولكن حذار من أن تحضره أكثر من اللازم، فذلك سيشل عقله...»^(٢٠).

ظل هذا الغرام بمسح «الآخر» أو «هضمه» و«عبادة الذات» يعيد وييدي على مدار السنين، منذ حملات «مئدين» جيرانهم الإيرلنديين البيض في القرن الثاني عشر، وفي كل حروبهم مع الإسبان والفرنسيين ومع الألمان وغيرهم من سكان القارة الأوروبية، كما شمل السود والحمير والصفر والسمر في كل قارات الأرض بلا استثناء، وكان من بعض ثماره تطهير قارتين كاملتين هما أستراليا وأميركا الشمالية^(٢١) من سكانهما. ولولا أن «حرب الأفيون» انتكست، برغم كل أبعادها الخيرية، لكان من المنتظر أن تكون «صينلاند» اليوم مثل «آيسلاند» و«غرينلاند» جزءا من خراج «الزنابير»، ولكن على أهلها الصينيين أن يتعمروا ويعووا في البراري على أعقاب إخوانهم الأباشي.

يومها، أيضا، وُصِف نضال الصينيين ضد أفيون الانكليز بالوحشية والبربرية ووُصم أبطال هذا النضال وعلى رأسهم لين تسو Lin Tse-hsu بكل ما وُصم به الأشرار أعداء الحضارة والحرية... الخ^(٢٢).

على مدى أطول تاريخ عرفته الذاكرة الإنسانية من «الحروب الخيرية» السخية التي عمت أربع جهات الأرض، ظل هذا الغرام بمسح «الآخر» و«عبادة الذات» يستمد أخلاقه ولغة خطابه من «عقيدة الاختيار» والتفوق العرقي والثقافي.

لغة ودعاوى ملائكية تسليخ جلدتها مع كل تطور جديد، كالثورة الصناعية، ومع كل نظرية علمية جديدة، كنظرية التطور، لكن حوافز هذه «الحروب الخيرية» ورسالتها الحضارية ظلت من

«كنعان المجاز إلى كنعان الحقيقة واحدة لا تحول ولا تزول: إنعاش الأسطورة. إنعاش الأسطورة التي نسجها بدومتسييون حاقدون على كل حضارات عصرهم؛ نسجوها من هاجس نهب هذه الحضارات بأهلها وأرضها وسماتها، وأورثوا الزنابير (الذين يرضعون هذه الأسطورة قبل الحليب) عنجبية «الجلاد المقدس» وأبلغ آداب «مسخ الآخر» و«عبادة الذات» و«تقديس الجريمة».

«الحضارة» في سياق هذه الخطب الحرية - وما أكثر ترددها - لم تستعر معناها من الأسطورة المؤسسة وحسب بل إنها نسجت منها نظامها القيمي والأخلاقي. وربما لهذا لم يجد صاحب ثروة الأمم تناقضا بين أن يكون أستاذا لفلسفة الأخلاق واللاهوت، باحثا في «نظرية العواطف الأخلاقية» The Theory of Moral Sentiments⁽³⁷⁾، وبين أن يكون المؤسس النظري لما يعرف بال رأسمالية المتوحشة wild capitalism. فصانعو الأسطورة الذين لم يكونوا يؤمنون بيوم آخر - لا بحساب ولا ثواب ولا عقاب - استعاضوا عن نعيم الجنة بنعيم «نهب جنة الآخر» والتمتع بإبادة من فيها أو استعباده، واستعاضوا عن عذاب الجحيم بعجزهم عن فعل ذلك، ثم لفقوا لذلك نظاما أخلاقيا يمجّد نهب جنة الآخر (الذي هودائما كنعاني مستباح) ويرفعه إلى مرتبة العبادة - عبادة تجرّد فيها ذلك العويل الشكاء الندّاب اللوام العضال الذي لازم حياة «الجلاد المقدس» كلما أدركته البطالة.

لكن أعظم فضائل هذا الزواج بين الأسطورة المؤسسة وبين «ثروة الأمم» أنه أدخل الناس في دين الأسطورة أفواجا ومن كل فج عميق، وغسل بنور الإيمان قلوب كثير من أعدائها وضحاياها وجنّدهم لها: من شاء منهم أن يعبد رب الأسطورة فليعبد رب الأسطورة، ومن شاء أن يعبد عجل الذهب فليعبد عجل الذهب. فللربين كليهما عرشان متناظران في بانتيون «فكرة أميركا».



في هذا النسج الترابي لفهوم الحضارة، اختفت قيم الفقراء والمستضعفين والرومانسيين السذج؛ قيم «الصدق» و«الكذب» و«الحق» و«الباطل» و«الشرف» و«الأمانة» واستعُض عنها بقيم من عجّين التراب كالمملّكية، وتوزيع الثروة، وطرق الإنتاج، ونماذج الاستهلاك. ولطالما كانت قيم «الاكتناز» و«تكدّيس المال» و«التملك» بمعناه البطر الأناني من أهم المعايير التي حكم الزنابير من خلالها على نظام «الملكية الجماعية للأرض» لدى الهنود بالوحشية، لاسيما وأنه حال دون السيطرة السهلة على أراضي الهنود، سواء كان ذلك بالرشوة أو كان بالبيع الاختلاسي. إن فكرة

«الاكتناز» و«التكديس» والتملك الفردي الأثافي كما يصفها عالم الإنسانيات لويس هنري مورغان Lewis Henry Morgan «هي عاطفة تسمو على كل العواطف، وهي المهد الذي ولدت فيه الحضارة الإنسانية. . بل إن تطور فكرة التملك يجسد أهم تطور طبيعي في تاريخ العقل»^(١٤). معظم دراسات «ثروة الأمم» لنشوء الحضارة الإنسانية وتطورها وضعت «المنفعة» في أعلى سلم القيم وصنفت حياة الشعوب وفقا لمزئلتها من سلم التطور الاقتصادي أوحى الآلي : (مرحلة الإنتاج الصناعي فوق مرحلة الصيد والجمع، والرأسمالي فوق «الشيوعية» أو ملكية القبيلة. . . الخ). وما أكثر ما تحولت هذه التقييمات المستمدة من خارج فلسفة الأخلاق إلى ذرائع أخلاقية لإلقاء الحجارة من أعلى هذا السلم على رأس من في أسفله، ومعاذير لتبرير استخدام القوة لتمدين و«رفع مستوى» من تقتضي مصلحة «الحضارة» تمدينه ورفع مستواه.

هذا «التمدين» الذي كان شعاره أيام الاحتلال الأمريكي للفيليبين : «مدنهم ببندقية civilize them with a crag»^(١٥) يشمل - كما تدل على ذلك كل خطب الحروب - مروحة واسعة من أعمال البر والإحسان تبدأ بالإبادة الجسدية الكاملة ولا تنتهي عند الإبادة الثقافية الشاملة التي سقاها الرئيس الأمريكي وليام مكنلي بالهضم الخيري benevolent assimilation، ودعا إلى استخدام كل ما يلزم لتحقيقها. لقد برر الزناير لأنفسهم حق «تمدين» من يشاؤون، بأي سبب يشاؤون، وحيثما يشاؤون، وكيفما يشاؤون، بالبندقية أو بالتقية. والدرس في النهاية بليغ ومكتوب بلغة إنكليزية ملكية : «تغيروا أو زولوا change or begone».

- II -

ما أن حُشر كنعانيو العالم الجديد في معازلهم مُخدرين بسيادة وهمية^(١٦) ومعااهدات أرخص من ورقها حتى أعلن رجل الكونغرس سيدني كلارك Sidney Clarke «أن حال هؤلاء الهنود لا يختلف عن حال امرأة تم تخديرها لاغتصابها»^(١٧). «الولايات المتحدة [يقول السناتور توماس هنريكس Thomas Hendricks]، شاءت المعاهدات أم أبت، مضطرة إلى أن تريح هؤلاء الهنود من طريق تقديمها»^(١٨).

كان جنرالات «ثروة الأمم» يشبهون هذه المعازل المتناثرة في رحب كنعان التاريخية والمطوقة بالزناير من أرضها وسمائها والتي لا تزيد مساحتها مجتمعة على ٣ بالمئة من وطن الهنود التاريخي

مرة بجدار الصين ، ومرة بحزام النار الذي يقف في وجه الازدهار . وكانوا يعدون عدة «التمدين» ، ويتطلعون إلى نيش كنوز هذه المعازل وإشراق أهلها للرياح الأربع .
لقد ووجه سيدني كلارك بعاصفة من التصفيق حين دعا إلى ترحيل كل من في [ولايتة] كانساس من هنود [لتتمكن شركات سكك الحديد من اختراقها] والسماح لممثلي هذه الشركات بطردهم ومطاردة فلولهم^(٩٩) .

لكن حزام النار الأخطر على ازدهار «ثروة الأمم» كان يتجسد فعلياً باستعصاء الهنود على «التمدين» ؛ تمدين هؤلاء الربع مليون الذين نجوا من أصل ما يزيد على ٤٠٠ أمة وشعب كانوا يعيشون في المنطقة التي تسمى اليوم بالولايات المتحدة عند وصول كولومبس إلى (العالم الجديد) . وكان جدار الصين الذي ينهض في وجه جنرات ثروة الأمم هو عملياً «همجية» هؤلاء الهنود المتمثلة في ثقافتهم ، وفي نظامهم الاجتماعي الذي لا يعترف بملكية فردية ، وفي فلسفتهم الأخلاقية التي تحتقر «النهم» و«الجشع» . كل ذلك فرض على فلسفة «تمدين» الهنود أن تضم خصباً مثل «الأنانية» و«النهم» و«الجشع» إلى معجم الفضائل وأن تزرعها سدى في نفوسهم .



عندما أخفقت جهود الجنرالات ، استعانت الدولة بالمبشرين وسخّت عليهم . لقد طلبت إليهم في عام ١٨٠٢ أن يكتفوا لاهوتهم بما يرضي الله و«ثروة الأمم» . سألتهم أن يعيشوا بين الهنود وأن يزرعوا في نفوسهم حب الشهوات والتملك والاكتناز والاستهلاك السفیه : «اشترأ أو موتوا buy or die» . من ذلك مثلاً أن يقنعوهم بأن التخلي عن منسوجاتهم الوطنية وارتداء البطلون وغيره من الملابس المصنوعة آلياً [في مصانع ثروة الأمم] يساعد على إنقاذ أرواحهم^(١٠٠) .

والجيوب - كأحدية OHenry في أنشوريا - قصة ليست جديدة على حروب الخير وحملات التمدين ، فلطالما تكررت مثل هذه الملاحظات عن الجيوب وغيرها من مستلزمات «ثروة الأمم» في حملات تمدين معظم همج العالم ، وشُحذت لكسر أنظمتهم الاجتماعية أو الثقافية ، .
«الصينيون [مثلاً] «خلت ملابسهم من الجيوب»^(١٠١) أيضاً ، وأسقطت عليهم بسبب هذه الجيوب التي لم ترها عيون معلمي الحضارة كل عاهات المتخلفين التي تحرمهم من استهلاك السلع الأميركية .

في كتابه عن «الحصااا الصينية» أفاض آرثر سميث Arthur Smith (صاحب الملاحظة

السابقة عن الجيوب، وكان يتولى رئاسة بعثة تمديدية في الصين). . أفاض في شرح ما يعود به التبشير من خير على «ثروة الأمم» وذلك من خلال زرع عادات حضارية في نفوس الهمج تسمح باستهلاك المنتجات الحضارية:

«قبول الصينيين للمسيحية سينسف كل علاقات الملكية البدائية بينهم من الجذور كما سيقضي على نظام التكافل العائلي. وستكون هذه أول درجة يرقاها الصينيون على سلم الحضارة. إنها خطوة تطور هائلة، إذ ليس هناك من معوق لتقدم الحضارة بين الصينيين أخبث من نظامهم العائلي الكبير الذي يتعاون فيه أفراد العائلة، ويتكافلون، ويعتمد الواحد منهم على الآخر في إطار الملكية العامة»^(٥٦).

بعد حوالي قرن من الجهود التبشيرية التي تألفت لها مئات من جمعيات «أصدقاء الهند» و«الحوار مع الهند» و«التفاهم مع الهند»، ظلت فضائل المدنية تراوح مكانها، لم تفر الكثيرين منهم، فآلقى المبشر ميريل غايتس Merill Gates خطبة أمام مؤتمر «جمعية أصدقاء الهند» التي يرأسها قال فيها

«لا تزال هناك حاجة ماسة لإيقاظ الشهوات والملذات والاحتياجات في هذا الهندي الهمجي. لانقاذ الهندي من همجيته يجب أن نجعله أنانيا ذكي الأنانية، وليس [كما هو الحال الآن] ذكيا أنانيا الذكاء. علينا أن نوقظ فيه الجشع، والنهم إلى الأشياء. إنه في همجيته المقيتة يحتاج إلى لسة مباركة من أجنته ملائكة السخط؛ السخط على مسكنه، والسخط على طعامه. . . ، والسخط على غط حياته المتقشفة. . . يجب أن نلقه بما يلتحف به ليلبس البنطلون. . . بنطلونا مع جيوب. . . جيوب يضع فيها الدولارات ليشتري بها ما تنتجه المصانع الأميركية ويتمدن. . . كل هذا يحتاج إلى تربية أخلاقية صارمة، تحببه بالتملك وتؤله للحضارة»^(٥٧).

ومع إخفاق التمدين العلماني والتمدين الديني في كسر النظام الاجتماعي الهندي، كان لابد من التمدين بالبنادق. هكذا سن الكونغرس في عام ١٨٨٧ ما يعرف بقانون توزيع الأراضي General Allotment Act (أراضي الهندو طبعا)، وهو كما نصت الخيئات أول خطوة نحو «الحضارة ونحو الخروج من ولاء القبيلة إلى الولاء للدولة الأميركية». وكان من ثمار هذه الخطوة نحو الحضارة أن سلب المتحضرون من أراضي الهمج الهند ما يقرب من ١٠٠ مليون فدان في أقل من خمسين عاما بعد صدور القانون^(٥٨).

كان هناك اعتقاد بأن الهندي سيتبخر طبيعيا عندما «يتمدن»، ولهذا صار تمدنيه من متطلبات الحضارة. سيتمدن؛ عندما تسج سكك الحديد عنكبوتها في أرضه وتقصفه بالحضارة من كل صوب. لكن الأمل وحده لا يكفي ولا يعول عليه، كما رأى بعض رجال الكونغرس، إذ «لا بد من مساعدة الحضارة على إياة الهنود كما أمر الله يشوع حين دخل أرض كنعان بأن يبيد الكنعانيين الذين لم يكونوا يختلفون عن هنود اليوم، ثم إنه عوقب على تقاعسه عن الانصياع لأمر الله . . . إن على الهنود أن يفسحوا المجال لعنصر من البشر أصلب عودا وأرجح عقلا heavier physically and mentally . لا بد من تدمير كل منجزات الإنسان المتوحش ليتقدم العنصر الأقوى بمنجزاته»^(٥٥).

ومن يومها لم يوافق الكونغرس على أية معاهدة لا تتضمن بنداً يسمح لعنكبوت الحضارة ببناء بيته ونصب مصيدته على عنق القمقم، وهذا ما وضع نظام «الاكتفاء الذاتي» لدى الهنود على فوهة المسدس. لقد تلازم تصدير جنرات الحرب الأهلية إلى إدارة الشركات مع انتصار «الاتحاد» ومع ارتهان مفهوم الحضارة للآلات العجيبة التي تدهش الهمجي دائما، مما أعطى التفوق التكنولوجي (والتفوق في تكنولوجيا السلاح بشكل خاص) معنى التفوق الحضاري^(٥٦)، ومعنى الخير أيضا.

كان الهنود يعرفون أن اختراق «سكك الحديد» لما تبقى من وطنهم التاريخي سيملا أرضها بالزنابير الذين سيخترعون آلاف الأعداء لطردهم منها بإحسان أو تمدينهم في العالم الآخر. بل إن كثيرا من «العقلاء» «الواقعيين» الهنود والمتحمسين منهم في موازين القوى، هؤلاء الذين لمستههم «أجنحة ملائكة السخط» وحولتهم إلى طواويس، بدأوا يتحدثون عن خيارات مشاريع «ثروة الأمم» داخل أراضي الهنود، ويحذرون أهلهم من «الانتحار»:

«لا جدوى من المعارضة الغبية. إن سكك الحديد ستعبر بلادنا وتحسن وضع أراضينا، ومن منكم لا يحب سكك الحديد فليرحل بعيدا قدر استطاعه»^(٥٧).

وهذا أيضا ما رده جنرات «ثروة الأمم» والمسؤولون الحكوميون أثناء المفاوضات، فكل الخطب والحجج التي ترددت مثلا في مفاوضات «فورت سميث Fort Smith» (١٨٦٤) على مدى ١٢ يوما كانت تؤكد على الطابع الخيري لعبور سكك الحديد أراضي الهنود، لأن «الهدف من بناء هذه السكك هو الحفاظ على حقوق الهنود وأملاتهم، إذ لن يُسمح لأي إنسان أبيض

بالسكن في أراضيهم غير العاملين في الشركة وعمال الصيانة والتطوير وبعض من مستعطيهم الحكومة الأميركية أذنونا خاصة» .

وكانت أول بوادر الخير حجز الأموال المستحقة للهنود لقاء عبور هذه السكك في أراضيهم .
و«لأن التوحش لا يحسن استخدام المال بمسؤولية» فقد تم إيداع المال في صندوق خاص بواشنطن ،
ثم استثمر من قبل «مكتب الشؤون الهندية» [وكان اسمه يومها The Indian Office] على
حماية سكة الحديد وعمالها من الهنود ، وتم التبرع بالباقي للشركات^(٥٨) .

في عام ١٨٦٤ ، استثمر ما في الصندوق الوطني الشيروكي وصندوق أيتام الشيروكي في
سندات الحكومة ، ثم تم التبرع بها لدعم شركة سكك حديد Eastern Union Pacific التي
كانت يومها قد وسعت نشاطها وبدأت باحتطاب غابات هنود الدولاوير في كنساس ، وشاركت
في طردهم ومطاردتهم ، هم وهنود الشيروكي ، إلى الجنوب . أما سندات الحكومة التابعة لأيتام
هنود الكريك فتم التبرع بها لشركة Chesapeake and Ohio Canal Company^(٥٩) .



في تلك السنوات القليلة التي سبقت الحرب الأهلية أوتلتها ، سلبت «ثروة الأمم» من الهنود
معظم ما استعصى على «فكرة أميركا» سلبه من أرض و«سيادة» وحرية وأنفاس معدودة . فقبل أن
تجف دماء الحرب كان جنزالاتها الذين حولوا السيادة والحكم الذاتي إلى مزرعة لتربية الطواويس قد
أوكلوا إطفاء «حزام النار» لمسؤولي مكتب الشؤون الهندية Bureau of Indian Affairs ، بعد
أن «دسوا سيقانهم في بنطلون مع جيوب ؛ جيوب يضعون فيها الدولارات ليشتروا بها» . بذلك
أفلح الطواويس فيما عجز عنه الجنرالات ، وتولت «أجنحة ملائكة السخط» إنعاش الأسطورة
التي تسكن عظام الزنابير . تلك كانت بداية ما يصطلح عليه في «تعريفات» الزنابير من سيدني
إلى غرينلاند بالاستعمار غير المباشر (أو الداخلي) :

: « طبقة ترجم ما نريده للملايين التي نحكمها ، طبقة من الأشخاص ، هنود الدم واللون ،
إنكليزيي الذوق والأفكار والأخلاق والعقلية »^(٦٠) .

a class who may be interpreters between us and the millions we . . .

govern ، a class of persons ، Indian in blood and colour ، BUT English
in taste ، in opinions ، in morals ، and in intellect

كان لابد من مساعدة الحضارة على تمدين «الكتنعانيين الذين لم يكونوا يختلفون عن هنود اليوم»^(٦٧). تمدينهم من الداخل، وعلى أيدي «طبقة من الأشخاص، هنود الدم واللون، إنكليزيي الذوق والأفكار والأخلاق والعقليات»، وفي إطار الثقافة الهندية حتى لا يقال إن «التمدين» يفرض عليهم من الخارج.

«حالة حصار» حضارية، وصفها السناتور لوط موريل ببهجة وافتخار :
«أصبحت حضارتنا هي السيد، سيد هذا [الكتنعاني] المتوحش، وسيد حكومته... إنه الآن بين حجري الطاحون الأعلى والأسفل، ويجب أن يُسحق. صحيح أن الإنسانية لا تسمح، لكن مصلحة الحضارة تتطلب»^(٦٨).

- III -

أواخر حزيران/ يونيو الماضي، أحييت الحركة الهندية The Indian Movement مهرجانا تأبينيا لضحايا هذا التمدين في «المدارس الداخلية Residential Schools التي أنشأها الزنابير لما تبقى من أطفال الهنود المكتنعين. وهناك التقيت لأول مرة بالأنثروبولوجي الهندي جورج واسن صاحب الرسالة الساخرة «رسالة الهندي الأحمر إلى شعب العراق»^(٦٩).

مختصر تفسير واسن لرسائله هو أن لكل ما تفعله الولايات المتحدة في هذا البلد أوذاك سابقات داخل ما صار يعرف اليوم بالولايات المتحدة نفسها، وأن تجربة «الاستعمار اللطيف» الذي جسدهه بانشاء «مكتب الشؤون الهندية» كررته في كل مكان حاولت تمدينه^(٧٠)، فنجحت في مكان وأخفقت في آخر.

وبالطبع لا يمكن فهم المראה التي يتحدث بها الهنود عن «مكتب الشؤون الهندية» دون معرفة حجم الدمار الذي لحقه طواويسه بأبناء جلدتهم لحساب المستوطنين الغزاة، ولا سيما لأطفالهم الذين تعرضوا لأرقى أنواع غسيل الدماغ، وما رافق ذلك من تعذيب وسخرة واعتصاب وإرهاب جنسي وسلخ ثقافي وروحي.

لأكثر من قرن كان هذا «المكتب» يلجأ إلى كل وسيلة ممكنة، بما في ذلك العنف والخطف، لاقتلاع أطفال الهنود من أحضان أمهاتهم وثقافاتهن في أصغر سن ممكنة (الرابعة في أغلب

الأحيان) ونقلهم إلى هذه «المدارس» ،

أولاً، ليتعلموا كيف ينظرون إلى أنفسهم والعالم بعيون مستعمريهم، وثانياً، ليعملوا بالسخرة في المصانع والمزارع الملحقة بهذه المدارس، في ظل نظام عسكري صارم، تولى كبره جنرالات «فكرة أميركا» و«جنرالات ثروة الأمم»، قضى بموجب الإحصاءات الرسمية على أكثر من ٥٠ بالمئة من هؤلاء الأطفال. وكان الكونغرس قد أولى «مكتب الشؤون الهندية» سلطة (ونادراً ما يوليه سلطة) فرض عقوبات اقتصادية وجسدية على الآباء الذين يرفضون تسليم أولادهم إلى «وكلاء» هذه المدارس. بذلك كان بوليس «المكتب»-والجيش، في حالات الاستعصاء- يدخل المعتزل الهندي ويحصد كل أطفاله، مع التهديد في بعض الأحيان بالقتل والسلخ and kill scalp (٦٦)، كما يروي ذلك مع كثير من التفاصيل الموجهة دافيد والس آدمس David Wallace Adams في كتابه «تعليم للإبادة Education for Extinction» الحائز على جائزة The Caughey Western History Association book prize في التاريخ، وخلاصة الكتاب أن هذه المدارس كانت الفصل الأخير في تراجيديا حرب الإبادة.



لم يتورع طواويس «مكتب الشؤون الهندية» عن إقطاع هذه المدارس لثروة الأمم التي أقطعها بدورها لإرساليات التبشير، واستأجرت لذلك خريجي السجون وأصحاب السوابق والسادين ومختصي الأطفال والمتقاعدين العسكريين والأمنيين لتمدين أطفال الهنود والإشراف على هذه المدارس وإدارتها، لهذا لم تخل مدرسة واحدة، وينسب مختلفة من الاغتصاب الجنسي. حتى إن بعض خطباء المهرجان التآيني، أشاروا إلى امتناع كثير من الأمهات عن الحمل خوفاً من جلادي المدارس الداخلية ونظام الترانسفير الذي فرضه المكتب وشركات «التمدين» المتعاقدة معه. ويروي المؤرخ الهندي جورج تينكر George E. Tinker بكثير من الحزن قصة أخ له بالتبني (واسمه دوني Donnie) الذي انتحر وهو في الثانية والخمسين. لقد اختطفه بوليس الطواويس من ذراعي أمه في مَعزل Pine Ridge عندما كان في الخامسة. لم ينفع بكاء الأم ولا ضراعة الأب، فقد وضعوا في يديه القيد أمام عيونهما، وساقوه إلى سيارة تغص بالأطفال، حيث ربطوه بالسلسلة الطويلة التي تصفدهم جميعاً، ثم شحنوهم إلى مدرسة St. Francis التي أولى «المكتب» إدارتها إلى إرسالية تبشيرية. ومنذ تلك اللحظة كُتبت قصة انتحاره، فقد بدأ منهاجُ تمدينه في

الأيام الأولى لدخوله المدرسة بافتراسه جنسيا من قبل ناظر يصفه بأنه أبيض عملاق، كان ينسلّ إلى مهجعه في الليل ويغتصبه هورفيق غرفته «كونراد» الذي كان بعمره . كان الناظر يعرّيهما معا، ويتناوب على تمدينتهما حتى ينتهي^(٦٧)، إضافة إلى غزوات افتراس مفاجئة يشنّها عليهما بعض العاملين، أو وجوه لم يراها من قبل . أما كونراد فسرعان ما وضع حداً لعذابه وانحصر قبل أن يبلغ الخامسة عشرة^(٦٨).

قصة الاغتصاب الجنسي في هذه المدارس تكاد تكون بعمر فكرة تمدين أطفال الهنود . هناك تقرير يعود إلى عام ١٨٩٠ (٦٩) يتحدث عن راهبات كنّ يُدخلن أطفال الهمجية معهم إلى الحمام (. الخ) . ويروي، نقلا عن شهادات التلاميذ، كيف كنّ يتلوين أمام هؤلاء الأطفال ويتأوهن وهن يعلمنهم دروس المدنية .

أما الدراسات الإحصائية لهذه الظاهرة فحديثه نسبيا . فالتقرير الذي أعدته وزارة الصحة عام ١٩٩٣ يقول بأن نسبة اغتصاب الأطفال في بعض هذه المدارس، ما بين أعوام ١٩٥٠ و ١٩٨٠ ، كانت كبيرة إلى حد أنه كان عاما طاما لم يستثن أحدا منهم أو منهن^(٧٠) . وأثناء محاكمة ناظر في مدرسة Alberni، اعترف بأنه «مدّن» كل الأطفال الذين كانوا تحت نظارته، وذلك منذ اللحظة التي تعيّن فيها حتى لحظة تقاعده، وبشكل يومي تقريبا^(٧١) . إن قصة دوني وكونراد هي في النهاية قصة كل الحروب الخيرية الأميركية مع الهمج والبرابرة والوحوش الذين يكرهون «طريقة الحياة الأميركية» . كل هندي في أميركا اليوم هو إما «دوني» أو إنسان آخر يكيه . إن حياة هؤلاء الهنود اليوم هي مكابدة يومية مع ما جنته عليهم مدارس المدنية على مدى خمسة أجيال من افتراس لممتلكاتهم وتاريخهم وثقافتهم وأديانهم وهوياتهم لا يقل عنجية عن افتراس أعراضهم .

هذا «التمدين» الذي وظف المدرسة لتدور فيها آخر فصول الإبادة لأكثر من ٤٠٠ أمة وشعب كانوا يعيشون في المنطقة التي تسمى اليوم بالولايات المتحدة ويسمون زنبوريا بالكنعانيين، هو من عبقرية ريتشارد هنري برات Richard Henry Pratt أحد جنرالات «ثروة الأمم» الذي اخترعته الإدارة الأميركية لإنشاء هذه المدارس ووضع نظامها تحت مظلة «مكتب الشؤون الهندية» . والهدف، كما أعلنه برات بنفسه هو «قتل هندية الهنود»^(٧٢) . أما طاووس «المكتب» وليم جونس فقد فسر مسألة «تشرّيع الخلق وتنقيح الخلق» بلغة أكثر وضوحا: «إن الهدف من إنشاء هذه المدارس هو «إبادة الهندي لخلق إنسانا آخر»^(٧٣) .

to exterminate the Indian , but develop a man

النظير الكندي Duncan Cambell Scott قال : «إن الهدف هو القضاء نهائيا على القضية الهندية . مهمتنا [التمدين] ستستمر حتى لا يبقى هندي واحد يفكر فيما يسمى قضية هندية»^(٧١) .



لكن أهداف مدارس التمدين ، في اعتقادي ، لا تتجسد إلا في شخصية هذا العسكري المتقاعد Pratt الذي اختير بعناية لإنشائها ووضع برامجها تحت مظلة الطواويس . فكل مؤهلات الرجل أنه كان مدير سجن عسكري في فورت ماريون Fort Marion ، ولم يتول أية مهمة تربوية في حياته . ومن مؤهلاته أيضا أنه الابن النجيب للزوجين السعدين «فكرة أميركا» و«ثروة الأمم» ، فهو الذي أسس نظاما يعرف بصناعة السجون ، سخر فيه السجناء على العمل لكي يسدوا نفقات سجنهم وبفائدة مرتفعة^(٧٢) ، وهو شكل متطور من أشكال العبودية الذي أهذته «ثروة الأمم» لفكرة أميركا وطبقه برات على مدارس الهنود ، فحكم على كل طفل همجي في مدارس المدنية أن يعمل بالسخرة لمدة تزيد على عشر سنوات ، إذا لم يفن تمذنا قبل ذلك .



بعد أن يتلقى الطفل أربعة دروس صباحية في «المواطنة» و«الحضارة» و«اللغة» و«الدين» ، يتناول وجبة غداء دسمة من الخبز والحساء والبطاطا المسلوقة . بعدها يُساق إلى السخرة :

الفتى يعمل في المزرعة الملحقة بالمدرسة أو التي تعهدتها إدارة المدرسة ، أو يعمل في مصانع تجارية ، أو مناجم فحم ، أو ورشات بناء . وعند الحاجة قد يحفر قبرا لرفيقه .

أما البنات فيسفن إلى الخدمة والغسيل والتنظيف ومشاكل الخياطة .

خلال فصل دراسي واحد في مدرسة Fort Stevenson (من المصادفة أن كل هذه المدارس تحمل أسماء حصون عسكرية أوقديسين) ، سُخر ٣٨ تلميذا (أعمارهم بي الثامنة والرابعة عشرة) لقطع وتنجير ٣٠٠ سارية خشبية ، ولتسوير عشرين فدانا من المراعي ، ولقطع وتكسير ٢٠٠ كورد من الحطب (٢٥٦ ألف قدم مكعب) ، ولتخزين ١٥٠ طنا من الثلج ، ولاستخراج ١٥٠ طنا من الفحم الحجري ignite coal^(٧٣) .

ما أنتجه تلاميذ مدرسة شيلوكو Chilocco (أو كلاهو ما) في مخبز المدرسة كان من معجزات

«ثروة الأمم». ١٢ تلميذا في هذا المخبز، كانوا يتتجون أسبوعيا ألفي رغيف خبز، وألفي كعكة حلوة buns، و ٩٠٠ كعكة بقرقة، و ٢٢٠ فطيرة، و ٩٠٠ قطعة من كعك الزنجبيل (الجنجر)، و ١٨٠٠ قطعة من خبز الذرة.

أما في المغاسل فكانت تلميذات المدينة يغسلن في الفصل ٥٧٤ ألف منشقة، و ٩٨ ألف شرشف، و ٣٥ ألف قميص، وعشرات آلاف قمصان النوم nightgowns والوسائد والسراويل الطويلة (٧٧).

وفي مدرسة Genona Indian School حيث المنطقة زراعية ويحاجة إلى أقنان، كان تلاميذ المدرسة يتولون كل الأعمال الزراعية في مزرعة مساحتها ٣٠٠ فدان، وفي Haskell ٦٠٠ فدان^(٧٨).



برغم كل هذا الإنتاج الذي در على إدارة المدارس أربعة أضعاف نفقاتها السنوية، ظل طعام هذه المدارس على مدى أكثر من مئة عام يقتصر على (أ) الخبز، (ب) الحساء، (ج) البطاطا المسلوقة. كل الدراسات التي أجريت لاحقا بينت أن معدل وزن التلميذ في مدرسة التمدين أقل بـ ٣٥ بالمئة من الوزن الطبيعي، وأن ميزانية طعامه تعادل ٢١ بالمئة من ميزانية مدارس الزنابير. ثم تبين لاحقا أن ٩١ بالمئة من هؤلاء الأطفال عانوا من سوء التغذية dietary deficiency التي لم يتوفر فيها الحد الأدنى من الاحتياجات الصحية^(٧٩).

وملف التغذية، يضم أمثلة لا نهائية عن خيرات التمدين. منها مثلا، أن طفلة في التاسعة وجدت دودة في حسائها، فأمرتها الراهبة بأن تبلعها (٨٠) وتشكر الرب على نعمائه، وطفلة ثانية استقرغت في صحنها فأمرها الناظر بأكل ما استقرغته^(٨١).



كان التعذيب النفسي والجسدي، كما يصفه تقرير رسمي صادر عن الكونغرس «مستفحلا» في هذه المدارس^(٨٢). وكان يشمل التعرية، وتقيع الرأس، والتحرش الجنسي، واستخدام الكلاب، ومعظم تلك الفظائع «الغريبة عن الأمة الأميركية، والتي يرتكبها، من حملة تمدين إلى أخرى، أفراد «شاذون» دون علم رؤسائهم».

وكان أساتذة التمدين يتلذذون بتعذيب أطفال الهمج بسبب أودون سبب، كعلك العلكة،

والتلکؤ في العمل ، ومراسلة الأهل . لكن أخطر الجرائم كانت تتمثل في الحديث باللغة الأم . في مدرسة Alberni Indian School ضُبِطت مجموعة من التلاميذ وهم يتحدثون فيما بينهم بلغتهم الأم فعوقبوا بغرس إبر خياطة طويلة في ألسنتهم لمدة نهار كامل ، وعوقب آخرون في مدارس أخرى بتسميط اللسان بنار الولاغات ، أوباستخدامه منفضة سجاثر^(٨٣) . كل ذلك برعاية طواويس «مكتب الشؤون الهندية» .



لحظة فك الأغلال من يد الطفل ، تبدأ «إعادة الهندي لإعادة خلقه من جديد» ، فتحرق ثيابه وخصوبياته أمام عينيه ، وسط مشاعر القرف والاشمئزاز ، وكلمات ألطفها «الهندي القذر dirty Indian . ثم يحلقون شعره ، ويعلمونه أن الشعر الطويل الذي يعتز به الهنود هو من رموز الهمجية (فلا يتناسب مع البتطلون ولا مع الجيوب) .

الخطوة المباشرة بعد ذلك هي تغيير اسم الطفل من اسم هندي ثقيل على السمع واللسان إلى اسم إنكليزي موسيقي طنان ، يُختار عادة من أسماء ألحان نجوم الفن والأدب والعلم والسياسة (٨٤) ليوهموه (أويوهموها) بأنه لم يبق بينه وبين أن يصبح واحدا من هؤلاء العظماء سوى أن «يُهَضَّم» ويحتقر هنديته .

ويبين مفوض هندي Thomas Morgan طبيعة ما يجب أن يتعلمه الطفل ليصبح متمدنا ، فيقول :

«لأبد من غرس محبة الدولة الأميركية في عقله وقلبه . عليه أن ينظر إلى الولايات المتحدة كوطن صديق ضحى من أجله ، وأعطاه الكثير . عليه أن يتخذ مثله الأعلى من أبطال التاريخ الأمريكي (الذين أبادوا شعبه) ، وأن يعتز بما أنجزوه . عليه أن ينسى ما يقوله أهله عن البيض (الزنايين) ويعرف أن ما حصل كان لمصلحته»^(٨٥) .

أكثر من عشر سنوات يقضيها الطفل في المدرسة التي تضرب ستارا حديديا بينه وبين أهله وثقافته وتاريخه وأخلاقه . ومع هذه التعرية الكاملة من هنديته ، يبدأ تدمير أعظم وأخطر . أوله حرمان هذا الطفل الهندي كليا من الحديث بلغة أهله ، لغته الأم ، أو معرفة أي شيء عن طوقسه الروحية (التي أصبحت اليوم لسخرية القدر a la mode ، يتباهى بممارستها جيل ما يعرف بالعصر الجديد New Age . وكان «مكتب الشؤون الهندية» قد أصدر قرارا يقول فيه : «يجب

إجبار التلاميذ على أن يتحدثوا فيما بينهم بالانكليزية ، ويجب توبيخهم ومعاقبتهم إذا لم يتقيدوا بذلك^(٨٧).

مع تقدم الدراسة يتعلم الطفل ما يسمى بدروس المواطنة lessons of citizenship ودروس الحضارة lessons of civilization و«الأخلاق» و«الدين» و«اللغة»، وهي مفاهيم يعرف السيد الزنور أنها لا تتماسك وتقف على قدميها إلا بعد تشويه وتدمير مواطنة وأخلاق وحضارة ودين ولغة هؤلاء الأطفال، ويعرف أنها لن تنجح في ذلك إلا بعد تدريب هؤلاء الأطفال على استعمار أنفسهم. فلكي تستكمل «فكرة أميركا» أهدافها النبيلة، فإن على ضحاياها من كنعان المجاز إلى كنعان الحقيقة أن يؤمنوا عن قناعة بشرعية وأخلاقية ما جرى لهم، وبأن إبادتهم كانت لصالحهم ولصالح الحضارة الإنسانية. لم يعد يكفيهم أن يكونوا عبيدا، بل إن عليهم أن يرضوا بهذه العبودية ويحبوها ويدافعوا عنها بالفهم الملائم.

الهوامش

١. Russell D. Buhite, Calls to Arms, (Scholarly Resource Inc, Wilmington, Delaware, ٢٠٠٣).
٢. «القبسوس» لقب فخري اتخله المستعمرون الإنكليز الأوائل للعالم الجديد.
٣. عنوان كتاب لنوماس مورتن Thomas Morton، نشره عام ١٦٣٧. و«كنعان» هو أحد الأسماء التي أطلقها المستعمرون الإنكليز على أميركا.
٤. Russell D. Buhite, Calls to Arms, p. xv.
٥. من الاعتراضات الكثيرة على لغة الرئيس الحالي أنه أدخل إلى قاموس اللغة الرسمية كلمات وعبارات مثل «goddamn bitch» و«tassholes» وكثيرا غيرها. وقد اعتاد على رفع أصبعه الوسطى «flashes the middle finger» في وجه الصحافيين حين يعرجونه بالأسئلة، وله صور كثيرة وهو يفعل ذلك. انظر: Doug Thompson, Bush's Obscene Tirades Rattle White House Aides, Capitol Hill Blue, Aug. ٢٠٠٥، ٢٥٤.
٦. The Rhetorical من أفضل الدراسات عن تطور لغة الخطابة لدى الرؤساء الأميركيين من عهد الآباء المؤسسين إلى أيام ريفان كتاب منشورات برنستون، ١٩٨٧) حيث لا يستطيع القارئ معه إلا أن ينحني لإجلال Jeffrey K. Tulis بلغري تولى Presidency لمعقبة نقاق اللغة الإنكليزية الرسمية.
٧. معظم الطلاب الفقراء الحاليين يستقبل أفضل في وطن لا يقل ممثل القسط الجامعي فيه عن ٢٥ ألف دولار في السنة يصطادهم بحمار الموت، فيفرونهم بدفع تكاليف دراستهم لقاء استعصانهم إلى أول حرب خيرية. ولطالما قتل كثير من هؤلاء أو أخطبوا قبل أن يتخرجوا. لهذا لم أتفاجأ مع بداية العام الدراسي الجديد أن أجد على لوحات الإعلانات في الجامعة، بل على جدران أبنائها وأروقها الطويلة أوراق نعي، أو أوراق احتجاج، أو ملاحظات يقول أحدها على لسان طالب جنيني يعمل بتدقيق ويقفز خائفا في حقل الغمام، بعد أن يعيش وجوده في ساحة الحرب بأشبع الشتام: «لم ألتحق [بالمسكينة] إلا من أجل الدراسة what the F... am I doing here. I am only joined up for college money».

وما عرضه مايكل مور في فيلمه الوثائقي «مهرنهايت ٩ / ١١» من حيد الأطفال الفقراء لتجنبهم في حروب «ثروة الأمم» ليس إلا لقارة من بحر. فقد كشفت حركة MoveOn للمادية للحرب على موقعها MoveOn.org كيف أن البياتيون يتهك القوانين الأميركية لهذا الهدف، وكيف أوكل إلى شركات خاصة (يعلم الله من يملكها) مهمة التجسس على سجلات المدارس الثانوية وكشف المعلومات الخاصة جدا عن ٣٠ مليون مراقق (مثل رقم القسم الاجتماعي، والاندماج العرقي، والحداد الاجتماعي/ الدخل، والسلوك في المدرسة، والمراسلات عبر البريد الإلكتروني... الخ) لدراساتها وترشيح المناسب منها للصيد. وهذا ما دعا عددا من الأبحاث إلى تشكيل جمعيات خاصة تنادي بحماية أطفالهن من تجار الموت، لمل أعضائها جمعية Leave my Child Alone حلوا عن ولدي».

٧- «فكرة أميركا» هي الترجمة الأنكلوسكسونية لأسطورة إسرائيل التاريخية، وهي تقوم على ثلاثة عناصر: (١) احتلال أرض الغير، و(٢) استبدال سكانها بسكان غرباء، أو استبعاد من يعض منهم على الموت، و(٣) استبدال ثقافتها وتاريخها بثقافة المحتلين الغرباء وتاريخهم. هذه الفكرة هي التي أرست الثوابت التاريخية الخمسة التي رافقت كل تاريخ أميركا: (١) اللعن الإسرائيلي للأميركا، و(٢) عقيدة الاختيار الإلهي والتفوق العرقي والثقافي، و(٣) الدور الخلاص للمالم، و(٤) قدرة التوسع اللاتهامي، و(٥) حق التصحية بالأخر. WASPs هي الأحرف الإنكليزية الأولى للـ White Anglo-Saxon Protestants البيض الأنكلو-سكسون البروتستانت، أو ما يعرف بالزنابير.

٩- «I use them for ass wipes...» عبارة لريتشارد وايتسل Ritchard Whitesell مدير مكتب الشؤون الهندية قائلها للمهود الذين جاءوا لذكروهم بالملامعات. راجع القصة ومرجعها في متلومدم سام، خير المكش، منشورات رياض الرئيس ٢٠٠٤، ص ٦٢-٣.

١٠- جاء وصف البينيين بذلك على لسان أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي. راجع القصة كاملة في: ١٠- Gavan Daws, Shoal of Time: A History of Hawaiian Islands (Honolulu University of Hawaii Press, ١٩٨٨), p. ٢٩٠. ١١- Mark Twain, Following the Equator: A Journey Around the World (New York: Dover ١٩٨٩), p. ١٨٦.

١٢- معظم من يُستَـوَن بغيره experts العالم العربي في وسائل الإعلام ووزارة الخارجية لا يعرفون العربية ولا قرأوا كتابا عربيا واحدا، ولا زاروا بلدا عربيا (إلا في مهمات سريعة) أو تحدثوا مباشرة مع أبنائه. يكفي الواحد منهم أن يدرس سنة أو سنتين في هذه اللغة العامية أو تلك حتى يفلسف لك العالم العربي الإسلامي ماضيا وحاضرا ومستقبلا، ويسمى خبيرا، ويؤلف كتابا من «العقلية العربية والعقلية الإسلامية». وبعض من هؤلاء الخبراء نساء لم يفلح زواجهن من العرب فتحولن إلى خبيرات. ١٣- American: Mummies and Moslems (Hartford, Conn.: Charles D. Warner, ١٨٧٦)، ١١٩. ١٤- David Spurr, The Rhetoric of Empire: Colonial Discourse in Journalism, Travel Writing, and Imperial Administration (Post-Contemporary Interventions), (Durham, N. C.: Duke University Press, ١٩٩٣), p. ٣١٠.

«وعبارة «جنتنا لنحرمكم لا لنستعمركم... ولا طمع لنا في أرضكم» التي سمعها من القواد الإنكليز أهل العين والهند وأثريا، سمعتها أيضا من كل الأصفياء، من «الصديق» الجنرال اللنبي في القدس (١٩١٧) و«الصديق» الجنرال F. S. Maude في العراق (١٩١٧) إلى «الصديقين» بليز ويوش.

١٤- «لرئيس تودور روزفلت مؤلم جغرافية المجهال التي كانت في مرحلة الزحف نحو الغرب قصرا على بلاد الهند ففسد إليها معظم قارات العالم وقال أنها «كواب من قبل التاريخ» مستعبرا ذلك التعبير من معاصره. جوزيف كونراد Joseph Conrad، راجع: Archibald Roosevelt ed., Theodore Roosevelt on Race, Riots, Reds, Crime (West Sayville, New York, ١٩٦٨)، p. ١١٩.

ولعلنا لسخر روزفلت من فكرة «أن تبقى قارات الأرض مرثما لتقبل مبهرة ومتوحشة تكاد لا تختلف حياتها وتوحشا وحفارة ولا معنى من حياة الوحوش التي ترتع منها».

Theodore Roosevelt, The Winning of the West (Lincoln University of Nebraska Press, ١٩٩٥) vol III, p. ٤٤.

١٤- ب- انظر الحاشية رقم ٧.

١٥- جاء ذلك في فيلم وثائقي من «الإعلام الأميركي» والقضية الفلسطينية عمله مخرجان أميركيان يهوديان، أثنى عرضه في كل العالم الناطق بالإنكليزية. الفيلم هو:

Peace, Propaganda and the Promised Land: U.S. Media and the Israeli-Palestinian Conflict
(The Media Education Foundation).

ويمكن الحصول على الفيلم من www.mediaed.org

Owen Wister, *The Virginian* (New York: Viking Penguin, 1988) p. ١٦١.

وفي أدب وستر Wister صانع أسطورة الكابوي البطولية، أحاجيب من عبقرية الأنكلوسكسون في مسح الكائنات. إنه هونظيره Fenimore Cooper صنعا معظم أساطير الغرب الأمريكي وبطولات فئوره التي كانت تزحف فوق أرواح الهنود. وليس من الموكد ما إذا كان وستر قد أتاد من عبقرية تيودور روزفلت في *The Winning of the West* لكنه بالتأكيد يفتي معه في كثير من التفاصيل.

١٧- يحضر الله بين الحين والآخر إلى البيت الأبيض ليسي وحلفه بالحدث مع هذا الرئيس الأمريكي أوندك، وكثيرا ما يطلب إلى الرؤساء قبل أن يؤدعهم هداية هذا الشعب الوثني أوندن ذلك الشعب الهامجي. وقصة حديث وليم مكثلي أوجورج بوش مع الله في البيت الأبيض ليست مستثالية، راجع

William Drinnon, *Facing West ...* (University of Oklahoma Press (Norman and London. ١٩٩٧)، p. ٢٧٩.

ولن يرغب في معرفة المزيد عن زوار هذا البيت اللذين ينسلون ليلا إلى متاحف الرؤساء، أومن الأطفال غير الشرعيين الذين فجني عليهم، أنصح بقراءة

Shelly Ross, *Fall from Grace: Sex, Scandal, and Corruption in American Politics from 17٠٢ to the Present* (New York: Ballantine Books)

Josiah Strong, *Our Country: Its Possible Future and Its Present Crisis* (New York: Baker, 18٨٠ and Taylor, 1٩٦٦), pp. ١٤١٥.

أثناء التحضير لفرز كوريا، أخفى بعض الجنرالات على هذا التناغم بين «القدر للتجلي» وبين «طروء الأمم» بعدا أخلاقيا يقتر شفقة على الطبقات الدنيا من أقتان المزارع وصيد المصانع اللذين سيضطفون لمار فتح ما كان يعرف بمملكة هرمت Hermit Kingdom. من ذلك ما قاله الجنرال Robert Shufeldt: «إن لك إلتانجا المبتاعي والزراعي يهضي من حاجتنا، وعليا إما أن يفتن مملكة هرمت ونصير هذا النافض من الإنتاج إلى أسواقها، أورتا سنضطر إلى ترحيل البشر اللذين صنوا هذا الفاض».

Chales Camble, Jr., *The Transformation of American Foreign Relations, 1٩٠٠-1٩٦٥* (New York, Harper And Row, 1٩٧٦), p. ١٠٩.

١٩- في كتاب له بعنوان *The Law of Civilization and Decay*, وقد كان لظرفيته تأثير كبير، خاصة وأنه كان حفيدا للرئيس الأمريكي السادس شارلز كويش آدامس.

٢٠- Brook Adams, *America, Economic Supremacy* (New York: Macmillan, 1٩٠٠)، p. ٧٢، ١٣٣، ١٣١.

٢١- وفي هذا يقول مارك توين: إن الأبيض ظلما يربدون الخير عندما يتشلون سمكا بشريا من المحيط ويحاولون تشيئه ولتلك وإسماعه وإراحته في فن الدجاج!

Following the Equator, p. ٢٦٧.

٢٢- ولتائق من لحم الحنزير مقطعة من مؤخرته وجنياته، تُلحف وتُثقف، وتعتبر أشهى ما في مائدة القصور المحصري.

٢٣- الشاهد من الصفحة الأولى في الملجد الأول من *The Winning of the West* السابق ذكره. وكان روزفلت حينما حل من هذه القارة الأفريقية التي أصبر المستعمرون على وصفها بالسوداء يحلم باليوم الذي سيتمكن فيه هذا المكان ويسكنه الأنكلوسكسون. راجع

Theodore Roosevelt, *African Game Trails: An Account of the African Wandering of an American Hunter-Naturalist* (New York: Scribner, 1٩1٠), p. ٢.

٢٤- للمصدر السابق، ص ٤٠٥. وكان روزفلت يدهو إلى إعطاء فلسطين كاملة لليهود وإقامة دولة فلسطينية عاصمتها القدس. *Letters of Theodore Roosevelt* (Harvard University Press, Cambridge, 1٩٥١-٥٤)، pp. ٨، 1٣٥٩، ١٣٧٢.

٢٥- George Stocking, Jr., *Victorian Anthropology* (New York: Free Press, 1٩٨٧)، p. ١٨٥.

٢٦. John Fiske, *The Progress from Brute to Man*, North American Review, Oct, ١٨٧٢, p. ٢٥٥.

٧٧- من خطبة للمستشار ألبرت بارفج Albert Beveridge, عن منير المكش، تلمود العم سام، ص ١٦٩، الحاشية رقم ٢.
٢٨. Charles Darwin, *The Descent of Man and Selection in relating to Sex*, (Princeton, N. J.: Princeton University Press, ١٩٨١), p. ١٦٨.

٢٩- أفضل مرجعين من حية فالتون وأعماله في هندسة الذكاء المصري وفي نذر حياته لفضل الجوهره الأنكلوسكسونية:
(A) D. W. Forrest, Francis Galton: *The Life and Work of a Victorian Genius* (London, ١٩٧٤).
(B) F. Galton, *Memories of my Life* (London, ١٩٠٨).

٣٠. pt. ٦٥, ١st sess., vol. ٦٨th Cong., Congressional Record, p. ١٩٧٤, ٥٦٤٨.
٣١. Alexander Saxton, *The Indispensable Enemy: Labor and the Anti-Chinese Movement in* (California: University of California Press, ١٩٩٥), p. ٢٤٧.

٣٢- أحجب ما في هذه الحملة العربية/ الإسلامية للشموه على أفكار «النقاء العرقي» أو «النهضة» لدى صامويل منتجنون أنها أعطت «فكرة أميركا» نفسها هامشا من البراءة، بل حوّلت الأنظار عن أهدافها حين اقتلعت أفكار منتجنون من سيئاتها واقتطعت من جلورها. فهذه الأفكار المصرية المستمدة أصلاً من «هبة الاختيار» ليست من اختراع هذا الكاتب ولا يضره وحده اليوم برغ وإيهاب أولادها إليها. هذه الفكرة أبحرت إلى أرض كتمان في سفن الفزوال الأولى، وولفت مسيرة الامبراطورية من جيمس تاون إلى مانيتا، ومن مانيتا إلى فينيتام فزاي جيكور. وما أكثر السجلات للوفقة لها في كل محطة من محطات زحفها القدي حول كوكب الأرض منذ «العهود» الأول الذي قطعته «الحجاج» مع الله سنة ١٦٢٠ على متن سفينة ماي فلور حتى اليوم. هذه الفكرة محور مركزي في كتابات المستعمرين الأوائل مثلما هي اليوم محور مركزي في أحياء الليبشتات العرقية وأبراق النزعة الإمبراطورية. هناك الكثير عن لا يزالون في العالم الزنويدي من سبيلتي إلى واشنطن يعيشون في عصر للماموث والديناصورات ويمتدنون مثلاً بأن المرش الإنكليزي هو عرش داود، وأن الزناري هم شعب الله حقا، وأن الله نفسه كما كان يرى أوليفر كرومويل رجل إنكليزي. أحجب «ما بعد - حداثية» كثيرة من هذا الجنون والآفات الرجسية وعبادة الذات في الاعتقادات الشعبية كلها تؤكد مستويات مختلفة من لغة التعبير والمتاهج والتبريرات بأن تصميم الله لسبيل الإنسانية يعتمد كلياً على الأنكلوسكسون، ومن الواضح أن هؤلاء - ومنتجنون نقطة في خضهم - لا يكون بمصادرة أرض كتمان بين هيا لأنفسهم بل يريدون أن يصادروا العالم بكل ما يعني ذلك من مصادرة حق تقرير مصير الحياة والموت والرزق والخبرة. لكل من هذه من عباد الله. ما يعني هنا ليس الاعتقاد نفسه بل ما ترتب عليه اجتماعياً وسياسياً، وما جرّ على الإنسانية من ويلات. لا خاطر ليس في الاحتفاء بالمجرد بل في تعاون جنرالات «مكدونالد» ومكدونالد ودولاس» على تحويل هذه المفردات إلى معجزات. إن هاجس التلوث العرقي الذي يملأ مغفلة منتجنون بالكوايس كان أيضاً يملأ مغفلة الذين كانوا يتلذذون بحرق الهنود أحياء، ويصفون إحراق القرى وأهلها بأنه «حقتات شواء (باريكوي)، وهو أيضاً ما كان يعتقد زناير أستراليا والمهاقرتون Afrikaners واليور Boers البيض مستعمرو جنوب أفريقيا، بل هولندي حسم في الكونغرس مسألة عدم ضم الفلبينيين بعد احتلالها إلى الولايات المتحدة خوفاً من التلوث العرقي.

هذا الاهتمام الساخن بكتابات منتجنون ويجل «حوار الحضارات» الذي تتولى كبره ورفع درجات حرارته بعض مستعمرات الخليج بالانفاق مع دوائر وزارة الخارجية الأميركية، وتستجر إليه كثيراً من أصحاب المحاسنات البلهاء للأخذ واللعطة مع مغلوب وعقول أميركية متفتحة مثل مارتن إندلينك وييل كليتون مشير للرعية فعلاً، لا لأن هذه الحوارات تقبل عن عمد وعن سابق تصميم كل هذه القيامة إلى سوء تفاهم أشبه بالحلاف على نوافض الضوء، ولا لأن هناك تعمداً في إخفاء خنجر القاتل في سيفونيات يتوغلن وإضفاء صفة الحصارا العرقي على كل جرائم ما فيها طروء «الأمم»، بل أيضاً لأنه ليس لهذه الكتابات البرويغندي الذي يضر الولايات المتحدة أكثر ما يضرها وزن علمي أركاديي في أميركا. إنه برغم حقوته الكبيرة لدى المؤسسة الحاكمة وأصحاب الأحلام الإمبراطورية التي مولت كتبه ونشأته (مؤسسة سميث ريتشاردسون Smith Richardson Foundation المرتبطة بنشيني وديسفيلد وزينويوزنسكي مثلاً هي التي مولت كتابه الأخير *Who Are We*؟) يُعتبر كتاباً هامشياً تافهاً في الوسط الثقافي الأميركي. وعلمنا أن نذكر أن كل طلبات انتصاه إلى الأكاديمية الوطنية للعلوم في الثمانينات وفضت لهذه الأسباب، وكان الرفض دليلاً يقرن برصمه pseudoscientist كتاباً مشموزاً. يبقى أخيراً أن مقولة النقاء العرقي الأنكلوسكسوني وهي المقولة التي ينسج حولها هورالز ناير كل دواهم مقولة قاسدة علمياً. فالأنكلوسكسونية كيان بيولوجي لا أساس لها في الدراسات العرقية الجادة، وكل الذين حاولوا الترويج لها كانوا بشيرون إلى ذلك الحائط المجهن من السلت والفانكفنز والجرمان الذين كانوا يسكنون الجزيرة البريطانية، ثم عمومهم في أميركا على القوقاز البيض من الناطقين بالإنكليزية.

- ٢٣- أنظر من ٤٢٥ و ٤٢٦، طبعة Library of America، عام ١٩٩٣ .
- ٢٤- هلما ما قاله الثعالب فريدريك ريمنتون Frederick Remington سليل أحد قدامى للوحة الاستعمارية الأولى ليونانت جون ريمنتون. ويعتبر من رموز الوطنية الأميركية لمنصواته مجدت أسطورة الكاويوي وجسدت بطولات الحزب نحو الغرب، وتباع نماذج مصممة منها للمغلفين في متاحف الوطنية ودكاكين السياحة. والشاهد نقلا عن:
- Frederick Pike, *The United States and Latin America: Myths and Stereotypes of Civilization* and Nature (Austin University of Texas Press, ١٩٩٢), p. ١٧٩.
- Philip Tayler, *The Distant Magnet: European Emigration to the U. S. A.* (New York: Harper, ٢٥ and Row, ١٩٧١), pp. ٧٢-٧٣.
- Elmer Sandemeyer, *The Anti-Chinese Movement in California* (Urbana University of Illinois, ١٩٧٣), Press, p. ٤٢.
- ٣٧- نيويورك تايمز، ١ تموز/ يوليو، ١٨٧٠، والكلام منسوب للجنة مظاهرة زنبورية ضد الصينيين في نيويورك.
- Gwendolyn Mink, *Old Labor and New Immigrants in American Political Development*: ... ٢٨, (Ithaca, N. Y.: Cornell University Press, ١٩٠٩), p. ١٠٩.
- ٣٩- ٤٥- عدد يونيو/ حزيران ١٨٩٧ .
- ٤١- ليست لدي معلومات مؤلفة من عدد سكان أستراليا قبل غزو الزنابير. ما أعلمه هو أن المنطقة التي تسمى اليوم بالولايات المتحدة كان فيها أيام كولومبس أكثر من ٤٠٠ أمة وشعب، وأن عددهم بحسب أبحاث أجراها علماء من جامعة بيركلي هو أكثر من ١٨ مليون إنسان، لم يبق منهم في إحصاء استئرفة القرن العشرين سوى ٢٣٧١٩٦ مرشعا للموت. أما تقدير عدد سكان أميركا كلها أيام كولومبس فين ١١٢ و ١٢٥ مليونا. راجع في ذلك:
- Henry F. Dobyns, *Their Number Became Thinned: Native American Population Dynamics in Eastern North America*. (Knoxville: University of Tennessee Press, ١٩٨٣), p. ٤٢.
- وتبلغ مساحة الأراضي التي انحصرت في شمال أميركا وأستراليا (٢٥٩٩٧٨١٠ كلم)، أي ما يعادل ١٠٧ مرات حجم بريطانيا ومها كل الممالك المتحدة. هذه الأراضي للتهوية من أهلها أكبر بمشرات الأضعاف من الأراضي التي غزاها التاتار والنازيون مجتمعين.
- Mark A. Kishlansky, ed., *Sources of World History, Volume II*, (New York: Harper Collins, ١٩٩٥), College Publishers, pp. ٢٦٦-٢٦٩.
- وفعلنا، لو قلنا للزنابير أن يصلوا بحرب الأفيون إلى ملها كما وصلوا بحرب الجرائيم في العالم الجديد إلى ملها، لما كان غريبا أن نسمع اليوم أن الصين - ولقد كان فيها ٤٠٠ مليون إنسان أيام حرب الأفيون - كانت مجاهل خاوية، وأن سكانها كانوا مجرد قبائل متوحشة يعيشون في الكهوف والغابات ويعت في رأسهم الريش والحشيش.
- ٤٣- لادم سميت كتاب بهذا العنوان نشره في عام ١٧٥٩ .
- ٤٤- Lewis Henry Morgan, *Ancient Society*, (Cleveland: World Publishing, ١٩٦٣), p. ٦.
- ومورغان (١٨٨١-١٨٨١) أول من كتب دراسة واقعية عن نظام العائلة الهندية. كان من للمبشرين ببعثة الهنود، ولقد انضم إلى شعب سينكا وحاش معهم واتخذ لنفسه اسما هنديا هو تايا نامك Tayadaowukuh، بل إنه مضى إلى الكونغرس لينالغ عنهم علما بدأت شر كانت سكك الحديد تفتقر لأراضيهم.
- وكان الرئيس وليم هورلد نافث قد رجع فكرة تكليس الثروة واكتناز المال إلى مرتبة الفضيلة في خطاب ألقاه في هاافانا -والمكان خردلالة كبيرة في حرب التسمين- أثناء افتتاح جامعتها الوطنية، عام ١٩٠٦. راجع:
- Frederick Pike, *The United States and Latin America: Myths and Stereotypes of Civilization* and Nature (Austin University of Texas Press, ١٩٩٢), p. ١٤٧.
- ٤٥- يقول نشيد الجنود في الفيليبين: «اللغة، اللغة، اللغة، اللغة على الفيليبين/ لصوم قراصنة شيايب الحفاكي فالتخوا في حناجرهم/ تحت الراية [الأميركية] المفلانة بالنجوم/ مَنفُومهم يندنية/ وأعيدونا إلى وطننا الحبيب».
- !Damn, damn, damn the Filipinos
!Cut throat khakiac ladrones
Underneath the starry flag

، Civilize them with a Krag

، And return us to our beloved home

٤٦- لم يكن لدى الزنابير مانع أن يعلن الهنود دولتهم أولادهم، بل إنهم هم الذين اقترحوا عليهم تسمية هذه المقامات المبعثرة مدولة، فليس في الاغانيات ما يمنع ذلك، كما قال روبرت ووكر Robert Walker حاكم مناطق كنساس. راجع:

Charles J. Kappler, Indian Affairs: Laws and Treaties (Washington D. C., Government Printing Office, 1904), vol. 2, pp. 706-73.

٤٧. 1864, 30 Western Journal of Commerce, July.

٤٨. 3126-3120, pp. 36, 1st sess., 39th Cong., Congressional Globe.

٤٩. 1860, 20, Kansas Tribune, September.

٥٠- هناك قصص كثيرة مشابهة نجدها في الصفحات 146-158 من:

s Indian: Images of the American Indian from Columbus من Robert Berkhofer. The White Man (New York: Vintage, 1978), pp. 146-158.

وللمعالم الوطنية بين التبشير ووزارة الدفاع راجع:

Baton 1993-1942, Ann C. Loveland, American Evangelicals and U. S. Military

١٩٩٦, Rouge and London: Louisiana State University Press.

٥١. (1900, Arthur Smith, Chinese Characteristics (London, Oliphant, Anderson, and Farrier. 178, p.

٥٢. (1899, Arthur Smith, Village in China: A Study in Sociology (New York: Fleming H. Revell. 346, p.

٥٣. s Indian, p 173 من Berkhofer, The White Man.

٥٤. Kirk Kicking Bird and Karen Ducheneaux, One hundred Million Acres (New York, Macmillan. 1973, والمعنون كالف وال

٥٥. Appendix, pp. 22, 23, Cong., 33rd sess., 1913.

٥٦- مما لا شبهة البشر مثلاً أن الأسلحة النارية تفرض الاحترام والهيبية وتجبر الوثنيين على أن يكونوا عاقلين معنا خوفاً من هوابب الشغب والتمرد الذي هاولت للحتم. هذا شاهد واحد من للشواهد الكثيرة التي يوردها Michael Adas في Machines As the Measure of Men: Science, Technology, and Ideologies of Western Dominance (Cornell Studies in Comparative History) Ithaca, N. Y.: Cornell University Press, 1989, pp. 160-161.

والكتاب يقرأ من خلاله الأحمر للزمن بصورة بالأبيض والأسود لقطار يمر قرية مهيبة ويقت دخانه الأسود في أجوائها، بينما يهبط على الأرض قرباً من خمسة رجال مهيمن يحملون فيه بوشة. ومن الواضح أن هذا اللقاء بين الحضارة والهيبة يتم في قرية يفترض فيها أن تكون عربية أو مسلمة.

٥٧. Annual Report of the Commissioner of Indian Affairs, National Cash Register Microfiche, Edition 3, p. 1864.

٥٨. 410, 409, 392, pp. (107AS) 1873, 33rd sess., March, 42d. Cong., 98 House Report.

كل الرسائل والوثائق التي يضمها هذا الملف تؤكد أن التصرف بأموال الهنود تم بدون استشارتهم. ٥٩- المصدر السابق.

٦٠- من مذكرة ترويجية أعتمدها الحكومة الاستعمارية في الهند، سنة 1840. راجع

Macaulay Prose on Indian Education 1830, Feb 2 Minute of, Thomas Babington Macaulay, 1907, and Poetry, (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1979, p.

٦١- من غير الممكن هنا الاسترسال في قصة طرقة الأمم مع الممازلة الهندية، وكيف أن شر كلات سلك الحديد والاختباب والفحم الحجري والمدان على اختلافها والنظ والغاز نهيت البقية الباقية من أوطانهم وسلبتهم هذا الهاش الرمزي من حرياتهم، ولطمس كل أسطورة سلطتهم الوطنية وسيلتهم واستغلالهم. هذا الاسترسال قد يأخذنا بعيداً عما أتت بصدده هنا، خاصة وأن مراجعه كثيرة ومملة. لقد

راجعت لذلك ما لا يعلم عنده إلا الله من الوثائق في المحفوظات الوطنية National Archives، وفي مركز السجلات الاتحادي Federal Record Center في Fort Worth بنكساس، وفي محفوظات الرابطة التاريخية Kansas State Historical Society لولاية كنساس، ونظيرتها في ولاية أوكلاهوما، ومحفوفات معهد Gilcrease في Tulsa بأوكلاهوما أيضا، إضافة إلى الوثائق الحكومية وأهمها «التقارير السنوية لمؤوض الشؤون الهندية» وسجلات ما يعرف باسم Congressional Globe، ووثائق من مجلسي الكونغرس. وكلها تتعلق بثلث الفترة التي ظن فيها الهنود أن للماعدات هي خاتمة المطاف وأن الاستقلال والسيادة والحرية صارت تحصيل حاصل.

٦٢- المصدر في الحاشية ٥٥.

٦٣- Congressional Globe، ٤٠th Cong، sess، ١٤٤، ٢٨، ٦٨٦-٨٧.

٦٤- كنت قد ترجمت هذه الرسالة ونشرتها مع مقدمة التي في مجلة المستقبل العربي، نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٣، السنة ٢٦، العدد ٢٩٧.

٦٥- ما لقت نظري في حديث واسون تلك الليلة المخصصة لتأبين ضحايا للتلوس الداخلية الهندية وإصراره على الربط بين ماجوي في هذه المدارس التي أفني فيها ريع الهنود التاجين من مختلف أشكال الإبادة وبين تصريح لكونداليزا رايس (يوم كانت مستشارة للأمن القومي) حول ضرورة تغيير العقل العرقي كقلمنة لتغيير العقل العربي. والواقع أنني لم أستطع المنور على هذا التصريح إلا في مقالة واحدة للذكتور طارق علي، لكنني عثرت على عشرات التصريحات والتلميحات الأميركية الرسمية إلى ضرورة إعادة النظر في مناهج التدريس وضرورة استتصال جلود الكراهية في الثقافة العربية السائدة وفرض رقابة على ثقافة المساجد، ووضع حد لما يسمى بعماء السامية في وسائل الإعلام، وبذلك كل مستطاع لتفسير سلوك العرب ونظرتهم السائدة للولايات المتحدة وإسرائيل، بل وعن ضرورة لصفب المواسم العربية بالقتال القوي في حال فشل مثل هذه المحاولات.

Michael Savage، From the May ٢٠٠٤، ١٢ Savage Nation

You know، I can fly an F-١٥، put two nukes on 'em and I'll make one pass. We won't have to worry about Syria anymore. (The crowd roared with applause).

٢٠٠٥، ١٩ Rep. Sam Johnson، R. Texas، Feb

David Wallace Adams، Education for Extinction: American Indians and the Boarding School، ٦٦

١٨٧٥-١٩٢٨، Lawrence: University Press of Kansas (١٩٨٠)، p. ٢١٦

٦٧- هذا السيناريو الذي يرويه تينكر يكاد يكون مثاليا لكل قصص الاختصاب التي جمعت كثيرا من تفاصيلها لتجمع الأمم الأولى Assembly of First Nations في:

Breaking the Silence: An Interpretive Study of Residential School Impact and Healing as Illustrated by the Stories of First Nations Individuals (Ottawa: Assembly of First Nations، ١٩٩٤).

وكذلك في كتاب ذي عنوان يروي القصة كلها: مسروق من أحباتنا: غطف أولاد الأمم الأولى. ٢٠٠٠:

Suzanna Fournier and Ernie Crey، Stolen from our Embrace، The Abduction of First Nations Children... (Vancouver، B. C.: Douglas and McIntyre، ١٩٩٧).

٦٨- من انتحار الأطفال الهنود بسبب إغصابهم في هذه المدارس، انظر الفصل الذي كتبه سي إي إيوت بعنوان: «الانتهاك الجنسي والجنسي للأطفال الهنود في:

David Lester، ed.، Suicide، ٩٢ (Denver: American Association of Suicidology، ١٩٩٢)، pp. ٦١-٦٢.

J. R. Miller، Shingwauk's Vision: A History of The Indian Residential Schools (Toronto: University of Toronto Press، ١٩٩٦)، p. ٣٠-٣٢٩.

Rix Rogers، Special Advisor to the Minister of National Health and Welfare on Child Sexual Abuse، quoted in Toronto Globe and Mail، ١ June ١٩٩٠، report of abuse may be low، expert says.

Suzanna Fournier and Ernie Crey، Stolen from our Embrace، p. ٧١.

The Advantage of Mingling Indians with Whites، Proceedings، Richard Henry Pratt، ٧٢.

- Washington DC : National) . ١٨٩٥ . Addresses of the National Education Association . ٧-٧٦١ . pp . ١٨٩٥ . Educational Association
- Michael . C . Coleman . American Indian Children at School . ١٩٣٠-١٨٥٠ (Jackson : University of Mississippi Press . ١٩٩٧) . p . ٤٦ .
- Christian Parenti . Lockdown America : Police and Prisons in the Age of Crisis (London : . ٧٤ . ٤٤-٧١١ . pp (١٩٩٩ . Verso
- Christian Parenti . Lockdown America : Police and Prisons in the Age of Crisis (London : . ٧٥ . ٤٤-٧١١ . pp (١٩٩٩ . Verso
- . ١٥١ . Adams . Education for Extinction . p . ٧٦
- K . Tsianina Lomawaima . They Called It Prairie Light : The Story of Chilocco Indian School . . ٧٧ . ٦٩ . p (١٩٩٥ . (University of Nebraska Press . Reprint edition . August
- . ١٤٩ . Adams . Education for Extinction . p . ٧٨
- ٧٩- كل هذه الأرقام مستمدة من كتاب «التعليم للإبادة» . أداس . المصدر السابق .
- . ٢٤٩ . s Vision . p من Miller . Shingwauk . ٨٠
- Marilyn Milward . ; Clean Behind the Ears : Micmac Parents . Children and the Shubenacadie Residential School . ; New Maritimes : Mar . /Apr . ١٩٩٢ . p ١١ . ٨١ .
- . ٣٣٢ . ١٢-١١ The Miriam Report (Meriam . et al) . Problem of Indian Administration . pp . ٨٢ . ٥٧٢-٥٧٧ . ٣٩٣-٣٩٢
- Lewis M . Meriam . وهو تقرير أعدته فريق من علماء الاجتماع بإشراف لويس مريم .
- Cella Haig-Brown . Resistance and Renewal . (Vancouver . BC . Canada Tillamoc Library . ٨٣ . ٦-١٥ . pp (١٩٩١
- . ١١٠-١٠٨ . Adams . Education for Extinction . pp . ٨٤
- . ٤٢ . Michael . C . Coleman . American Indian Children at School . p . ٨٥
- . ١٤٠ . Adams . Education for Extinction . p . ٨٦

طه حسين: الثقافة وتوليد الدولة الوطنية فيصل دراج

«لا يمكن اشتقاق مجتمع مدني من مجتمع للعبيد»
توكفيل

دعا طه حسين مبكراً إلى تاريخ جديد للأدب العربي، يتوسل المعارف الحديثة منهجاً، بديلاً عن تاريخ ضعيف قوامه القصص. نقض، في ما دعا إليه، قصصاً مصطنعة بمنهج ديكرتي، فصله واعياً أو التقى به صدفة. وسواء كان تعرفه على فكر ديكرت وافيّاً، أو ألّمّ به بشكل مجزوء، فقد أراد كتابه «في الأدب الجاهلي» أن يقطع مع مناهج التدريس الموروثة، وأن يتنسب إلى ثقافة عقلانية معاصرة، تعرف معنى التاريخ وتشق منه: علم تاريخ الأدب. بعد عشرين عاماً، وفي كتاب «الفتنة الكبرى» - ١٩٤٧ - بقي حسين مشدوداً إلى علم التاريخ، ومشدوداً أكثر إلى إعادة كتابة تاريخ عربي - إسلامي موروث، قليل الحقائق كثير الاختلاق، كما كان يقول. كان، في الحالين، يستبدل بالعادات الذهنية المتواترة مناهج عقلانية في التقويم والاستقصاء، مصرحاً

بالتخلي النقدي عن المعطى ، وبضرورة بنائه على قواعد فكرية تمحو دلالة أو تكاد .

في الفترة الفاصلة بين الكتابين السابقين أنجز حسين ، عام ١٩٣٨ ، كتابه : «مستقبل الثقافة في مصر» ، الذي أراد أن يشتق مستقبل مصر من الثقافة التي تأخذ بها مصر في المستقبل . قال الكتاب ، على مستوى المنظور والمنهج ، بما قال به الكتبان السابقان ، مؤكداً أمرين أولهما : يأتي مستقبل مصر الحضاري ، إن أرادت أن يكون لها مستقبل ، من حاضر الثقافة الأوروبية ، لا من ماضيها العربي - الإسلامي . وثانيهما : إن ماضي مصر الوحيد الجدير بالاستئناف هو ماضيها الفرعوني ، الذي يحيل عليه بنعت : «مصر الخالدة» . مهما تكن مواضع الكتب الثلاثة ، وهي توزع على الأدب والتاريخ والتربية والسياسة ، فإن مطلباً واحداً يمسك بها جميعاً : الانتقال من تاريخ أدبي زائف إلى تاريخ علمي تأخذه الجامعات الراقية ، والانتقال من تاريخ مكتوب مقدس إلى تاريخ علماني لا يحتمل التقديس ، والانتقال من ثقافة شرقية يلتبس فيها الدين بالاستبداد إلى ثقافة غربية ، أساسها المعرفة والديمقراطية . يشكل «مستقبل الثقافة في مصر» ، الذي أثار في زمنه جدلاً صاعخاً ، مع الكتابين السابقين وحدة فكرية متجانسة ، أو قريبة من التجانس ، تروي بأشكال ثلاثة مشروعاً فكرياً واحداً وجديداً .

١ - النظرية بين المعرفة والتخيّل :

وضع طه حسين كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» ، وهو يقع في جزأين من خمسمائة وخمسين صفحة ، بعد اتفاقية ١٩٣٦ التي أعادت فيها بريطانيا إلى مصر جزءاً من استقلالها الخارجي وسيادتها الداخلية . ميّز الكتاب ، منذ البداية ، بين استقلال نافع ينقل البلد المستقل من التخلف إلى التقدم ، واستقلال جاهل يعتقد أن الاستقلال هدف في ذاته . وإذا كان في الكتاب ما يبرهن عن تلك العلاقة بين الفكر الفاعل والمستجدات التاريخية ، فقد كان في موقف الكاتب ، الذي نقلت المعاهدة بلده من طور إلى آخر ، أصداء من كتابه «قادة الفكر» - ١٩٢٥ - الذي يعدد إلى المفكرين بقيادة البشر إلى أرض الحقيقة . وسواء نجح حسين في قيادة مجتمعه ، أم انتهى كتابه إلى غبار الغرف المنسية ، فقد ترك وراء تلك «الرؤيا» الثاقبة ، التي حلزت من «استقلال جاهل» أكثر شراً من «نقمة الاستعمار» .

انطوى الكتاب ، الذي طبع طبعة كاملة وحيدة ، على جملة أسئلة مجالها الثقافة والتاريخ

وسبل الانتقال من ثقافة إلى أخرى. السؤال الأول هو: ما هي الثقافة التي تجعل مصر جذيرة باستقلال لا عودة عنه، تنقلها من ضعف إلى ازدهار، وتعطيها موقعاً لافتاً بين الدول الراقية؟ تصدر الثقافة المنشودة عن حاضر قريب، هو حاضر الثقافة الأوروبية الحديثة، في شكلها الفرنسي تحديداً، وعن ماضٍ بعيد، هو ماضي «مصر الخالدة»، قبل أن يصل إليها الفتح العربي-الإسلامي. يصرح المرجعان الثقافيان المقترحان بتناقض شديد، فهما يتيمان إلى طورين ثقافيين مختلفين، لا سبيل إلى مصالحتهما والتأليف بينهما. غير أن المؤلف يُقِلّ التساؤل، أو يختصره اختصاراً شديداً، طارحاً سؤالاً جوهرياً، لا يمكن الحديث عن مستقبل الثقافة من دونها: هو: ما هي هوية مصر التاريخية؟ أو: ما هو التاريخ الذي أعطى مصر هوية ثقافية تميّزها من غيرها؟ بدأ حسين من سؤال: «من نحن؟»، مقدمة لازمة لجواب «من سنكون؟»، مستأنساً بحكمة سقراط الشهيرة: «اعرف نفسك». شاء صاحب «الأيام» أن يتخفّف من أزمنة تاريخية عابرة، أو كالعابرة، ذاهباً إلى عقل مصري قديم، يستطيع أن يحاور به عقلاً أوروبياً حديثاً، وأن يحاكي ثقافته دون اضطراب كبير.

طرح حسين سؤالاً متعدد الوجوه وأعطاه إجابات قاطعة، تقول: إن مصر، منذ القدم، جزء من الغرب لا من الشرق، وإن العقل المصري غربي التصوّر والإدراك والفهم والحكم على الأشياء، وإن البحر الأبيض المتوسط هو المجال الجغرافي الذي بنى شخصية مصر وهي تبادل المنافع والأفكار مع دول متوسطة أخرى، وإن مصر بعيدة عن شرق من خصاله التعصب والاستبداد، وإن خمول مصر أو خمودها أثر لا اندراجها في الشرق أو انقطاعها عن الغرب... تنتهي الإجابة، في نبرة تأكيدية واضحة، إلى «المعجزة اليونانية»، التي جمعتها مع مصر القديمة أفكار ومصالح وموقع جغرافي، أقامت بين الطرفين تكاملاً واندماجاً وتبادلاً في الأدوار. لن تكون «المعجزة اليونانية»، التي جسدت العقل الديمقراطي القديم، إلا الوجه الآخر لـ «المعجزة المصرية»، فأهل اليونان كانوا تلاميذ المصريين في الحضارة، والعقل المصري شارك العقل اليوناني خصاله، وهذان العقلان الأصيلان سبقا غيرهما إلى الإبداع. لا غرابة أن تصبح مصر القديمة، بعد أن فتح الإسكندر البلاد الشرقية، «دولة يونانية أو كاليونانية»، وأن تصبح الإسكندرية عاصمة من عواصم اليونان الكبرى في الأرض... بل إن «من المحقق أن الثقافة اليونانية قد لجأت إلى مصر فوجدت فيها ملجأً أميناً وحصناً حصيناً وظفرت فيها من النمو والانتشار بما لم تظهر بمثله،

حين كانت مستقرة في أثينا». يشهد التاريخ القديم على يونانية العقل المصري أو مصرية العقل اليوناني، أو يشهد على خصوصية العقل المتوسطي الذي كان البحر الأبيض المتوسط مهداً له. فقد انبثق العقل المصري، كما اليوناني، أصيلاً من ذاته وتطور حراً وأثر، لاحقاً، في غيره، على فراق كامل مع الشرق، باستثناء ما فرضته ظروف طارئة، لم تغتير من طبيعة العقل المتوسطي في شيء».

اعتمد حسين على عبقرية المكان المتوسطي، إن صحَّ القول، وأقام بين العقليين المصري واليوناني مطابقة، أو تناظراً يتأخَّم المطابقة. غير أن معنى هذا التناظر لا يتكشف إلا بالرجوع إلى معنى اليونان، الذي عني به حسين عناية خاصة في مطلع حياته الفكرية، وترجمه في ثلاثة كتب متلاحقة: «آلهة اليونان - ١٩١٩» وصحف مختارة من الشعر التمثيلي اليوناني - ١٩٢٠ - وقادة الفكر - ١٩٢٥». في هذه الكتب، تبدو أثينا القديمة، القائمة على رقعة ضيقة من الأرض، منبع قيم الإنسانية الذهبية، مثل العقل والضمير والحرية، ويبدو فلاسفة أثينا دعاة «الطموح إلى الكمال والارتفاع عن النقص»، يرفضون الرق والامتعباد ويشترطون بذات إنسانية حرة. يتعين العقل المصري، اتكاء على مبدأ التناظر، عقلاً شغوفاً بالعقلانية والحرية، له صفات نظيره المتميز مكاناً وولادة وخصالاً. لهذا «من السخف الذي ليس بعده سخف» اعتبار العقلية المصرية قريبة من عقلية الهند وأهل الصين، أو اعتبار مصر جزءاً من الشرق الأقصى أو الشرق البعيد. لكن «هذا السخف»، بلغة طه حسين، يقبل به المصريون، دون أن يستطيعوا البرهنة عليه أو التحقق منه، معرضين عن «أوليات» تاريخية لها شكل البداهة. يُعالج هذا «السخف»، الذي هو شكل من الجهل أو النسيان الطويل، بالعودة إلى التاريخ اليوناني القديم، الذي هو مرآة أخرى لتاريخ «مصر الخالدة». تصبح قراءة التاريخ اليوناني القديم، بهذا المعنى، مدخلاً لازماً للتعرف على متوسطة العقل المصري، ومدخلاً ضرورياً لاستئناف الحضارة المصرية القديمة، بعد سبات «شرقي» طويل. يضيف حسين، المشغول بنفي شرقية مصر، إلى التاريخ المصري القديم عنصرين متناقضين، أولهما: صوفي يرى مستقبل مصر العظيم امتداداً لماضي مصر العظيم، كما لو كان الفاصل التاريخي بين الحاضر والماضي البعيد غفوة لا يُعتدُّ بها أو خللاً طارئاً قابلاً للإصلاح. وثاني العنصرين برجماتي صريح، بلغة معينة، أو تروبي هادف، بلغة أخرى، غايته إقناع المصري بأن الحضارة الأوروبية المعاصرة، التي عليه أن يعتنقها، ليست غريبة عن أصوله

الحقيقية، إنما الغريب هو تلك «الحضارة» التي سقطت عليه من الشرق. تكون الثقافة الأوروبية المعاصرة، في هذا التحديد، امتداداً تاريخياً للثقافة اليونانية، أي امتداداً للثقافة المصرية القديمة، المستعادة حديثاً بعد اغتراب طويل. وخلاصة القول: «إن طه حسين اشتق مستقبل الثقافة المصرية من أوروبا معاصرة ومن مصر قديمة، ووجد بين الطرفين متكتناً على مجاز مكاني سكوني هو: البحر الأبيض المتوسط».

السؤال الثاني: لماذا يتوهم المصريون اليوم أنهم شرقيون، وما الأسباب التي غيّبت عن عقولهم «أوليات» عن وحدة العقلين المصري واليوناني؟ يأتي الجواب من الظروف السياسية والاقتصادية لا من العقول في ذاتها، التي تظل ثابتة أو قريبة من الثبات، حتى لو بدا أنها تغيرت أو وقعت في سبات طويل. يستهل حسين محاكمته، كي لا يبدو التعليل فجاً أو قريباً من الفعاجة، بتذكير بالقرون الوسطى، التي قطعت بين أوروبا وأسباب الحضارة، أو بينها وبين الفضاء المتوسطي، الذي هو في أساس الحضارة الأوروبية. أتت بهذا القطع غارات «الشعوب المتبربرة»، التي ألقت بأوروبا في فترة مظلمة، أخرجتها منها الأزمنة الحديثة. يعود حسين، مرة أخرى، إلى مبدأ التناظر، مساوياً بين «العنصر التركي» والغارات المتبربرة، وبين الاستقلال المصري والأزمنة الحديثة، كما لو كان لمصر قرون وسطى خاصة بها، أخرجها منها الاستقلال بعد أربعة عقود وأكثر. فقدر «العنصر التركي» مصر «إلى الانحطاط بعد الرقي، وإلى الجهالة بعد العلم، وإلى الضعف بعد القوة، ومحا أو كاد يحو منها أعلام الحضارة، وقطع الصلة بينها وبين أوروبا دهرًا». ليس ما رُدّت إليه مصر من سلب ثقل إلا قطعها مع عقلها المتوسطي، الذي هو عقل أوروبا الحديثة ومصر القديمة في آن. ومع أن حسين يُقرن بين الأتراك والعصور الوسطى المصرية، فإن هذا لا يمنعه، ولو بمداورة، عن الفصل بين العقل المصري والعقل الإسلامي، وعن معادلة «الفتح الإسلامي» بغزوات أجنبية أخرى. فهو يكتب: «والتاريخ يحدثنا بأن مصر قاومت الفرس أشد المقاومة، والتاريخ يحدثنا كذلك بأنها قد خضعت لسلطان الإمبراطورية الرومانية الغربية والشرقية على كره مستمر، والتاريخ يحدثنا كذلك بأن رضاها عن السلطان العربي بعد الفتح لم يبرأ من السخط، ولم يخلص من المقاومة والثورة... ص: ١٧». يصدر المعنى المقصود عن ضيق مصر بالسلطان العربي، ويصدر بوضوح أكبر عن إدراج «الفتح العربي» في غيره من حلقات الاعتداء الخارجي على مصر، وهو ما يساوي، منطقياً، الفتح العربي بالغزو

الفارسي، تارة، وبالعنصر التركي تارة لاحقة.

ينتهي التصور السابق إلى نتيجتين: لم يعزب «الفتح» مصر ولم يدمجها في العرب الوافدين إليها، وكل ما قامت به أنها استضافت، بكرم كبير، الحضارة الإسلامية، مثلما استضافت، في لحظة سابقة، الحضارة اليونانية. تكمل النتيجة الثانية الأولى وتضبط معناها حين تقول: «إن الإسلام لم يغير العقل المصري، أو لم يغير عقل الشعوب التي اعتنقته والتي كانت متأثرة بهذا البحر الأبيض المتوسط. بل يجب أن نذهب إلى أبعد من هذا فنقول مطمئنين: إن انتشار الإسلام في الشرق البعيد، وفي الشرق الأقصى، قد مد سلطان العقل اليوناني ويسطه على بلاد لم يكن قد زارها إلا لماماً». ص: ٣٢٢. يصالح القول، الذي لا ينقصه التناقض، بين العقل اليوناني والإسلام الشرقي، مؤكداً أصالة العقل المصري - اليوناني، الذي يستضيف الإسلام محفظاً باستقلاله، ويقوم بتحويل الإسلام العربي إلى إسلام يوناني. تقرّر المقدمات السابقة أمرين: ليس زوال السيطرة العثمانية عن مصر إلا استعادة العقل المصري ليونانيته ومتوسطيته القديمتين، وليست هذه الاستعادة إلا عودة مصر إلى أوروبا الحديثة، التي هي عقل يوناني في شكل حديث، أو عودة أوروبا الحديثة إلى مصر المستقلة، التي هي عقل يوناني في شكل قديم. إن هذين السبين، ولهما شكل البدهة، هما اللذان يجعلان من ردم الهوية الحضارية بين مصر وأوروبا هدفاً عظيماً ممكناً وسريع التحقيق، وهما اللذان يسبغان على خطاب حسين، وهو يتحدث عن الاستعمار، نبرة الاعتدال أحياناً. تفصح هذه المحاكمة عن تفاؤل لا تعوزه الإيمانية: «لا ينبغي أن يفهم المصري أن الكلمة التي قالها إسماعيل، وجعل بها مصر جزءاً من أوروبا، قد كانت فناً من فنون التمدح، أو لوناً من ألوان المفاخرة. وإنما كانت مصر دائماً جزءاً من أوروبا، في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية، على اختلاف فروعها وألوانها...». كانت مصر، إذن، جزءاً «دائماً» من أوروبا، وكانت أوروپيتها جلية في «كل» وجوه الحياة. تتكفل هذه «البراهين» بمحو سريع لآثار «العنصر التركي»، بلغة معينة، أو يبعث غير منقوص ليونانية العقل المصري، بلغة أخرى، مسوغة في الحالين وهاناً ميسوراً: «ليس في الأرض قوة تستطيع أن تردنا عن أن نستمتع بالحياة على النحو الذي يستمتع بها عليه الأوروبيون»، «وأن تأخذ مصر بأسباب الحياة الحديثة على نحو ما يأخذ بها الأوروبيون في غير تردد ولا اضطراب»، إضافة إلى هذا، فإن «حياتنا المعنوية الآن على اختلاف مظاهرها وألوانها أوروبية خالصة...». لا غرابة، والحال

هذه، أن يكون تفاؤل حسين جماعياً، يقول «حياتنا» في موضع «ونَهضتنا» في مكان أخرى، نافياً ما قال به في روايته «دعاء الكروان»، التي سبقت في ظهورها كتاب «مستقبل الثقافة» بأربع سنوات، حيث في مصر بادية خشنة وريف قريب من البداوة، وحيث فيها قلة قليلة تستمتع بالحياة على النحو الذي يستمتع بها عليه الأوروبيون.

أضاف حسين، الذي اختبر السياسة وكتب مقالة سياسية لمدة عقود، إلى مشروعه التحديثي الصريح بعداً ترغيبياً، يرى إلى جيش مصري قوي وإلى مصر يظللها العلم والمعرفة، محاذراً الصدام متمنياً الإقناع. تجلّت سياسة الترغيب في مس رقيق متفائل لأكثر المواضيع خطورة، كأن يكتب: «وقد استبقيت (في مصر) أشياء من النظم الإسلامية القديمة، لكن كثيراً من التغيير والتبديل قد مسها حتى أصبحت شديدة التأثير بالنظم الأوروبية...»، أو «كل شيء يدل بل كل شيء يصيح بأن الأزهر مسرف في الإسراع نحو الحديث، يريد أن يتخفف من القديم ما وجد إلى ذلك سبيلاً...». هذا الأزهر «المسرف في الإقبال على الحديث» هو ذاته الأزهر الذي كاد، قبل عقد من الزمن، أن يدفع به حسين إلى «الهلاك»، وأجبر صديقه علي عبد الرازق على اعتزال الحياة الفكرية اعتزالاً كاملاً، بعد نشره كتاب «الإسلام وأصول الحكم». بل إن هذا الأزهر هو الذي أرسى، كما يرى البعض، أسس هزيمة المشروع الحداثي العربي، حين نجح، في منتصف العقد الثالث من القرن العشرين، في محاصرة طه حسين وعلي عبد الرازق ومن يشاكلهما حصاراً، أجبر الكثير من الحداثيين على التماس المغفرة في «الإسلاميات».

السؤال الثالث الذي يحترّض عليه خطاب طه حسين هو التالي: كيف أصبح الإسلام بعد تأثره بالعقل المصري يونانياً؟ تنكّى «الإجابة على مقدمتين مطمئنتين: تقول الأولى بأولوية المكان على العقل الذي صدر منه، وهو ما تجلّى في انبثاق العقل المصري أصيلاً من ذاته. لهذا لم يسلب الإسلام العقل المصري يونانيته، بل إن الإسلام هو الذي صار يونانياً، أي ديناً متوسطياً، وإن كان قد جاء من الشرق، كما لو كان العقل المصري قد ميز الإسلام واستولد منه إسلاماً مصرياً. وآية ذلك، التفاعل الخصيب بين الإسلام والفلسفة اليونانية، الذي أفضى إلى تفلسف الإسلام وإسلام الفلسفة اليونانية. تأتي المقدمة الثانية من مبدأ التناظر، مرة أخرى، الذي جعل من علاقة الإسلام بالفلسفة اليونانية صورة أخرى عن علاقة المسيحية بها. فالدينان سماويان، والقرآن جاء متمماً للإنجيل ومصدّقاً له، وما ينطبق على دين منهما ينطبق على الآخر، فقد تفلسفت المسيحية

وتنصرت الفلسفة اليونانية ، دون أن يمنع التفلسف المسيحية عن أن تظل ديناً سماوياً ، له كتبه وأشباعه وطقوسه . ساوى حسين بين الدينين السماويين ، كي يوفق بين الإسلام والعقل اليوناني ، كما لو كان الإسلام هو المسيحية وكانت المسيحية إسلاماً آخر . نقرأ : «إذا صح أن المسيحية لم تمسخ العقل الأوروبي ، ولم تخرجه عن يونانيته الموروثة ، ولم تجرده من خصائصه التي جاءت من إقليم البحر الأبيض المتوسط ، فيجب أن يصح أن الإسلام لم يغير العقل المصري ، أو لم يغير عقل الشعوب التي اعتنقته ، والتي كانت متأثرة بهذا البحر الأبيض المتوسط . . . ص : ٣٢ .

والنتيجة المتنتظرة لا مفاجأة فيها : إذا كانت المسيحية في الحضارة الأوروبية المعاصرة مسيحية يونانية متفلسفة ، فلا شيء يمنع المسلمين من اعتناق مبادئ هذه الحضارة ، لأن الإسلام المتفلسف بدوره مسيحية أخرى ، التي هي دين سماوي صدقه الإسلام وتممه . لا فروق بين الإسلام والمسيحية ، ولا فروق بين الديانتين والحضارة الأوروبية ، فهذه العلاقات جميعاً تصالحت مع العقل اليوناني أو صدرت عنه . يخلص حسين إلى ما أراد الوصول إليه : «جوهر الإسلام ومصدره هما جوهر المسيحية ومصدرها . واتصال الإسلام بالفلسفة اليونانية هو اتصال المسيحية بالفلسفة اليونانية» .

وعلى هذا ، فإن الإسلام هو المسيحية وأن الحضارة الأوروبية إسلامية - مسيحية ، وأن العقل الأوروبي تتويع لتفاعل الديانتين مع الفلسفة اليونانية ، الأمر الذي يدرج الإسلام عنصراً داخلياً في مكونات الحضارة الأوروبية الحديثة .

لن يكون العقل الإسلامي ، والحالة هذه ، إلا العقل الأوروبي ، الذي يميز فيه الشاعر الفرنسي بول فاليري عناصر ثلاثة هي : حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن ، وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه ، والمسيحية القائلة بوجود الخير وضرورة الإحسان . حين يستذكر طه حسين تصور فاليري يقول : «فلو أردنا أن نحلل العقل الإسلامي في مصر وفي الشرق القريب أفترأ ينحل إلى شيء آخر غير هذه العناصر التي انتهى إليها تحليل فاليري . ص : ٢٩ . بعد سلسلة من التناظرات الشكلانية بلغ حسين قولاً قرره منذ البداية : «وإذن فهمها نبحت ونستقصي فلن نجد ما يحملنا إلى أن نقبل إن بين العقل الأوروبي والعقل المصري فرقاً جوهرياً . . . يولد السيد العميد ، أخيراً ، قياس الاختزالي بحجج مادية ، مبرهنات أولوية المنافع على العقائد ، وأولوية القوميات على الأديان ، وأولوية ما محتاجه مصر على ما يحتاجه غيرها . ذلك أن المسلمين ، وقبل إن ينقضي القرن الثاني للهجرة ، أقاموا سياستهم على المنافع ، «وعلى المنافع وحدها ، إلى أبعد

حد ممكن»، وأن وحدة الدين ووحدة اللغة لم تعد تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول الحديثة. لا يبدو الإسلام، في الحالات جميعاً، ساوياً العقل الأوروبي أم لم يساوه، عاملاً أساسياً في انبعاث مصر الخالدة، طالما أنها كانت مزدهرة قبل وصوله، وستعود مزدهرة بعد عودته إلى أوروبا. وإذا كان من شاء الغايات ارتضى بالوسائل، فإن على مصر، التي هي جزء من أوروبا، أن تأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية، التي قوامها العقل والديمقراطية والعلمانية.

هوّن حسين من شأن الرابطة الدينية اعتقاداً راسخاً منه بأن الإسلام غير قادر على مواكبة الحضارة الحديثة، وهوّن من شأن الرابطة القومية العربية، إيماناً منه بأن القومية العربية قديمة مُقَوّنة تكتفي بوحدة اللغة والدين وتشارك العنصر التركي سلبه، وبالع في الخصوصية المصرية احتجاجاً على واقع إسلامي - عربي لا يبشر بخير. كان، في هذا كله، مطمئناً إلى أفكار ثلاث: على من تخلف أن يحاكي نموذجاً حضارياً متقدماً عليه، وأن البشر جميعهم قادرون على التعلم بنسب متساوية، وأن الحضارة الإنسانية سائرة إلى توحيد الجنس البشري، والأكثر وعياً ونباهة من يوقظ ذاته ولا يسقط في الانتظار. وسواء أصاب في مشروعه أم أصاب مشروعه أكثر من خلل، فقد كان نزيهاً وبصيراً في أن. كان نزيهاً وهو يدعو إلى نموذج حدائى أوروبى بلا مساومة، مردداً بأن من «أراد الغاية أراد الوسيلة»، بعيداً عن تلفيق «الحداثة والإيمان»، الذي سيزهر شوكتاً في أزمنة لاحقة. وكان بصيراً وهو يعلن أن استقلالاً لا حداثة فيه أكثر سوءاً من الاستعمار الذي سبق الاستقلال. أقام حسين مشروعه الحدائى على عنصرين متكاملين: التحرر من استبداد الموروث الذي هو أكثر ألوان الاستبداد استبداداً، والثورة الثقافية الشاملة التي تمكن من القطع مع الماضي والتحرر منه. أوصله هذان العنصران إلى استراتيجية محددة: ديمقراطية التعليم، التي تجعل التعليم حقاً متاحاً للجميع، والتعليم الديمقراطي الذي ينشئ العقل قبل إن يحو الأمية. كان يجتهد مقارناً الأدنى بالأعلى، مؤمناً بأن الفرق بين الطرفين مجرد صدفة تاريخية، قابلة للمحو والتجاوز.

٢- تبادلية الاستقلال والحداثة الاجتماعية:

تضمن مقدمة كتاب «مستقبل الثقافة في مصر»، كما رأينا، أربع أطروحات واضحة:

أخرج «العنصر التركي»، في معناه الحرفي أو المجازي، مصر من موروثها اليوناني ورددتها إلى انحطاط شرقي، وأن عودة مصر إلى استقلالها عودة متحضرة إلى الحضارة الإنسانية المعاصرة، وأن النموذج الحضاري الأوروبي هو الوحيد الجدير بالمحاكاة والتقليد، وأن الحداثة الاجتماعية ضمان تطور الاستقلال وتوطئه. يُضاف إلى هذه الأفكار مجتمعة إيمان عميق بتبادل ميسور للخبرات الحضارية، يتيح لمصر أن تبلغ «في وقت قصير ما أنفق الأوروبيون في سبيله عشرات السنين بل مئاتها.». وأن تدرج في الحضارة الأوروبية اندراجاً لا اعتلال فيه ولا نقصان. يعبر طه حسين، من جديد، عن خيار حاسم وإيمان به لا يقل حسماً: «علينا أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومزجها، وما يُحب منها وما يكره، وما يُحمد وما يُعاب.». لا يحل هذا الوضوح على تبعية ثقافية، بل على نموذج عقلاني للحضارة، يبعث روح مصر بوسائل غريبة عن أهل «الحجاز واليمن والشام والعراق»، فالمتخلف لا يحاكي من كان أكثر منه تخلفاً، إلا إذا شاء تأييد التخلف.

لا استقلال بلا حداثة ولا حداثة بلا استقلال، ولا حداثة مستقلة دون نموذج يحاكي المستقلون حديثاً، الذين فقدوا معنى الحديث مدة أربعة قرون. يصل حسين، وهو يجتهد في تخليق مشروعه، إلى فرضيتين هما: أن «الاتفاقية» جعلت من مصر بلداً مستقلاً، وأن على البلد المستقل أن يكون حديثاً. دفعت الحداثة المنشودة، التي تقبل بتعايير التقدم والرفي والإصلاح، إلى اعتناق تعاليم الثورة الفرنسية، وهي النموذج الحداثي الأكثر صفاء، الذي قال بأشياء متعددة، أكثرها وضوحاً: حقوق الإنسان والدولة القومية. لذا يبدأ حسين حديثاً واضحاً عن حقوق الإنسان في العدالة والمساواة والإخاء، وعن وظيفة الدولة المصرية في ترجمة هذه الحقوق نظراً وعملاً، وأصلاً وزواجراً إلى الديمقراطية والدولة القومية، التي ترمي الديمقراطية وتعيد الديمقراطية إنتاجها. لن يكون التعليم المجاني الموسع، والحالة هذه، إلا شرط الدولة الديمقراطية، لأن تعلم الديمقراطية واحترام قواعدها لا يتفقان مع شعب أكثرته الكثيرة أمية جاهلة.

يسوق طه حسين خطابه في تسلسل منطقي، يميز بين أنواع البشر وأنواع الأوطان وأنواع التعليم وأنواع الحكام والمحكومين. يقول بنبرة لا يتقصها التحريض: «والرجل الذليل المهين لا يستطيع أن ينتج إلا ذلاً وهواناً، والرجل الذي نشأ على الخنوع والاستعباد لا يمكن أن ينتج حرية

واستقلالاً...». يمكن القول قياساً على ما سبق: والرجل الجاهل المقيد لا ينتج إلا وطناً يستسيغ الجهل ويستعذب القيود. يردّد حسين بأن «كثرة المصريين لا تزال جاهلة جهلاً مطلقاً، ولا بد من أن تقوم الديمقراطية بتعليمها، وبتعليمها على النحو الملائم لأصول الديمقراطية وغاياتها. ص: ٧١». إذا كان في التعليم ما يردّ إلى حقوق الإنسان، التي تفرض التعليم كل التعليم حقاً للشعب كل الشعب، فإن في التعليم الذي يلائم أصول الديمقراطية وغاياتها ما يحيل على الشعب، الذي هو تفاعل الفرديات الحرة، القدرة على الخيار الحر والمبادرة غير المقيّدة. تقضي الحداثة الاجتماعية إلى شعب متعلم متساوي الحقوق، ويترجم الشعب المتعلم حداثته بفضاء سياسي حر، لأن مجتمعية السياسة هي المقدمة الأولى للحداثة. ساوى حسين بين التعليم والديمقراطية، متطعماً إلى مشاركة الشعب السياسية، وساوى بين التعليم والحرة، موحداً بين الاستقلال والتعليم الحديث. فهو يقول: «فالدعامة الصحيحة للحرة الصحيحة إنما هي التعليم الذي يشعر الفرد بواجبه وحقه، وبواجبات نظرائه وحقوقهم، والذي يشيع في نفس الفرد هذا الشعور العدني الشريف، شعور التضامن الاجتماعي...»، «إذا تعلم أبناء الشعب عرفوا ما لهم من حقوق في حياتهم الداخلية فلم يسمحوا لقلّة مهما تكن أن تظلم الكثرة، وعرفوا ما لهم من حق في حياتهم الخارجية فلم يسمحوا للدولة مهما تكن أن تظلم مصر أو أن تستذلها...». أراد حسين أن يبيّن الاستقلال على التعليم، وأن يبيّن التعليم على الديمقراطية، وأن يبيّن الديمقراطية على حقوق الإنسان، التي تتوجه إلى الإنسان من حيث هو، مصرياً، كان أم فرنسياً. تتبادل الديمقراطية والاستقلال والتعليم المواقع، فلا استقلال بلا ديمقراطية، ولا ديمقراطية بلا إنسان متعلم يعرف أصول الديمقراطية وغاياتها. لا يأتي الاستقلال الحقيقي، إذن، من معاهدة أبرمتها مصر مع بريطانيا، إنما يأتي من مجتمع جديد استقل عقله وتحررت إرادته وأدرك، معيشياً، الفرق بين الاحتلال والاستقلال.

تعيّن المدرسة، إذن، حاكماً لمصر المستقبل، أو «أميراً» حديثاً، بلغة ميكيفيلي، يتكاثر في جملة من الأمراء النجباء، كما لو كان في المدرسة سلطة عليا تصوغ جميع السلطات الممكنة. تقوم هذه المدرسة - المجاز بوظائف كثيرة: فهي، أولاً، الموقع الذي يحزّر الفرد من التصورات الضيقة التي تفرضها عليه بيئة ضيقة متوارثة، كي يفتتح على معرفة عقلانية وعلى مجتمع تنظمه المبادئ العقلانية الكونية، بعيداً عن سلطة الموروث واستبداد العادات النعنية. وما دور المدرسة

إلا نفي العادات الذهنية « التركية » بعقل مغاير ، يبدأ من عقل التلميذ وكرامته ، ويقنع المجتمع المتعلم بأن السلطة السياسية صناعة إنسانية ، قابلة للنقد والتغيير والاستبدال . فبعد أن كانت المدرسة العثمانية مجازاً للتخلف فإن على المدرسة الجديدة ، وهي مجاز آخر ، أن تمحو آثار المدرسة المتخلفة . تتمثل وظيفة المدرسة ، ثانياً ، في إعادة الاعتبار إلى النظام والغاية المنظمة ، وهي العناصر المطلوبة لبناء دولة مستقلة تعي أهدافها ، وتقدر على التعامل والتعاون والتنسيق مع دول حديثة أخرى ، تأسست على العقل والنظام . تأتي وظيفة المدرسة الثالثة من تلك الجهة الأثيرة على عقل طه حسين ومزاجه ، التي تنفتح على الثقافة بألوانها وعلى الثقافة الكونية بأشكالها ، إلى درجة أنفتحه باشتقاق التاريخ المصري من التاريخ اليوناني ، وباشتقاق التاريخ الأوروبي من التاريخين معاً . تزرع المدرسة الحديثة في ذهن التلميذ قيمة إنسانية رحيمة بعيدة عن الخصوصيات المغلقة ، وتطلعه على ثقافات متعددة ، وتعلمه لغة من لغات الشعوب المتحضرة أو أكثر . تستدعي هذه الوظائف ، كما غيرها ، طرفاً يقف فوقها ويشرف عليها هو : الدولة . نقرأ : « والنتيجة لهذا التفصيل الطويل أن الدولة هي المسؤول الأول ، والمسؤول الأخير ، والمسؤول قبل الأفراد والجماعات ، وبعد الأفراد والجماعات ، عن تكوين العقلية المصرية تكويناً يلائم الحاجة الوطنية الجديدة التي صورناها تصويراً نظن أنه دقيق كل الدقة ، ملائم كل الملائمة ، حين قلنا إنها تنحصر في تثبيت الديمقراطية وحيطة الاستقلال » . يعهد طه حسين بمشروعه التعليمي إلى دولة مصرية اقتراضية ، ذلك أنه يرى جهل الشعب أثراً لسلطة أرادت جهله ، ويشير ، في اللحظة عينها ، إلى شعب مصري حظه من التعليم قليل ، مبرراً قصور السلطة بغياب الاستقلال وتقييد الإرادة الوطنية .

يشقت طه حسين الشعب من المدرسة ، والمدرسة من السلطة ، والتعليم الديمقراطي من الدولة الديمقراطية ، التي تحاكي الديمقراطيات الغربية . يخلص في توليده المنطقي إلى شعار له شكل البداة : « لا تعليم بلا ديمقراطية ولا ديمقراطية بلا تعليم » . يقول الشاعر ، في قسمه الأول ، بأولوية النظام السياسي على النظام التعليمي ، لأن نظاماً مستبدلاً لا ينتج إلا مدرسة على صورته ، تؤسس لعبودية مختارة قبل إن تلقن التلميذ مبادئ الأبجدية . ويقول ، في قسمه الثاني ، بأولوية الوعي الاجتماعي على النظام السياسي ، ممياً ، بشكل مضمحل ، بين المجتمع الديمقراطي الذي تعلم ديمقراطياً وأعاد إنتاج الديمقراطية ، وديمقراطية المجتمع ، وهي

مجرد احتمال، تختلف أحوالها في «المجتمع اليوناني» عنها في مجتمع أنسته ديمومة الاستبداد مبادئ الديمقراطية. وهذا التمييز هو الذي يعين مدرسة طه حسين مشروعاً حديثاً شاملاً من ناحية، وهو الذي يدفعه إلى تأكيد دور الدولة من ناحية ثانية، كما لو كانت الدولة هي خالق المجتمع الديمقراطي في علاقاته كلها. بيد أن هذا الشعار، في مقدمته، يتطلع إلى غاية محددة التحديد كله، محورها «الوطن» في الاشتقاقات المختلفة: الحاجة الوطنية، الشخصية الوطنية، التاريخ الوطني، التربية الوطنية، حماية الوطن، الشخصية المصرية الخالدة... يقول جان جاك روسو في «العقد الاجتماعي»: «نحن لا نبداً حقاً في أن نصير بشراً إلا بعد أن نكون مواطنين»، مساوياً بين الأنسنة وحقوق المواطنة. أخذ حسين بأطروحة روسو ومهد لها بأطروحة أخرى: «نحن لا نبداً حقاً في أن نصير بشراً إلا بعد أن نكون متعلمين، ونحن لا نبداً حقاً في أن نصير متعلمين إلا بعد أن نكون مواطنين». تولد حقوق المواطنة من المواطن المتعلم الذي يعرف حقوقه، ويولد الوطن المستقل من المواطنين الأحرار، من الإرادة الجماعية لهؤلاء الذين يتمتعون بحقوق المواطنة، الاقتصادية والسياسية والثقافية والتعليمية.

تتحدد الديمقراطية مدخلاً إلى المواطنة، بقدر ما يتكشف التعليم الديمقراطي مدخلاً إلى وعي جماعي، يتعرف على الوطن والمواطنة، ويحقق التماسك الوطني. وما حديث طه حسين عن «العقلية المصرية التي تلائم الحاجة الوطنية» إلا حديثه، مرة أخرى، عن دور المدرسة في إلغاء الفروق والحواجز والفواصل المنبعثة عن التصور القديم للتعليم، كما لو كان هذا الأخير ينقض معنى الوطن ويعبث بوحده. فقد كان في المدرسة القديمة ما يخالف السيادة الوطنية، لكثرة المدارس الأجنبية التي تعلم المصريين برامج أجنبية، وكان فيها ما ينقض الوحدة الوطنية على النحو الحديث، بسبب مؤسسة الأزهر التقليدية التي هي دولة داخل الدولة، وكان فيها ما لا يلبي الحاجة الوطنية المصرية، لأن السياسة التعليمية الإنجليزية أفسدت التعليم كل الفساد، وكان فيها تلك التفرقة بين الطبقات، التي تقضي بأن تحتكر التعليم قلة ميسورة، تاركة وراء أسوار التعليم كثرة جاهلة خامدة. يأمر كل هذا، بعد وفود الاستقلال، بمهمة محددة هي: توحيد العقلية المصرية توحيداً يلائم الشخصية الوطنية على النحو الحديث.

كيف تجانس دولة الاستقلال وطنياً، أو قومياً، شعباً أكثره جاهلة والقلة المتعلمة فيه لا تعدو العشرين في المئة، إن لم تكن أقل؟ وكيف تجانس دولة الاستقلال وطنياً، أو قومياً، قلة متعلمة

موزعة على مدارس غير متجانسة؟ أجاب حسين على السؤال الأول بديمقراطية التعليم، وأجاب على السؤال الثاني بإشراف الدولة الوطنية على جميع مرافق التعليم إشرافاً كاملاً. ولهذا توقف أمام أشكال التعليم المختلفة : التعليم الرسمي المدني الذي تنشئه الدولة وتقوم عليه هو امتداد لأغراض الاستعمار الإنجليزي، والتعليم الأجنبي المستغل بالامتيازات الأجنبية الذي «لا يفكر في مصر، ولا يحفل بها، وإنما يفكر في فرنسا وإيطاليا، وفي إنجلترا وأمريكا، وفي اليونان وألمانيا». وهذا التعليم ينشئ طلاباً، كارهين لبيئتهم المصرية، ويفكرون على نحو يخالف تفكير الطلاب الذين يخرجون من المعاهد المصرية. وهناك التعليم المصري الحر، والذي لا يخضع كلياً لمشينة الدولة، وهو تعليم «أقل ما يوصف به أنه مصدر فساد للتفكير ومصدر فساد للخلق، ومصدر فساد للسيرة العامة والخاصة...». يصير هذا التعليم المدرسة المصرية إلى مدارس تتباين في برامجها وتختلف في أهدافها وتتناقض في قيمها، كما لو كانت تستولد من الشعب المصري شعوباً متعددة، وهو ما ينقض السياسة التعليمية المستقلة، التي توحد بين الشعب والديمقراطية وبين التعليم والحاجات الوطنية. وجواب طه حسين جاهز ومفصل ولا اضطراب فيه : «والى الدولة وحدها يجب أن توكل شؤون التعليم كلها في مصر إلى أمد بعيد. وليس معنى هذا أنني أكره أن يبذل الأفراد والجماعات ما يستطيعون من الجهد لإنشاء ما يمكن إنشاءه من أنواع التعليم وفروعه. بل معناه أن حياة مصر الخاصة وتطورها الحديث، يقضيان بأن تؤخذ أمور التعليم كلها بالجد والعزم، وأن يكون تنظيمها دقيقاً، والإشراف عليها قوياً، وملاحظتها متصلة... ص: ٧١»، أو : «وجملة الأمر أن الدولة يجب أن تشرف على المدارس الأجنبية... فتكفل لأبنائها الذين يدخلون هذه المدارس ما تكفله لأبنائها الذين يدخلون المدارس الوطنية من التعليم الصحيح للغة القومية، والتاريخ القومي، والجغرافيا القومية، والدين القومي...». لا انفصال بين التعليم المستقل والحداثة الاجتماعية، ولا انفصال بين المجتمع الحديث والشخصية القومية.

يحتل التعليم الديني الأزهري بين أشكال التعليم التي على الدولة أن توحد بين أهدافها، مكاناً خاصاً. فهذا التعليم، الذي يقبل الناس عليه إقبالاً عظيماً، لا يخضع لمراقبة ولا ملاحظة، محمياً بهيئته، محصناً بهائته، على الدولة أن تنفق عليه ولا تسائله. وهو في استقلاله المتوارث، الذي يكاد يجعل منه دولة داخل الدولة، محافظ شديد المحافظة خاضع لكثير من «أفقال القرون

الوسطى» ، يصوغ التلاميذ صوغاً يخالف التعليم المدني، بحيث لا يتفق الأزهري والشاب المدني في التفكير والتقدير ، ولا في الحكم والرأي ، ولا يتفقان في السيرة والعمل . يكاد طه حسين أن يقرن التعليم الديني المعزول عن الحياة بالحقبة العثمانية ، التي رمت على مصر بعصورها الوسطى ، ويكاد يرى فيه تغذية لحرب أهلية ، مرجعها الاختلاف الشديد في مواضيع التعليم وتصوراته ونتائجه . يتعين التعليم الديني ، في هذا الاجتهاد ، نقضاً للحدائث الفكرية ، ونقضاً موازياً للشخصية القومية ، التي يصوغها التعليم الديمقراطي ملتزماً بالأهداف الوطنية . ولعل دعوة حسين الصارمة إلى الحدائث الشاملة ، التي لا تأتلف مع تعليم ديني ثابت في مطلقاته ، وضعت على قلمه مقولة القومية ، وأكّدت «المصرية» قومية مكتفية بذاتها . لذلك ، يتحدث عن «التاريخ القومي ، الجغرافيا المصرية ، التاريخ المصري ، الوطنية المصرية ، اللغة المصرية ، الدين القومي . . .» . يكتب طه حسين : «وإذن ، فلا ينبغي أن يكون هناك مصريون يخرجون من المدارس المصرية وقد تعلموا الدين القومي واللغة القومية والتاريخ القومي ، وآخرون يخرجون من المدارس الأجنبية وليس لهم من التعليم الديني حظ ما . ص : ٨٢» . إذا كانت تعابير التاريخ المصري واللغة المصرية والشخصية المصرية مترادف ، في لغة حسين ، التاريخ القومي واللغة القومية والشخصية القومية ، فإن الدين القومي ، الواجب تعليمه في المدارس الأجنبية ، هو الدين المصري المتميّز بخصائص مصرية .

يفضي تعامل طه حسين مع الدين إلى النتيجة التاليتين : يفقد الدين استقلاله الذاتي ويتحوّل إلى عنصر من عناصر الوطنية الحديثة ، شأنه شأن التاريخ واللغة والاقتصاد ، بل إنه لا يجد مكانه بين عناصر القومية الحديثة المتعددة ، إلا بعد إصلاحه والمواءمة بينه وبين الحاجات القومية . تقول النتيجة الثانية : يفقد الدين ، الذي أصبح مصرياً ، بعده الميثاقية وآماده المتعالية طالما أنه ، وقد أصبح مصرياً ، يحيل على العقل المصري قبل غيره . يغدو الإسلام ، في الحالين ، ديناً متميزاً ، يفاير إسلام الحجاز واليمن والعراق وأهل الشام ، أي إسلاماً أنتجه العقل والمكان المصريان ، مثلما أنتجا غيره من الظواهر الثقافية . «عَلَمَنَ» طه حسين الإسلام مرتين بشكليين مختلفين : مرة أولى حين قال ، وهو يستذكر مصر القديمة ، بأولوية المكان على العقل ، وبأولوية العقل المصري على غيره ، محولاً العقل الإسلامي إلى أثر للعقل المصري ، الذي انبثق من ذاته . ومرة ثانية حين سوى الدين عنصراً من عناصر القومية الحديثة ، كونه علاقة اجتماعية بين علاقات اجتماعية أخرى .

فصل حسين، وهو ينتفض الزمن العثماني بالزمن الأوروبي الحديث، بين القومية المصرية التي تحاكي غيرها من القوميات الأوروبية، والقومية الإسلامية التي محورها «الكعبة المطهرة»، كما يقول شيخ جليل من شيوخ المسلمين. يقضي هذا الفرق، الذي يمنع الجيل الأزهرى عن قبول المصرية الحديثة، بإصلاح تعاليم المؤسسة الأزهرية، كي تصبح مؤسسة من مؤسسات الدولة التعليمية، ينطبق عليها من القواعد ما ينطبق على غيرها، وتسهم في تخليق الشخصية القومية الموحدة كغيرها من المؤسسات. والوسيلة التي يصار بها إلى تحديث القديم هي: إشراف الدولة إشرافاً كاملاً ودقيقاً على التعليم الأزهرى، من أجل إدخال صورة القومية الحديثة في الأزهر، «وهي إنما تدخل من طريق التعليم الأولي والثانوي، بإشراف السلطان العام»، حتى لا يبقى الأزهر خارج الدولة، ولا يكون له ذلك السلطان الخاص الذي يستطيع أن يطاول السلطان العام. رأى حسين، وهو يتأمل العقلية المصرية الموحدة، في التعليم الأزهرى ما رآه في التعليم الأجنبي المستقل بامتيازات الدول الأجنبية، وطالب بإصلاحهما من وجهة نظر القومية المصرية: «وإنما أريد أن يعاد النظر في قوانين الأزهر. فنحن نعلم متى شرعنا، وكيف شرعنا، ونحن نعرف ما خضعت له من الظروف. وأيسر ما يقال في ذلك إن هذه القوانين والنظم لم تشرع في عهد الديمقراطية الصحيحة. ص: ٨٧».

قصد حسين، في حديثه عن إصلاح الأزهر، إلى أمرين: اختصار الأزهر، من وجهة نظر الاختصاص العلمي، إلى مؤسسة مختصة بشؤون الدين والفقه، حال غيرها من المؤسسات العلمية، التي يمكن أن تختص بعلم التاريخ أو القانون أو العلوم الطبيعية، وتحويله، من وجهة نظر المصلحة الوطنية، إلى مؤسسة تتفق في مواضعها وتصوراتها وأهدافها مع المؤسسات الأخرى. ألقى، في الأمر الأول، السلطان المتوارث الذي يجعل من الدين علماً للعلوم، يحاكم العلوم ويقاضيهما ويقف فوقها، لأنه علم -مرتبة تقصر عنه العلوم الدينية-. وألقى، في الأمر الثاني، السلطان المتوارث الذي يعين الأزهر دولة في داخل الدولة، أو دولة فوق الدولة، تحدد لها المسموح والمنع. وواقع الأمر أن حسين لم يكن خصماً للأزهر ولا عدواً للدين، بل كان وهو يتعامل معه منسجماً مع مشروعه الإصلاحى انسجماً كاملاً، ذلك أنه كان مشغولاً بمجانسة العقلية المصرية، وبتأمين الشروط التي تهيأ لولادة شيء محدد هو: الدولة القومية المصرية الحديثة، التي تعيد إنتاج الاستقلال الوطني بوسائل عقلانية.

استلهم حسين، كما ذكر في أكثر من مكان، نموذج الديمقراطية الفرنسية، الصادر عن ثورة ١٧٨٩، الذي يعين الدولة قوة مهيمنة وقائدة: مهيمنة لأنها تحقق مصالح المجتمع المختلفة، التي تشمل على الحق في التعليم وحقوق العمل والسلم الاجتماعي والكرامة الوطنية، وقائدة لأنها تعيد خلق المجتمع، بما يضمن له الارتقاء والتقدم. أخذ حسين من هذا النموذج فكرة المجانسة الاجتماعية، أو الترابط الاجتماعي، فلا هيمنة سلطوية على المجتمع من دون معايير مشتركة تتوزع على الطرفين، وأخذ فكرة التعليم الشعبي الموسع الذي لا تكون الشخصية القومية إلا به.

٣- التعليم وتوليد الدولة البرجوازية:

أدرج طه حسين في كتابه خطابين، أحدهما مباشر يشرح مضمون التعليم وغايته في أطواره المتلاحقة، وثانيهما غير مباشر يشرح المبادئ الفكرية، التي تؤسس لثورة ثقافية. احتقب الخطاب الثاني، الذي لا يكون الأول إلا به، ثلاث مقولات تحيل، منطقياً، على بعضها، أولاهما: كونية الخبرة الإنسانية، التي تقول بكونية العقل الإنساني، فلا اختلاف بين الشعوب في حظوظ العقل، وبهجرة الإبداع الإنساني من بلد إلى آخر، وفقاً لظروف السياسة والاقتصاد والمعتقدات. تصرّح المقولة الثانية بالعلاقة بين الوعي والتاريخ، أو بالنزعة التاريخية، التي تقرّر تقويض القديم والبحث عن نظام جديد، زهداً بالماضي وثقة بالعقل، لأن في الثاني قوة تنقل الإنسان من وضع العبد إلى وضع السيد، ومن وضع الجماعة الغفلة إلى مقام الـ«نحن» المتحررة. وإذا كان في المقولة الأولى ما يتيح لطه حسين أن يطالب، بلا تردد، بنقل الخبرة التعليمية الفرنسية إلى مصر، فإن في الثانية ما يدعوه إلى نقض «إيديولوجيا الإجماع» بوعي الفرديات المتعلّمة، التي تعرف مساوئ الاستبداد أكثر مما تعرف فضائل الحرية. تنتهي المقولتان إلى ثالثة هي: الحياة طبقاً لمبادئ العقل، إذ لكل ظاهرة سبب، ولكل سبب ما يعالجه. يسمح مفهوم السبب بمواجهة الجهل بالمعرفة والأقلية بالأكثرية، ويدلل على أن السلطة السياسية، مهما كان شكلها، اختراع إنساني، تعطيه الإرادات الإنسانية أشكالاً مختلفة. انطوى الخطاب، في شكله، على تعقيد طموح، أو رهان رسولي يوحد بين المعرفة والوطنية وبين المثقف والمسؤولية. ولهذا كان على طه

حسين، السياسي المحنك و كاتب المقالة السياسية إلى حدود الإكثار أحياناً، أن يحجب مشروعه السياسي الطموح بمشروع تربوي مواده المدرسة والمعلم والتلميذ، وأن يدخل إلى لبوس المربي المراوغ والصارم في مراوغته، مدركاً، قبل غيره، أن المدرسة التي يدعو إليها، بلغة تربوية، هي مجاز: الثورة البرجوازية الكلاسيكية.

دعا حسين إلى أفكار الثورة البرجوازية، التي قال بها روسو وفولتير وديدرو، مستدعياً، بشكل إيقاعي، أطياف مصر الخالدة، مصالحاً، ذهنياً، بين الحداثة والأصول. وأول هذه الأفكار، التي حرّضه الواقع المصري على اعتناقها، هي: حقوق الإنسان، التي تبدأ من الجوهر الإنساني لا من القوميات والعروق والأديان. كان عليه، وهو يدعو إلى دولة حديثة، أن يؤسس الدولة المفترضة على المقدمة الفلسفية للحداثة السياسية، التي ترى أن للإنسان - جميع البشر بلا استثناء - حقوقاً طبيعية، بصرف النظر عن مشيئته أو مشيئة غيره، فرداً أكان أم جماعة، مثل الحق في الحياة والحرية والأمن والسعادة، وأن على الدولة أن تحترم هذه الحقوق ألا تتجاوزها وأن تضمن عدم تجاوزها من قبل آخرين. صالح الخطاب، في لغة جديدة، بين حقوق الإنسان الفرنسية والاستقلال الوطني المصري، مقتنعاً بأن عقلانية روسو أكثر نفعاً من بلاغة «القوميات القديمة». ذلك أن هذه العقلانية، إن طبقت من وجهة نظر المصلحة الوطنية، تنتهي إلى المواطنة وتنجز معها هدفاً أكثر خطراً، هو: الإرادة الجماعية الواعية، التي تميّز الوطن من الأرض، أو الإرادة العامة العقلانية، التي لا تفصل بين الغايات والوسائل. تضمن هذه الإرادة، التي تتكئ على المساواة وتوسّع آفاقها في آن، استقلال مصر وازدهارها، لأنها قادرة على مواجهة العقليات المغلقة التي تدعي احتكار العقل والصواب، وقادرة أيضاً على معارضة أهواء السلطة، التي تغدق الامتيازات على قلة وتمنع الحقوق الطبيعية عن الأكثرية. رفض حسين أن يتعامل مع «المصريين» بمفهوم «الجماعة»، أو بفكرة «الأمة»، وهي تعبير قاصر لغة ومعنى، بل أخذ بمنظور حداثي يرى المجتمع من خلال مواقع الأفراد فيه، مؤمناً بأن المجتمع الموحد وطنياً محصلة لعقد حرّ بين ذوات حرة. تطلع هذا المنظور إلى مجتمع يمثل إلى الإرادة العامة، وإلى إرادة عامة تتجسد في دولة قومية. وسواء بالغ حسين في استلهاهم السياسة التعليمية الفرنسية أم أرتكن إلى ما ألهته به بصيرته، فقد اشتق مفاهيمه كلها من وحدة الاستقلال الوطني والحداثة الاجتماعية.

تحتل الديمقراطية، لدى طه حسين، الموقع الذي شاءته وحدة الاستقلال والحداثة، بعيداً عن

تصورات «أكاديمية» شائعة اليوم تقترح ديمقراطية مكتفية بذاتها. وواقع الأمر أن مفاهيم «مستقبل الثقافة في مصر» مسكونة بدبلكتيك صريح، يفرض عليها أن تتعرف بنقائضها، قبل أي شيء آخر. يهدف التعليم إلى تدعيم وسائط الجهل والتجهيل، قبل أن يهدف إلى محاربة الأمية، وتسمى الديمقراطية إلى تقويض وسائط الاستبداد، قبل أن تقول بحياة الأحزاب السياسية، وينشغل الاستقلال بمجابهة العبوديات الداخلية قبل أن يطالب قوى الاحتلال بالخروج. لن تكون العلمانية، في هذا التحديد، حرباً على الدين وخصاماً مع المؤسسات الدينية، بل ممارسات تربوية وتعليمية وسياسية تحاصر الوسائط التي تنتج وعياً اجتماعياً معادياً للحدثة. بل يمكن القول: تنكشف علمانية طه حسين العميقة في دعوته إلى نظام اجتماعي تبنيه إرادات إنسانية حرة، تؤمن بكونية القيم ويوحدة العقل والديمقراطية والمستقبل. ولعل هذه العلمانية، التي تحتفي بالوعي الإنساني الطليق، هي التي دعت إلى ربط حاضر «مصر الأوروبية» بماضيه الفرعوني القديم، منحياً «الإسلام الشرقي» جانباً، كما لو كان يربط بين زمنيْن دنيويْن، لا يحتاجان إلى ضمانات مقدسة. وحسين منسجم مع تصوراتهِ، منذ أن «عَلَّمَنَ» الحاضر وقرأ الماضي بثقافة مُعَلِّمَةٍ، وهو ما قام به في كتابه «في الأدب الجاهلي»، وفي كتابه «الفتنة الكبرى»، الذي فصله عن الكتاب السابق عشرون عاماً.

تحدث قسطنطين زريق في كتابه «نحن والتاريخ»، الذي ظهر بعد هزيمة العرب عام ١٩٤٨ بعقد من الزمن تقريباً -١٩٥٩-، عن قومية عربية حديثة وجوها الديمقراطية والعلمانية والفضاء الشعبي الطليق، نافياً تلك «القومية القديمة»، المطمئنة إلى «أرواح الأجداد». لم تكن القومية التي قال بها «مستقبل الثقافة في مصر»، قبل قيام دولة إسرائيل بعشر سنوات، إلا قومية زريق، مع فرق بين الطرفين، اقنع الأول بقومية عربية والثاني بقومية مصرية. مهما تكن قومية طه حسين، الذي ألح على استحياء إلى شبه نقد ذاتي في الحقبة الناصرية، فقد صرّحت بأبعاد نقدية ثلاثة: التمييز بين القومية الحديثة و«القومية الإسلامية»، تلك القديمة التي تنقض الاستقلال الوطني، لأنها تنقض الحدثة التي هي وجهه الآخر. يأتي العنصر الثاني من المبدأ الحدائي الرافض للجاهز والمعطى والقديم، والقاتل يتقدم تاريخي ينصب المستقبل مرجعاً له، معتبراً التبدّل والتغير قواماً للأشياء. يعبّر العنصر الثالث، وهو امتداد لما سبقه، القومية العربية قومية متخلّفة، توازي «العنصر التركي» ولا تختلف عنه في شيء كثير، كما لو كانت وجهاً آخر لـ«القومية الإسلامية».

تعتنق القوميتان الأخيرتان المبادئ الخالدة، الموزعة على روح الإسلام وروح العروبة، التي لا تأتلف مع وعي حداثي، لا يقر الخالد ولا يقبل به. يجمع رفض السببية التاريخية، بهذا المعنى، بين القوميتين المفترضتين، ويصير القومية العربية، في شكلها الإيديولوجي، قومية دينية، لأن المعتقدات الدينية ترفض مبدأ السببية، قبل غيره من الأسباب المادية. اصطدم حسين، المدافع عن قومية مستقبلية، بسلفية دينية وسلفية قومية لا تختلف عنها كثيراً، وأنكره ماركسيون اختزلوا القومية والديمقراطية والعلمانية إلى تجريدات طبقية، غير مدركين أن الثورة الثقافية التي نادى بها طه حسين، أكثر معقولة بكثير من «ثورة طبقية» لا أساس لها.

أراد طه حسين أن يشتق من التعليم ثورة برجوازية، متوسلاً شيئاً من تاريخ مصر الغريب وأشياء من ثقافته الفرنسية. ففكرة استيراد النموذج الفرنسي التعليمي إلى مصر تعود إلى عام ١٨٤٤، حين أنشأت الحكومة المصرية في العاصمة الفرنسية «مدرسة باريس»، التي أدارتها ونظمتها وزارة الحربية الفرنسية، وتخرج منها إسماعيل باشا، الذي تولى شؤون مصر لاحقاً، وعلي مبارك، المربي التقني الشهير. وقد أنشأ هذا الأخير، إثر عودته من باريس، المدارس الإعدادية والهندسية، وافتتح مدرسة للإدارة واللغات وأخرى للمحاسبات والمساحة ووصل، لاحقاً، إلى مدرسة للغة المصرية القديمة، وثانية للرسم، وثالثة لإعداد المعلمين. أراد أن يوحد في عمله بين النظام والسياسة الجديدة للدولة الحديثة، معتبراً أن المدرسة هي النظام والانضباط. وترادف المدرسة والنظام موجود أيضاً في كتاب رفاة الطهطاوي «تخليص الإبريز» الصادر عام ١٨٣٤، الذي يجعل من التعليم نقيضاً للفوضى. لا غرابة أن يبدو الأزهر، في كثير من الكتابات التي تدعو إلى التعليم الحديث، تعبيراً عن الفوضى : «إن ما يثير العجب في الأزهر هو الحشد الذي يتزاحم في أروقه. فالف تلميذ من شتى الأعمار، ومن كل الألوان... يتناثرون في مجموعات ويرتدون ملابس متباينة... يتحرك التلاميذ، وقد فقدوا كل اتجاه، حركة عشوائية من أستاذ إلى أستاذ...». إذا كان النظام والانضباط عنوان المدرسة، فإن الأزهر لن يكون مدرسة، لأنه يفتقر إلى هذين العنصرين معاً.

استأنف طه حسين طموح علي مبارك، واستأنف أكثر غايات رفاة الطهطاوي. أراد هذا الأخير، وكما يذكر تيموثي ميتشل في كتابه «استعمار مصر»، أن يقضي بقية حياته في ترجمة كل الأعمال الفرنسية في الجغرافيا والتاريخ إلى العربية، مثلما أراد أن يكون هناك مدرس حكومي في

كل قرية، ليعلم «مبادئ الأمور السياسية والإدارية...»، وفهم أسرار المنافع العمومية». ذهب الطهطاوي في هذا الاتجاه حين نشر عام ١٨٧٢ كتابه الرئيسي «الرشد الأمين للبنات والبنين»، الذي يربط فيه بين التعليم والحاجات الإنسانية، أو بين المدرسة والنهضة... انتمى حسين إلى نسق تربوي مصري، احتضن الطهطاوي وعلي مبارك وقاسم أمين والشيخ محمد عبده، الذي حزن عليه أصحاب الطرابيش لأصحاب العمائم كما قال حسين، وانتمى أيضاً إلى ثورة ١٩١٩، التي أقرت إثرها الليبرالية المصرية، في دستور عام ١٩٢٣، مبدأ «التعليم الإلزامي»، الذي ترجم مبدأ تساوي المواطنين في الحقوق والواجبات. غير أن السيد العميد ما لبث أن أضاف إلى انتمائه المزوج عنصرين أساسيين: فكرة الدولة القومية التي تخلق مجتمعاً قومياً، مطوراً أفكار أستاذه أحمد لطفي السيد، وفكرة المجتمع القابل للخلق والصياغة، التي أسس لها عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم في كتابه الشهير: «قواعد المنهج الاجتماعي»، الصادر عام ١٨٩٥. أعطى هذا الكتاب المجتمع وجوداً موضوعياً مستقلاً عن عقول الأفراد، كما لو كان جسماً فيزيائياً تمكن دراسته وإعادة تركيبه، بما يضمن استقراره والسيطرة عليه. وأول الوسائل التي تعيد خلق المجتمع منضبطاً ومنظماً ومستقراً هي التربية الصادرة عن التعليم المدرسي في الدولة الحديثة «التي تجعل المجتمع على الدوام يعيد خلق شروط وجوده». لا غرابة أن يتردد طه حسين كثيراً، حين أصبح طالباً في باريس، على محاضرات دوركايم في جامعة السوربون، التي سوت المدرسة بالنظام والجهل بالفوضى. فقد كان «التزام»، أو العنف الاجتماعي الناتج عن الفوضى، ماثلاً في فكر دوركايم، وهو يضع نظريته عن المجتمع المنضبط تربوياً. لم يقترح طه حسين، حين أصبح وزيراً، ترجمة كتاب دوركايم، إنما اختار كتاباً شهيراً عن «روح الجماعات»، كان موضوعه الأساسي هو: التزام.

اتكأ طه حسين على عناصر متعددة متنها إلى مدرسة -سؤال، يُشتق منها المجتمع وتُشتق هي من دولة مفترضة. ولأنه عطف على المدرسة -السؤال الديمقراطية والعلمانية والقومية، فقد حوّلها إلى مجاز واسع، يعيد إلى مصر هويتها المفقودة. تصبح المدرسة، في هذا التحديد، هي المستقبل، ويغدو المستقبل هو الثقافة التي تشيعها المدرسة، ويكون مستقبل مصر من مستقبل المدرسة التي تأخذ بها. لم يشأ طه حسين، في مشروعه الذي لم يتحقق، أن يكرر ما قال به النسق التربوي الذي انتمى إليه، إذ المدرسة هي النهضة وإذ المدرسة النهضوية مستقدمة من الغرب

أو وافدة منه، فذهب إلى منظور أكثر جنسية وحسماً : كانت مصر ولا تزال جزءاً من الغرب، وكانت المدرسة الغربية ولا تزال مدرسة مصرية. هكذا تكتمل الدائرة بلا تلفيق ولا تبعية، بعد أن تمحو مصر من تاريخها فترة ناشئة، تعني التخلف ولا تعني الإسلام بالضرورة.

قدم طه حسين، اعتماداً على المدرسة - المجاز، نموذجاً فكرياً نهضوياً، هو الأدق والأشمل والأكثر فائدة باللغة العربية في القرن العشرين، نموذجاً مجرداً - منطقياً، إن صح القول، قابلاً للتطبيق والوقوف والازدهار في أي بلد قصر عن الحضارة المعاصرة، شريطة أن تعتنقه عقول مبرأة من التلفيق، وأن تتعهد إرادات أخلاقية. طالب هذا النموذج برجوازية مصرية تابعة بمهام برجوازية قاتلة ومهيمنة، معتقداً أن الثورة التعليمية مدخل إلى ثورة برجوازية كلاسيكية.

٤- نقد الهامشي في خطاب جوهري :

أسس حسين مشروعه على فرضية «مصر المتوسطة»، ملتصماً بأسباباً تاريخية - وطنية. وإذا كان في الفرضية، بنبرتها الخطابية، ما يبرزها وطنياً، فإن الحجاج التي ساقها يعوزها الإقناع، في أكثر من مكان. بل إن التبرير، الذي اتكأت الفرضية عليه أنفضى إلى ارتباك لا لزوم له، ذلك أن صحة المشروع تأتي من علاقاته الداخلية، سواء أشار إلى النموذج الحضاري الأوروبي أم لم يشير إليه. فلقد قال حسين بنموذج حضاري عقلاني، ورسم الطرائق العقلانية التي تؤدي إليه، كما لو كان مرجعه «العقل الوطني»، قبل أي مرجع آخر.

تطرح مقدمة «مستقبل الثقافة في مصر» جملة أسئلة، صادرة عن عسف الاختزال والتناظر الشكلي. يمس السؤال الأول أسطورة الأصل، التي تختصر مصر إلى جوه ثابت، يحاصر وينهزم ويقاقل ويتنصر ويعود إلى ما كان عليه، واصلاً مصر العظيمة التي كانت بمصر العظيمة التي ستكون. أدخل التبرير الدرامي إلى فكر حسين التاريخي بعداً غريباً عنه، لا يتفق مع مبدأ «الحياة طبقاً لقواعد العقل»، الذي أقام عليه مشروعه التعليمي. فهو يقول: «أريد كما يريد كل مصري مثقف، . . . ، أن تكون حياتنا الحديثة ملائمة لجلدنا القديم». لا يتفق صلاح الرغبة مع تحولات تاريخية عميقة لا رجعة عنها، أقامت هوة شاسعة بين الزمن الفرعوني والزمن العالمي الحديث. لا يختلف السؤال الثاني كثيراً عن سابقه، فهو يرد بدوره إلى التاريخ ومقولات التحول والثبات. فبعد أن أقام حسين جدراً سميئاً بين الجوهر المصري والتحولات التاريخية،

عاد مجدداً وفصل بين الجغرافيا والتاريخ، معتبراً أن البحر المتوسط الذي تأمله الإغريق، شركاء العقل المصري في خصاله، هو ذات البحر الذي حمل المدافع الإنجليزية، التي هزمت أحمد عرابي عام ١٨٨٢. استولد حسين، وهو يستنهض الأرواح بالرغبات، مصر متخيلة من أوروبا، وثبت «التاريخ المتوسطي» في لحظة قديمة فارة منه، محولاً التاريخ إلى تتابع زمني فارغ، ناسياً أن مصر القديمة مستقرة في غبارها، وأن مدافع بونابرت جدعت أنف أبي الهول، منذ قرن ونصف القرن تقريباً.

يحيل السؤال الثالث على صورة نموذجية لأوروبا معاصرة نموذجية الإنسانية، لا فرق بينها وبين اليونان القديمة، توزع حضارتها كرمّة على من يشاء. اقتنع حسين، أو أقنع نفسه، بأن مصر عائدة إلى أوروپيتها القديمة وأن أوروبا الحديثة، التي هي يونان أخرى، لا تزال تشارك مصر في الكثير من خصائصها. جاءت هذه القناعة، التي لا تختلف دلالتها كثيراً عن أسطورة مصر الخالدة، من منطق مسرف في اختزاله، ساوى أوروبا المعاصرة بـ «أثينا القديمة»، التي فتنت حسين الشاب، فقراً ثقافتها وترجم آدابها، ودعا إلى تعلم اللغة والآداب اليونانية. لم تكن فتنة أثينا، التي تليبي كل وعي ليبرالي، إلا ديمقراطيتها المبكرة، التي رأت في العسف والقهر والإكراه طرائق ما قبل - سياسية، تلائم «الذين يعيشون خارج المدينة، أي هؤلاء الذين يعيشون داخل العائلة والأسرة، حيث الزعيم يمارس سلطة مطلقة»، وتلائم، بداهة، «الإمبراطوريات البربرية الآسيوية، التي نظامها الاستبدادي صورة عن التنظيم الأسري».

بنى حسين صورة أوروبا الواجب محاكاتها من عناصر التنوير الأوروبي، وقوامها سلطة العقل ورفض سلطان الكنيسة، مطابقاً بين التنوير الأوروبي وأثينا القديمة. ولعل صورة أثينا القديمة، التي تنتقل ولا تتبدل، هي التي منعت حسين عن رؤية الحضارة الأوروبية الحديثة في مكوناتها المادية، المحتشدة بالثورات العلمية والصناعية والقومية والكشوفات الجغرافية واستعمار الشعوب. كان مأخوذاً، ربما، بقوة الثقافة، التي هي ترجمان الديمقراطية المبدع، وبقوة الديمقراطية، التي هي حاضن الثقافة ودليلها إلى الحياة. لا غرابة، إذن، أن يعين الثقافة، في الشرط المصري، طريقاً إلى الثورة، طالما أن الثقافة الديمقراطية ضامن للإبداع في أشكاله المختلفة، ومقدمة لتخليق «برجوازية مصرية ثورية» تنتج، بشكل سلمي، ما أنجزته البرجوازية الفرنسية. وضعه هذا الطموح، الذي لا تنقصه المراهنة، داخل السلطة وخارجها: داخلها وهو

يضع لها نموذجاً تعليمياً ثورياً ويطلبها بتحقيقه، وخارجها وهو يحتمل السلطة وحدها مسؤولية الأمة التي تكتسح غالبية الشعب المصري. شيء قريب أيضاً من خروج طه حسين من الإسلام تارة وعودته إليه تارة لاحقة: كأن يخرج من إسلام شرقي آيته الاستبداد العثماني، وأن يعود إلى إسلام يوناني، هذب العقل المتوسطي وأعاد صوغه. وما هذا الإسلام اليوناني المفترض إلا تلك البرجوازية المصرية التابعة، التي عليها أن تقوم بدور برجوازية وطنية مستنيرة.

كيف تستعيد مصر الجديدة مجد مصر القديمة؟ وكيف تقوم الدولة المصرية المستقلة بدور الدولة الفرنسية التي خلقت قومية حديثة؟ وكيف ينجز التعليم الحديث، في سنوات قليلة، ما أنجزته أوروبا في عشرات السنين؟ هذه هي الأسئلة التي أعطت خطاباً مستقبلياً يتمزج فيه الفكر النقدي الفاعل والمراهنه الأخلاقية. كان ميكيا فيلي، في قراءة ألتوسير له، قد واجه هذه الأسئلة حين تأمل، في زمانه، شروط الوحدة الإيطالية: كيف يمكن توليد المتوقع من اللامتوقع؟ أو كيف يمكن توليد أمير جديد من أوساط شعبية لا تعرف عن أحوال الإمارة الجديدة شيئاً؟ والجواب أن المنشود لا سهولة فيه، لأنه «لا يمكن الركون إلى أية فئة اجتماعية، أو أية جماعة سياسية، أو إلى أية مدرسة قديمة من أجل توليد الدولة الوطنية المنشودة». لكن على الرغم من هذا كله، «ينبغي البحث عن دولة وطنية، أي حديثة، تحمل شروط النمو والاستمرار»، ويجب العثور على مرجع جديد ينتج الأمة ذات الإرادة الموحدة المجسدة في دولة وطنية على صورتها. ما بحث عنه ميكيا فيلي، كما أشار ألتوسير، بحث عنه طه حسين في زمن لاحق. وقع الأول على «الأمير الحديث»، ورأى الثاني في «المدرسة» إمارة حديثة. هناك، في الحالين، توليد المتوقع من اللامتوقع، والركون إلى الفعل العاقل وطاقة المستقبل. تقاطع المفكران السياسيان وافتراقا، استلهم الإيطالي تجربة عارضة مثلها «سيزار بورجيا» فوق إقليم إيطالي صغير، وآمن الثاني بنجارب تصل بين الزمن الفرعوني وزمن الثورة الفرنسية. والفرق بين الاثنين هو قياس الزمن، فبين ميكيا فيلي وبورجيا فترة زمنية قصيرة، وبين حكمة الفراغة وأفكار «العقد الاجتماعي» قرون كثيرة.

حمل حسين خياره الثقافي وانتقل من حزب سياسي إلى آخر، ومن جريدة حزبية إلى أخرى، ودخل إلى حكومة وخرج إلى غيرها مستمراً موقعه، دائماً، في فتح مدرسة وتدشين جامعة وترجمة كتاب والحض على ترجمة كتب اختارها. كتب لويس عوض في «ثقافتنا على مفترق

الطرق» عن أحوال طه حسين في فترة ١٩٤٤ - ١٩٥٠ : «كان أعداء الديمقراطية في مصر يدركون كما كان يدرك أنصارها أن طه حسين رغم أنه كفّ عن الكتابة في السياسة، إنما كان في حقيقة الأمر ينشغل بالسياسة على نطاق أكثر فاعلية من كتابة المقالات السياسية بكل جامعة يفتحها، وبكل مدرسة يؤسسها، وبكل تلميذ يأخذ بيده لينير عقله ويهيئ وجدانه بنور العلم وضياء الثقافة». وضع حسين، منذ شبابه المبكر، سياسة ثقافية ذاتية أراد لها، لاحقاً، أن تصبح سياسة ثقافية جماعية، حلالاً ببقعة أرخميدسية لن يصل إليها، لأن في مشروعه ما يقوّض أسس السلطات التي كان يدور بين جدرانها. جاء في «مستقبل الثقافة في مصر» الفقرتان التاليتان، تمس الأولى منهما أحوال الحاكم التقليدي : «إن الحاكم الجاهل يخضع قلبه وعقله وضميره وملكاته كلها لإرضاء شهواته، وإذن فسيستبد إن وجد القوة، وسيظلم إن مُدّت له أسباب الظلم، وسيطغى إن هُمّيت له وسائل الطغيان... وهو في هذا كله لاعب بالشعب والشعب غافل عنه، لأنه لم يُتقف، ولم يُعلم، ولم يُهَيأ لمحاسبة الحكام والنواب»، وتلمس الثانية أحوال الشعب المحكوم : «يجب أن يتعلم الشعب إلى أقصى حدود التعليم، ففي ذلك وحده الوسيلة إلى أن يعرف الشعب مواضع الظلم، وإلى أن يحاسب الشعب هؤلاء الذين يظلمونه ويذلّونه، ويستأثرون بشمرات عمله وجدّه، فيردهم إلى العدل والإنصاف، ويضطّروهم إلى أن يؤمنوا بالمساواة قولاً وعملاً، وإلى أن يحققوا المساواة في سيرتهم، لا في هذه الألفاظ الجوفاء التي يضلّلون الناس بها تضليلاً...». شاء طه حسين تعليمياً يردع الحكام الظالمين عن ظلمهم، ويهيئ للمحكومين وسائل يهزمون بها الطغاة. أراد تعليماً مبرّأ من ذلك السخف المتداول الذي يستبدل بجهل القراءة ألواناً من الجهل أشد خطراً وأسوأ وبالاً. ولهذا نبذته الأطراف جميعاً، حتى التي كرمته وأخذت عليه الثناء. بقي مشروعه مستقبلياً، ينتظر إرادات عاقلة وشريفة، كتلك التي علمت طه حسين أشياء كثيرة. يقول ديكاكارت : «لا يوجد سوى الإرادة وحدها التي أختبرها في داخلي، وهي كبيرة لدرجة أنني لا أدرك أكبر منها، بحيث تجعلني أدرك أنني أتخذ صورة الله وأشبهه». لم يشبه طه حسين، الذي علم غيره وتعلم من غيره، إلا نفسه، التي أرادت أن تضع المعرفة في خدمة «المُعَلِّين في الأرض».

قال طه حسين، قبل أكثر من ستين عاماً، بما لم يقل به غيره إلا بعد فوات الأوان : ثورة ثقافية شاملة تقطع مع الميثاقين، بلغة سمير أمين، وتأسس لوعي علماني، التوحيد العضوي

بين القومية والعلمانية والديمقراطية ، قراءة حاجات الحاضر من وجهة نظر المستقبل . طالب ، في هذا كله بالقطع مع ماضٍ مجرد ينتائج في «فتاوى» لا تقل تجريداً ، والانطلاق من حركة الأشياء الحقيقية ، يميز آيين تاريخ زائف قوامه الماضي المطلق وتاريخ فعلي يندمج مع تاريخ الحداثة العالمية . فلا فردا ، ولا ما هو قريب من الفردة ، لأن تواريخ الشعوب جميعاً متقاطعة متواجهة ، لا موقع للصفاء المزعوم فيها ، إلا لدى من يرفض الآخرين ويؤثر العبودية على التفاعل . إن التعليق من تقديس الماضي المجرد ، كما رفض الهوية الفقيرة المغلقة ، هو الذي قاد حسين إلى توزيع هويته المصرية على هويات إنسانية كثيرة ، وهو الذي قاده إلى اختصار الأزمنة جميعها إلى زمن فعلي وحيد هو : الحاضر .

٥- في راهنية طه حسين :

على الرغم من النقد الذي توجه إلى المقدمات الفكرية التي قام عليها كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» ، وقد أتى من جهات كثيرة متعارضة ، فما زال كتاباً يحتفظ بصحة أفكاره الأساسية . تكشف دلالاته بالمقارنة مع «مشاريع» أخرى همشته وتوهمت تجاوزها وانتهت إلى الإخفاق والبوار . فبعد مرور سبعين عاماً تقريباً على ظهور الكتاب ، عاد العرب ، الذين فاتهم قطار التاريخ ، يتحدثون «مكرهين» عن الديمقراطية ، لا عن تلك الديمقراطية المنهجية الواعية لأهدافها ، التي قال بها حسين ، بل عن ديمقراطية أخرى ، تحيل على السوق والتداعي العربي الاستثنائي ، أو على إرادات خارجية تجمع بين الموسمية والذرائعية .

بعد أن انتظر طه حسين زمناً ينصف «المعذنين في الأرض» جاءت ثورة عبد الناصر ، وهي الشكل الأرقى والأكثر نزاهة في الانقلابية العربية ، لتقوض الأطروحة الأولى في مشروعه ، أي الديمقراطية مختزلة التعليم إلى ثنائية التلقين والاستظهار الفاسدة . فقد أصدر القائد العام للقوات المسلحة في السابع عشر من كانون الثاني عام ١٩٥٣ بياناً حل فيه جميع الأحزاب السياسية وصادر جميع أموالها «لصالح الشعب بدلاً من أن تنفق في بذور بنور الفتنة والشقاق» . رد حسين ، الذي زواج بين الديمقراطية والثورة ، على بيان القوات المسلحة دون إبطاء ، وذلك في مقال له عنوانه «تحرير العقل» نشره في عدد كانون الثاني عام ١٩٥٣ من مجلة الكتاب ، قال فيه : «فمصر لا تحتاج إلى شيء بمقدار ما تحتاج إلى أن تحرر عقول أبنائها ، وهي إذا حررت عقول أبنائها بلغت

كل ما تريد في فروع الحياة جميعاً. . . والعقل الحر هو الذي لا يقبل إن يفرض السلطان السياسي عليه رأياً من الآراء ومذهباً من المذاهب. أو سيرة بعينها في التفكير والتعبير والعمل والنشاط. والعقل الحر هو الذي لا يقبل ديكتاتورية مهما يكن لونها، ومهما يكن غرضها، ومهما يكن أسلوبها في الحكم. لن نرضى من الثورة إلا بأن يتسع سلطان العقل حتى يغزو بالمعرفة نفوس المواطنين جميعاً. وبأن تتسع آفاق العقل حتى يتلقى المعرفة من أقطار الأرض جميعاً، وبأن يعظم سلطان العقل حتى لا يخشى رقيباً حين يعلن ما يرى خطأ كان أم صواباً. رفضت ثورة يوليو، منذ البداية، الديمقراطية ورفض طه حسين، منذ البداية، الديكتاتورية. كان على الثورة أن تدفع به، برفق، إلى التهميش والصمت، وكان عليه أن يدفع نفسه إلى المجاملة والانطواء. ولهذا انتهى مشروعه الفكري، في ألوانه جميعها، مع ثورة يوليو، فلم يعطِ إلا كتاباً واحداً لا يضيف إلى تراثه الشيء الكثير هو: «الشيخان» - ١٩٥٩ - مكرراً، طيلة الستينات اللاحقة، أنه يرغب بوضع جزء ثالث عن «الفتنة الكبرى»، دون أن ينجز ما قال به.

أقام جمال عبد الناصر إصلاحه الاجتماعي على نظام ديكتاتوري، مؤمناً بأنه «المخلص الموعود»، الذي أملت عليه ديكتاتوريته أن يكبّل المصريين قبل أن يقودهم إلى معركة التحرر. كان طبيعياً، وكما ذكر رؤوف عباس في كتابه المضيء «مشيناها خطى»، الذي صدر عن دار الهلال - ٢٠٠٤، أن يتداعى التعليم، الذي هوّنت شعبيته من قيمته، وأن تبدأ الجامعة المصرية رحلة الخراب، بعد أن تساوى العقل النقدي والحيانة الوطنية، وغدا الولاء السياسي، إن لم يكن «الأمني»، مرتبة معرفية. دافع حسين عن سلطان الديمقراطية وسلطان العقل، وتوسعت ثورة يوليو في سلطة الرقابة ومجانسة العقول الصامتة، ونصّبت السلطة عقلاً وحيداً ينوب عن العقل الاجتماعي. انتهى النظام الناصري إلى ما انتهى إليه وهو يُنهي الفضاء السياسي المجتمعي، الذي هو مقدمة الحداثة الاجتماعية. لم تكن الإيديولوجيات القومية العربية الأخرى إلا كاريكتوراً شائهاً للتجربة الناصرية، تمكّلت سلبه ونحت ما هو إيجابي فيه مجسّدة، بشكل غير منقوص، كل ما يرفض الحداثة ويبدّد عناصرها، بدءاً بنشر الصمت المعتم وانتهاج بتلقين مدرسي، يطرد فيه سلطان الامتثال سلطان العقل طرداً عنيفاً. يقول ألان تورين في كتابه «نقد الحداثة»: «إن الحداثة ليست انتصار الواحد ولكن اختفاءه، وتأسيس إدارة العلاقات المعقدة والضرورية على التحديث وعلى الحريتين الفردية والجماعية». أنتجت سلطات الإيديولوجيات القومية

انتصار الواحد التقليدي على المتعدد الحداثي، وذلك في عملية اختزال بائسة، تختزل المجتمع إلى الحزب الواحد والحزب إلى قائله وتختزل العلاقات معاً إلى إيديولوجيا تلفيقية، تتضمن التراث والحداثة والعلمانية والإيمان الديني، كي تسند مشروعية مفقودة، كلما تأكلت استندجت بالسلطان الديني وطاردت أكثر أشباح الحداثة الاجتماعية.

ندد «مستقبل الثقافة في مصر»، في صفحات طويلة، بالأقلية المتعلمة التي تحتكر المعرفة، مانعة عن الشعب حق التعليم، وبالنخبة السياسية التي تحتكر القرار، حارمة الشعب من حق المشاركة السياسية، وندد بتحالف الأقليتين اللتين تحولان الشعب إلى رعية أو إلى شيء كالرعية. تطلع في تنديده إلى كسر الأحادية والواحدية، مدافعاً عن التعددية السياسية وعن ذلك التعدد الخصب الذي يأخذ بيد المجتمع إلى التقدم. أنجزت الأنظمة العربية، في أشكالها المختلفة، تحويل الشعب إلى رعية والمدرسة إلى فضاء متزاحم، يشبه الأزهر القديم، وتحويل المثقف إلى واعظ قديم، يرتاح إلى تلك الأقلية التي تهلك الشعب، وهي تحكم باسمه. وإذا كانت بعض الأنظمة لم تر من الحداثة إلا استهلاك السلعة الأجنبية، فإن أنظمة أخرى انتسبت إلى الحداثة كي تستأصل جذورها، مساوية بين قومية متخيلة واستبداد حقيقي، وبين أحادية سياسية وإفقار ثقافي شامل. ولعل هذه المساواة هي التي جعلت الحداثة، لدى شعوب أزهقت عقولها، مرادفاً للأنظمة التي استبدت بها، فبحثت عن الخلاص في إيديولوجيات دينية هي صورة عن الإفقار المجتمعي الشامل، لأن قراءة النص الديني في مجتمع متخلف الثقافة تنزع إلى التخلف. لا غرابة أن يتحدث خلدون النقيب عن «فقه التخلف»، الذي حققته الأنظمة العربية، أو النظام العربي، بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، في مقابل «علم التقدم»، الذي صاغه طه حسين بأشكال مختلفة.

لا يكمن بؤس النظام العربي في اجتراث أسس الحداثة، بل في إنتاج شعوب معادية لها، احتجاجاً على أنظمة لم تحدث، في زمنها السلطوي الطويل، إلا أجهزة القمع والرقابة. ومن الأكيد، الذي لا يماري فيه إلا المثقفون الوعاظ، أن رفض الحداثة يعود إلى انحطاط السلطة لا إلى رداءة الأتباع، لأن الناس لا يولدون معادين للحداثة، بل يصبحون كذلك. ولهذا لم يكن الفرنسي توكفيل مخطئاً حين قال بشيء أقرب إلى البدهة: «لا يولد المجتمع المدني من مجتمع للعبيد»، الذي يمكن صوغه، عربياً، بطريقة مختلفة قليلاً: «لا يولد المجتمع المدني من مجتمع الحر الوحيد فيه سلطة تتقن تبديل الناس إلى عبيد». والتفسير قال به الكواكبي في جملة مضيئة

مفادها: إن المستبد بهم إذا طال عهدهم بالاستبداد نسوا نقيضه فلا يبحثون، إن ملّوا من السلطة، عن حاكم عادل بل عن مستبد آخر. لا غرابة أن يبقى المجتمع المدني، الذي قال به فلاسفة التنوير الأوروبيون منذ القرن السادس عشر، مفقوداً في العالم العربي، يتطّير منه الحكام ولا يكثر به المستبدّ بهم، لأنهم لا يعرفونه. وصل المجتمع العربي، على طريقته، إلى «نهاية التاريخ، منذ أن تعود إلغاء التناقض بين الإنسان والطبيعة مستبدلاً بالعلم الحديث الفقه القديم، وإلغاء التناقض بينه وبين المجتمعات الحديثة، منسجماً من الزمن العالمي ومكتفياً بأزمة الأصول».

لا تعني هزيمة مشروع طه حسين عدم صلاحيته، إنما تعني عدم صلاحية القوى الاجتماعية التي توجه إليها. ظل مشروعاً موجلاً، كلما زاد تأجيله أمست شروط تحقيقه أكثر صعوبة. كتب عبدالله العروي، قبل أكثر من ثلاثين عاماً، في كتابه: «العرب والفكر التاريخي»: «لم يستوعب الفكر العربي مكاسب العقل الحديث من عقلانية وموضوعية وفعالية وأنسية الخ... لكن هذا الاستيعاب مهما تأخر، سيبقى في جدول الأعمال، كلما تأخر تشابكت الأوضاع وضعفت فعالية المجتمع العربي ككل...». صيّرت الثلاثون عاماً، التي أضيفت إلى ثلاثين عاماً سابقة، المجتمع العربي مجتمعاً منهاراً، يتفرّج على المجتمعات الحية ويجتر ثقافة الأدعية.

مراجع الدراسة

- ١- طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، الطبعة الأولى، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر.
- ٢- طه حسين: قادة الفكر، مجموعة الأعمال الكاملة، الطبعة الثانية، ١٩٧٥، بيروت، ص، ٢٠٧.
- ٣- قضايا وشهادات: طه حسين، المقالة، الديمقراطية، الحداثة، المجلد الأول، مؤسسة عيال للدراسات والنشر، قبرص، ١٩٩٠.
- ٤- عبد الرشيد الصادق محمودي: طه حسين: من الأزهر إلى السوريين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣ (الفصل السابع ص: ٢٢٣-٢٦٤).
- ٥- آلان تورين: نقد الحداثة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧، ص، ١٢٤.
- ٦- لويس عوض: ثقافتنا في مفترق الطرق، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٣، ص، ١٢٨.
- ٧- تيموثي ميتشل: استعمار مصر، دار سينتا للنشر، القاهرة، ١٩٩٠، ص، ١٠٧-١٢٨، وص، ١٨٥-١٨٦.
- ٨- من كتاب قضايا وشهادات المشار إليه، ص، ١٨.
- ٩- نوربرتو بوبيو: الليبرالية والديمقراطية، دار كنعان، دمشق، ١٩٩٤، ص، ٤٠-٤٦.

الصورة في خطاب ابن عربي بين التوالج والتجلي

خالد بلقاسم

١، منطلقات منهجية

١، ١، إذا كانت الكفاية التفسيرية لكل خطاب واصف تتحدد بالمفاهيم التي يتوسل بها وبطريقة بنائه لها، فإن ما يميز بناء ابن عربي لمفاهيمه انفصاله عن المسبقات واحتكامه إلى التجربة الذاتية، فالتجربة عنده، كما عند غيره من الصوفية الذين سبقوه مبدأ تأويلي، على نحو ما لاحظ ذلك بول نويا اليسوعي في رصده للبذور الأولى التي امتنتها الصوفية في نظرية التأويل^(١)، بذور بها أرسوا انفصالهم عن الفقهاء وعلماء الكلام والفلاسفة، إن إشراك التجربة في بناء المفهوم يجعل هذا البناء سيرورة مقترنة بالأحوال والمقامات والأذواق، وهكذا فإن قيمة المفهوم عند الصوفية لا تتكشف من حمولته المستنبطة فيه فحسب، وإنما من آلية بنائه، إنها الآلية التي سمحت بالانتقال من المفهوم المجرد إلى المفهوم - التجربة، مما يلزم من يروم مصاحبة بناء ابن عربي للمفاهيم بالتخلي عما يسميه الصوفية بالحد الذاتي لعدم انسجامه مع تأويل له وضعية السفر،

١، ٢، يترتب عما تقدم توزيع خاص لعناصر بناء المفهوم في تأليف الصوفية، إذ يخضع هذا البناء إلى تبديد لافت، تتحكم فيه، من جهة، تجربة رهيبة بتجليات متجددة في سيورة لا متتهية، فيما تتحكم فيه، من جهة أخرى، قصدية لا تتنكر للإرادي فيها، لتوضيح هذين الموجهين للبناء بالتبديد عند ابن عربي، نشير إلى أن التحكم الأول مشدود إلى تجربة لا تخضع إلى تسلسل أو انتظام عقليين بقدر ما تخضع إلى أحوال متحصلة عن مسعى بلوغ المطلق، الذي يظل مستحيلا، وبمواجهة هذه الامتحالة تتحول التجربة إلى سفر دائم يحصن المفهوم المتحصل عنها من أي تحديد نهائي، التحكم الثاني يتداخل فيه الصريح بالضمني، والقصدي باللاإرادي، ففي مقدمة كتاب الفتوحات المكية، يصرح ابن عربي بأنه تعمد تبديد نظريته^(٣)، كي يظل الكتاب مفتوحا على درجات متباينة في التلقي، وتحقق للقراءة دلالتها الجمعية، غير أن ابن عربي يعود في الكتاب ذاته ليعلم عن حدود إرادته في بنائه، إذ عد تربيته وتنظيمه خاضعين للفتح والتنزل، أي لما يتحصل عن التجربة، نافيا قدرته على التدخل الإرادي فيه^(٤)، كتاب قائم على الفتح لا تحتفظ فيه القصدية بدلالة بسيطة، وإنما تتسع في منحى إشكالي مشدود إلى علاقة الإلهي بالإنسي كما يحياها الكاتب الصوفي^(٥)،

١، ٣، حرص ابن عربي على التكم صونا للأسرار، مما يجعل بناء المفهوم في خطابه مهمة مشتركة بين الكاتب والقارئ، يقوم التكم، الذي يعول عليه خطاب الشيخ الأكبر، على الإشارة بما هي «تقريب وإبعاد»^(٦)، انسجاما مع الضدية التي تنطوي عليها دلالة السر بما هو إظهار وإخفاء^(٧)، وبين الإظهار بوصفه تقريبا والإخفاء بوصفه إبعادا تشتغل آلية التأويل عند الشيخ الأكبر^(٨)، وهو ما تستعيد القراءة في مسعاها إلى ملء البياضات وافترض وشائج يظل تشعبها رهينا بكفاية كل قارئ، أي بقدرته على وصل الظاهر بالخفي، وعلاوة على ذلك، فإن السر عند ابن عربي متعدد الأبعاد، فحرصه على صونه واستناده إليه في البناء ينسجم مع آلية أخرى في التأويل لمسها في دلالة أخرى للسر، نقصد الدلالة على التوالج، فالجنر (س، ر)، ر، يدل، مما يدل عليه، على الجماع وعضو المذكورة^(٩)،

١، ٤، مفهوم الصورة مدخل رئيس إلى تصورات ابن عربي، فقد توصل به في بناء تصوره الأنطولوجي وإرساء نظريته عن المعرفة، كما عول عليه في فهم علاقة الإلهي بالإنسي، لذلك

بلقاسم: الصورة في خطاب ابن عربي

لم يكن المفهوم في خطاب ابن عربي موضوع تأمل وحسب، وإنما أداة قرائية أيضا، ولعل هذا ما يفسر الحضور اللافت للمفهوم في مؤلفات الشيخ الأكبر، ولا سيما إذا تنبهنا إلى تشغيله له بدوال عديدة، ومن ثم يبدو تطويق قضايا المفهوم عنده في مقال محدود ضربا من الاستسهال، فإذا سلطنا بإمكان إغجاز هذا التطويق، فإنه لا يستقيم إلا بدراسات يسهر عليها فريق متخصص، ووعيا منا بتشعب الموضوع، فإن مسعانا في تأمله لا يتجاوز البحث عن مواقع قرائية تسهم في الاقتراب من اشتغال المفهوم، وستقتصر في ذلك على آليتين تحكمان هذا الاشتغال هما آلية التوالج وآلية التجلي، قبل ذلك نشير، على نحو عام، إلى الدور الذي تنهض به الصورة في نظرية المعرفة عند الشيخ الأكبر^(٩)،

٢، وضعية الصورة في نظرية المعرفة عند ابن عربي

لا تفصل الكفاية التأويلية التي رسخها ابن عربي، بطريقته الخاصة، لمفهوم الصورة عن رهانه المركزي على الخيال في بناء تصوره الأنطولوجي والمعرفي، فإذا كان توسله بالخيال في تفسير الخلق الإلهي متشعبا على نحو يتجاوز ما هو مرسوم لهذا المقال، فإننا يمكن أن نلمح باختزال شديد للأهمية التي يوليها ابن عربي للخيال في المعرفة،

ميز الشيخ الأكبر، جريا على طريقة صوفية قبله، بين العلم والمعرفة، يتحصل الأول عن النظر الفكري، وبذلك «لا يسلم أبدا من دخول الشبه عليه»^(١٠)، وإن كان ابن عربي لا يلتزم بهذا التحديد، ولا سيما عندما يقيد العلم على نحو يمكنه من فصل العلم اللدني عن غير اللدني، لذلك فخطابه الواصف يحتفظ بمصطلح العلم حتى في تأمله للمعرفة، التي يعدها علما متحصلا عن عمل وسلوك مما يجعلها كشفا محققا لا تدخله الشبه^(١١)، عندما يتحصل العلم عن الفكر يكون عرضة للخطأ أما عندما يتحصل عن العمل فإنه يصبح بآمن منه،

يبدو العمل المؤدي إلى المعرفة، في خطاب ابن عربي، كأنه استحقاق للخيال بما هو جمع بين طرفين، وبما هو قوة تمكن من معرفة الشيء في غيره، فهذا العمل يتيح التقرب من الحق، بالمعنى الذي يتأوله ابن عربي من الحديث القدسي الذي يصبح فيه الحق، نتيجة هذا التقرب، جميع قوى المتقرب؛ يصبح سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به^(١٢)، وبذلك يتسنى للعارف أن يدرك الحق بالتجلي، أي بوصفه صورة، النظر الفكري لا يمكن من إدراك

المطلق، ما يمكن من ذلك هو العمل لبلوغ معرفة خيالية تسمح بالافتتاح على العالم وعلى النفس بوصفهما صورة للحق،

إنه التأويل الذي ينجزه الشيخ الأكبر لقوله تعالى «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»^(١٣)، ولا فرق عند ابن عربي بين العالم والنفس إلا في الحجم^(١٤)، ومن ثم فإن معرفة الحق تتم اعتمادا على ذات العارف بعد أن يتحقق هذا العارف من أنه صورة كما يستشف من الحديث النبوي «من عرف نفسه عرف ربه»^(١٥) وهو ما يعلق عليه ابن عربي على النحو الآتي: «فجعلك دليلا أي جعل معرفتك بك دليلا على معرفتك به (...) فالرسول عليه السلام ما أحالك إلا على نفسك لما علم أنه سيكون الحق قواك فتعلمه به لا بغيره»^(١٦)، لا تتحصل المعرفة، إذن، إلا عندما يدرك الصوفي ذاته بوصفها صورة للحق، فتغدو هويته برزخية، فقد سئل الجنيد عن العارف فقال لون الماء لون إنائه، وهو ما علق عليه الشيخ الأكبر بقوله إن العارف «متخلق بأخلاق الله حتى كأنه هو وما هو هو وهو هو»^(١٧)، الذي يتقاطع لديه مع حديث قدسي غير ثابت الصحة، جاء فيه «كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبه عرفوني»، ومع أن الحديث غير ثابت الصحة، فقد عول عليه ابن عربي، لأنه يسمح بالكشف عن خصيصة رئيسة في الصورة، هي رؤية الذات في الغير، دون أن يكون هذا الغير منفصلا عن الذات على نحو ما هو ملمح إليه سابقا،

إن هذه الخصيصة، المحددة لاشتغال الصورة، أساسية في نظرية المعرفة عند ابن عربي، فقد بنى هذه النظرية على سبعة علوم هي العلم بالأسماء الإلهية، والعلم بتجلي الحق في الأشياء، والعلم بخطاب الحق عباده المكلفين بالسنة الشرائع، وعلم الكمال والنقص في الوجود، وعلم الإنسان نفسه من جهة حقائقه، وعلم الخيال، وعلم الأدوية والعمل^(١٨)

وهي علوم تحكمها وشائج متشعبة تحتاج إلى دراسة مستقلة، لذلك نكتفي بالإشارة إلى أن ما يصل بينها هو نهوضها على علاقة خيالية، وهي العلاقة التي سنرصدها انطلاقا من التوالج والتجلي لا بوصفهما موضوعين، وإنما بوصفهما آليتين، الانتقال من الموضوع إلى الآلية إبدال لموقع القراءة ورومان على السري في خطاب ابن عربي،

ثمة تثليث تنظم وفقه الصورة، وفي ضوء علاقة عناصره تشتغل، وهو ما يحقق يرزخيتها، التي يحكمها التوالج، فالصورة حصيلة ثالثة لتوالج طرفين، توالج يجعل منه ابن عربي آلية سارية في كل مظاهر الوجود، وبه يفسر الخلق والإيجاد، فلا إيجاد بلا توالج، وقبل رصد اشتغال التثليث في الصورة، نشير إلى بلذته المستتبّة في الأمر الإلهي الأول «كن»،

أخضع ابن عربي الأمر الإلهي «كن» لتحليل متشعب يغري بجمعه في كتاب مستقل، لأنه مهدد في كتاب الفتوحات المكية وفي غيره من الكتب، وسيكون هذا الجمع، إن هو استند إلى أسئلة منهجية، مدخلا لفهم طريقة ابن عربي في معالجة العديد من القضايا،

لبذرة التثليث وجوه عديدة في تحليل ابن عربي، نكتفي منها بماله صلة بمفهوم الصورة، ينهض الأمر الإلهي الأول على أمر ومأمور بالتكون ومتحصل عن الأمر، وبذلك لا يلغي ابن عربي دور المأمور في ما يتولد عن الأمر، لأن الخلق عنده لا يتم من عدم، ثمة سامع للأمر، وهذا السماع هو ما نقل المأمور من الثبوت إلى الظهور، لأنه قابل للتكون، ولولا هذه القابلية ما تكون^(٢١)، وسيجد مفهوم القابل، الذي تأول به ابن عربي الأمر الأول، امتداده في مفاهيم أخرى أهمها مفهوم المحل الذي أضاه به العلاقة المرآوية كما سنشير إلى ذلك، ما يعيننا في هذا السياق هو أن التكوين في الأمر الإلهي الأول حصيلة تفاعل، وهو ما يرصده ابن عربي على نحو سري في تأويله لعلاقة الكاف بالتون في «كن»، مع التنصيص على دلالة اختفاء الواو بينهما، وانطلاقا من ذلك ينتهي إلى أن إيجاد الكون كان عن الفرد لا عن الواحد، يقول «أول كلمة تركبت كلمة «كن» وهي مركبة من ثلاثة أحرف كاف، واو، ونون، وكل حرف من ثلاثة فظهر التسعة التي جذرها الثلاثة، وهي أول الأفراد، وانتهت بسائط العدد بوجود التسعة من «كن»، فظهر بكن عين المعدود والعدد، ومن هنا كان أصل تركيب المقدمات من ثلاثة، وإن كان في الظاهر أربعة، فإن الواحد يتكرر في المقدمتين، فهي ثلاثة وعن الفرد وجد الكون لا عن الواحد (٢١)»، هي ذي، في نظر ابن عربي، حقيقة «كن» التي يتوقف عليها الإيجاد (٢٢)؛ حقيقة سارية، وفق آلية التوالج، في مختلف مظاهر الكون، يواصل ابن عربي رصدها في المعاني والموجودات، ولنا أن نتأمل الصورة عنده من هذا الموقع على نحو يسمح بالكشف عن إنتاج الصورة للدلالة، انطلاقا من توالج يحكمها،

يتوصل ابن عربي، في الغالب الأعم، بالمرآة لتقديم تصويره عن الصورة، فيضيء بالمرآة ما يتكتم عنه عندما يعرض للصورة مقترنة بالله أو بالمرآة، والشيخ الأكبر حريص، بهذه الإضاءة، على إبراز التثليث الذي تسمح بملاسته وضعية الصورة في المرآة، ثمة راء ومحل رؤية وصورة متحصلة عن العلاقة بين الطرفين، أي بين الرائي ومحل الرؤية، ما يظهر في المرآة لا يخضع للرائي فحسب وإنما للمحل أيضا، وقد أسهب ابن عربي في توضيح دور المحل في ظهور الصورة، على نحو ممكن من نقد الاستسهال الذي ينطوي عليه القول بوظيفة الانعكاس، حصر علاقة المرآة بالرائي في الانعكاس يلغي دورها في بناء الصورة ويجعلها سلبية، يقول الشيخ الأكبر «واعلم أن أشكال المراتي تختلف فتختلف الصور، فلو كان النظر بالانعكاس إلى المراتي كما يراه بعضهم لأدركها الرائي على ما هي عليه من كبر جرمها وصغره، ونحن نبصر في الجسم الصقيل الصغير الصورة المراتية الكبيرة في نفسها صغيرة، وكذلك الجسم الكبير الصقيل يكبر الصورة في عين الرائي ويخرجها عن حدها، وكذلك العريض والطويل والمتوج، فإذا ليست الانعكاسات تعطي ذلك»^(٢٣)، بالتشبيب على الانعكاس كان ابن عربي يدمج المحل في إنتاج الصورة، على نحو يجعل الصورة وليدة تفاعل وتوالج، لأنها مرتبطة بالإيجاد والخلق، هكذا عد ابن عربي الصورة في المرآة جسدا برزخيا^(٢٤)،

فمادام الإيجاد لا يستقيم إلا بالفرد، الذي هو الثلاثة، لأن أول الأعداد الفردية عند الشيخ الأكبر هو الثلاثة لا الواحد^(٢٥)، فإن الصورة لا توجد إلا بتفاعل طرفين، كل توالج يقتضي اثنين، وما يحقق الإيجاد هو العنصر الثالث أي تفاعلهما،

إن البرزخية التي تسم الصورة تجعلها منتجة لمعرفة لا يسمح بها كل طرف منعزلا عن الآخر، وقد عد الشيخ الأكبر هذه المعرفة المبنية على التوالج أرقى المعارف، لأن «البرزخ أبدا هو أقوى في الحكم لجمعه بين الطرفين»^(٢٦)، لذلك حرص ابن عربي على إلغاء مفهوم الانعكاس وتعويضه بمفهوم التضاييف لما يسمح به هذا المفهوم من بناء ينهض على التماس والتوالج والتفاعل، الانعكاس يلغي دور المرآة ويجعلها محايدة، الفاعل فيها، وفق هذه الوظيفة الاختزالية، هو الرائي وحده، أما التضاييف فيدمج المرآة في الفعل ويسمح بالتنبه إلى عنصر ثالث يتولد بين التضاييفين،

إن المعرفة المتولدة عن الصورة لا تنفصل عن التماس المتحكم في ظهورها، فكون الصورة حصيلة تفاعل بين اثنين يجعل المعرفة التي تنتجها تقوم على هذا التفاعل أيضا، لأنها تتيح للشيء

رؤية نفسه في غيره، وهي بذلك تظهر وتخفي، وثبتت وتنفي، لقدرتها على استيعاب التضاد، بل إنها تقوم عليه، فهيبتها من هوية المعرفة التي تتولد عنها، أي المعرفة الخيالية، لذلك كانت الصورة، في منظور ابن عربي، مبنية على هذا التضاد الذي هو وجه من وجوه التثليث المتحقق في البينية، ومن ثم فالصورة عنده «منفية ثابتة، موجودة معدومة، معلومة مجهولة»^(٢٧)،

تتقاطع خصيصة البينية، المتحركة في اشتغال الصورة، مع مكونات الحقل الدلالي لكلمة السر في اللغة العربية، وقد استغل ابن عربي إمكانات هذا التقاطع على نحو واسع كما هو ديدنه في بناء تأويله، فدلالة السر على الكتم والإظهار سمحت باستثمار ضديته، أما دلالاته على عضو الذكورة ففتحت التأويل على مسالك خصبة أغنت خصيصة البينية، لأن إنتاجية هذا العضو تتحقق بين الظهور والاختفاء لا فيهما متفصلين، وهذه الإنتاجية هي التي تحدده، «فكل سر لا يولد ولا ينتج لا يعول عليه»^(٢٨)، حقيقة السر، بهذا المعنى، تتكشف بين طرفين، على نحو يلتبس فيه انتماءه، فلا يتبدى لأي طرف منهما يتناسب،

ومن ثم فاقتران الصورة بما يسميه الشيخ الأكبر بعلم الأسرار لا يسوغه استيعابها للضدية فحسب، وإنما بعضه، أيضا، اشتغالها بتوابع يضيئه الجماع بامتياز، هكذا كان استثمار ابن عربي لدلالة السر مزدوجا، فقد توصل به في إبراز آلية التوابع في الصورة، واعتمده في تقديم المفهوم، لأن هذا التقديم استند إلى الإظهار والإخفاء، والتقريب والإبعاد، أي إلى الإشارة بالمعنى الذي يصوغه لها،

المعرفة المتحصلة عن الصورة متمنعة عن الإدراك العقلي، فمعرفة الشيء لنفسه لا تستقيم لعلم النظر، الاقتراب منها لتحقيق تجربة متشعبة يبني فيها العارف مسافة خاصة مع الوجود تمكنه من إدراك التوابع ساريا في كل شيء، ومن ثم فالعلاقة مع الصورة ليست تأملا عقليا، وإنما هي تجربة تستدعي ذوقا متحققا، فيه تتحصل المعرفة، لذلك انبنت معرفة المطلق عند الشيخ الأكبر على الصورة، معرفة المطلق، في تصوره، تتم بمعرفة النفس التي لا تستقيم إلا بمرآة تستعيد تجربة الحب الأول، أي حب الله أن يعرف بأسمائه، فليس عبثا، إذن، أن يضيء ابن عربي الصورة، التي يعدها المناسبة الأعظم والأجل بين الله والإنسان

^(٢٩)، اعتمادا على المرأة، إضاءة متعددة الأضلاع، تمتد جذورها إلى تصور الشيخ الأكبر عن الأنوثة وعن علم التوابع الذي يرصد النكاح في مختلف مظاهر الوجود، لذلك نقتصر في

الاستثناس بهذه الإضاءة على ما ألح إليه ابن عربي في الفصل الذي ختم به كتابه فصوص الحكم، أي الفصل الخاص بالحقيقة المحمدية، وقد سماه فص حكمة فردية في كلمة محمدية، فص يقوم على إبراز هذه الحقيقة، انطلاقاً من تأويل للحديث النبوي «حب إلي من دنياكم ثلاث؛ النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة» (٣٠)، وفي هذا التأويل نثر على إشارات دالة على آلية التوالج المتحركة في اشتغال الصورة، نختزلها في العناصر الآتية:

أ- خص ابن عربي حكمة الحقيقة المحمدية، التي تمثل عنده أكمل صورة ظهر فيها الحق، بوسم الفردية، ومعلوم أن الوصف الذي توسل به الشيخ الأكبر في تقديم كل حكم الأنبياء في كتابه فصوص الحكم متقني بعناية فائقة، لأن هذا الانتقاء موجه بخلفية معرفية تروم تكثيف حقيقة كل نبي، أي الحقيقة التي لا تنقيد بالنشأة العنصرية للنبي، إن وسم الفردية، الذي خصت به الحقيقة المحمدية في سياق تأويل حديث مرتبط بمحبة النساء، إبرازاً للتثليث، لأن أول الأفراد الثلاثة، كما أشرنا إلى ذلك، فكانت الحقيقة المحمدية، بما هي حقيقة جمعية^(٣١)، قائمة على التثليث الذي تضيئه العلاقة مع المرأة، لأن فردية هذه الحقيقة ناجمة عن شفع قدمه الحديث انطلاقاً من المرأة لما لذلك من دلالة، خصوصاً أن ابن عربي ينص على أن «كل تفريد لا يكون عن شفع لا يعول عليه»^(٣٢)، وإلى جانب ذلك تستدعي فردية الحقيقة المحمدية ما وجه الحب الأول الذي عنه ظهرت الموجودات، لهذا عد ابن عربي الرسول عليه السلام «أدل دليل على ربه»^(٣٣)، أي أنه الصورة الجامعة التي تتجلى فيه جميع حقائق الأسماء الإلهية (٣٤)،

ب- كشف تأويل ابن عربي للحديث الذي ينهض عليه فص حكمة فردية في كلمة محمدية عن رصد الخلق الإلهي القائم على الصورة انطلاقاً من حب الرجل للمرأة، وقد استحضّر الشيخ الأكبر، في سياق التأويل، ظهور حواء عن آدم ليقدم شوق الرجل إلى المرأة على أنه حنين كل إلى جزئه^(٣٥)، وأوضح أن هذا التقديم يعضد تصوره للمرأة، التي تسمح برؤية الذات في الغير، إذ يتبدى في سياق التأويل أن معرفة الرجل لنفسه لا تتم إلا في الصورة التي تنتجها المرأة بما هي امرأة، كما يتبدى أن الشوق إلى المرأة ليس إلا شوقاً للذات في الغير، إن الآلية المتحركة في هذه العلاقة ليست، في نظر الشيخ الأكبر، إلا استعادة لشوق كان موضوعه النشأة الإنسانية، وإن كانت حقيقته هي اشتياق الحق لنفسه^(٣٦)، ذلك ما يكشفه ابن عربي بقوله «أعظم الوصلة النكاح وهو نظير التوجه الإلهي على من خلقه على صورته ليخلفه فيرى فيه نفسه»^(٣٧)،

ج- للتثليث في سياق تأويل ابن عربي للحديث، الذي يقوم عليه الفصل المشار إليه سابقاً، وجه آخر متشعب، تقدم فيه المرأة بوصفها صورة، فيها يعرف الرجل الحق، يقول ابن عربي: الصورة «زوج أي شفعت وجود الحق، كما كانت المرأة شفعت بوجودها الرجل فصيرته زوجاً، فظهرت الثلاثة حتى ورجل وامرأة؛ فحن الرجل إلى ربه الذي هو أصله حين المرأة إليه، فحبب إليه ربه النساء كما أحب الله من هو على صورته (٣٨)»، وقد واصل الشيخ الأكبر الإنصات لهذا التثليث، اعتماداً على تأويل يعول على الحقل الدلالي لكلمة السر في اللسان العربي، ثم انتهى إلى أن «شهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكملة (٣٩)»، وبذلك فتح ابن عربي للتثليث مسالك أخرى تعرض على موقع قرائي غير هذا الذي نتوصل به للاقتراب بما يحكم الصورة ويوجه اشتغالها عنده،

ويالجمله فإن ماله دلالة في هذا السياق هو استدعاء ابن عربي للمرأة لتقديم تصوره عن الصورة، استدعاء مكن، على نحو سري، من إبراز آلية التوالج التي تتأسس عليها الصورة، وانطلاقاً من هذه الآلية تبدي أن المعرفة التي تتجهها الصورة برزخية، وهي بذلك متمنعة عن العقل، لأنها معرفة تقوم على التجربة وتستدعي الجسد بما يتيح من إضاءة لرؤية الذات في الغير، لقد تكشف مما تقدم أن رؤية الشيء لنفسه في نفسه لا تعطي المعرفة التي تسمح بها رؤية الشيء لنفسه في غيره، وهذه العلاقة، التي أضاعها ابن عربي اعتماداً على المرأة، لا تقتصر، كما ألمحنا إلى ذلك، على المرأة المادية المعلومة وإنما تتجاوزها إلى امرأة ذات دلالة أوسع، فإدراك هذه العلاقة بوصفها آلية يوسع دلالة المرأة أيضاً، يقول ابن عربي: «الشيء لا يرى نفسه في نفسه عند المحققين، وإنما يرى نفسه في غيره بنفسه، ولذلك أوجد الله المرأة والأجسام الصقيلة لئلا يرى فيها صورنا، فكل أمر ترى فيه صورتك فتلك امرأة لك^(٤٠)»، بهذا التوسيع الذي يشمل دلالة المرأة يغدو مفهوم الصورة إجراء خصباً لقراءة العلاقات في الوجود بوصفها علاقات مرآوية، لا تقوم على الانعكاس وإنما على توالج أساسه رؤية النفس في الغير وبه، وفي ضوء ذلك يمكن تأمل علاقة الرجل بالمرأة في اتجاهيهما المختلفين، وعلاقة المبدع بالكتابة أو غيرها من العلاقات التي ترسخ اتساع دلالة المرأة، على نحو يمكن من تحيين الإمكان المعرفي الذي تنطوي عليه قراءة ابن عربي للتوالج في الصورة،

٤ ، الصورة والتجلي

ثمة موقع آخر لرصد الصورة في خطاب ابن عربي تسمح به آلية التجلي ، وهي آلية تنطوي على التثليث المشار إليه سابقا ، لأنها تقوم على علاقة بين المتجلي والمتجلي له وصورة التجلي ، وكما نص الشيخ الأكبر على أهمية المحل في ظهور الصورة نص أيضا على دور المتجلي له ، لأن الحكم هو أبدا للاستعداد ، فالتجلي «لا يكون إلا بما أنت عليه من الاستعداد الذي به يقع الإدراك الذوقي»^(٤١) ، ولا ينفصل هذا الاستعداد عن التجربة التي يخوضها الصوفي تقريبا من المطلق ، لن تناول آلية التجلي من موقع هذا التثليث ، وإنما سنقاربها من زاوية أخرى تفتح أفقا آخر للتأمل ، إنها الزاوية التي تسمح بالاقتراب من التجدد الذي يحكم اشتغال التجلي ،

إن الخروج من الكثرة إلى الظهور تم اعتمادا على حب أوجد العالم بوصفه تجليا لموجده ، لذلك عد ابن عربي علم التجليات ، في نظريته عن المعرفة ، من أعلى طرق العلم^(٤٢) ، علو يرجع إلى عنصرين ، أولهما خفاء موضوع هذا العلم ، فهو يشتغل على الموجودات بوصفها تجليات ، أي صورا كاشفة وحاجة للمتجلي فيها^(٤٣) ، وبدون هذا الإدراك ، الذي يجعل التجلي مستمرا بدون انقطاع ، لا يستقيم هذا العلم ، العنصر الثاني المؤسس لعلو علم التجليات نهوض هذا العلم بتأويل مضاعف يسمح بعد الوجود مناما ، وبذلك يتجاوز علم تأويل الرؤى المعلومة ، الذي خص به يوسف عليه السلام ، إن التأويل المضاعف ، الذي يتيح علم التجليات ، مقام محمدي يتجاوز المقام اليوسفي ، حسب ابن عربي^(٤٤) ، فقد خص به الرسول عليه السلام كما يتبدى من قوله «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» ، وهو ما استنتج منه ابن عربي أن «الوجود كله خيال في خيال»^(٤٥) ،

إن هذا التصور عن الوجود اقتضى تمجيد علم يتوجه إلى موضوعه بوصفه صورا ، كل واحدة منها تشتغل وفق علاقة معقدة تصل ظهورها ببطونها ، وهي علاقة خيالية متمنعة عن العقل ، فالخيال يقوم على صور لا تترك إلا بالقلب ، لأنه الأقدر على التقلب بقلب الصور ، إدراك يتحدد بوصفه تجربة وذوقا^(٤٦) ، وقوة هذا القلب التي يسميها الصوفي الهمة تنطوي على فعل التأمل والتخيل والشغف ، على نحو ما لاحظ هنري كوربان لما عد الكلمة الإغريقية *Enthymesis* مقابلا لكلمة الهمة^(٤٧) ، وعموما فالقلب في خطاب ابن عربي دال آخر من دوال الخيال ، ولا سيما خيال التجلي ، وبالجمله فإن موضوع الخيال لا يستقيم للفهم ، في نظر ابن عربي ، إلا بالخيال ذاته ، لثلاث تكون أداة الفهم من غير جنس موضوع هذا الفهم ، فالخيال وجود معيش ومتج معرفة

أيضا، وقد اهتم ابن عربي في فهمه للوجود، بما هو خيال، على آلية التجلي التي لا تستنى إدراكها إلا بتجربة تقوم على التخلي والتجلي، أي على عمل شاق عنه تولد المعرفة،

تقوم آلية التجلي على التجدد، على نحو يجعل منه سمتها الرئيسة، إن تجدد التجلي من تجدد المتجلي الذي له التبدل بإيقاع الأنفاس، مما يمنع تجليه في الصورة الواحدة مرتين، مهما بدا التماثل بين صور التجلي، ولا يتبدى موجه اشتغال آلية التجلي، القائمة على التجدد، إلا انطلاقا من العلاقة المعقدة بين الكشف والحجب فيها، أي انطلاقا عما يظهر ويطن، فالتجلي لا يكشف المتجلي إلا بحجبه^(١٨)، لأن المجلى ليس إلا صورة، وهذا الكشف بالحجب مرتبط بوضعية الصورة المتوقفة على علاقة ظاهرها بباطنها، فالصورة برزخ كما هو ملمح إليه أعلاه، إنها عين ما تكشف وغيره في الوقت ذاته، هذا الإدراك البرزخي لتلطيف أول من كثافة الصورة بما هي حجاب، غير أنه يحتاج إلى تلطيف آخر لا يقوم على إدراك الصورة بوصفها هي هو ولا هي هو فحسب، وإنما على إدراكها متجددة أيضا، وإن بدت ثابتة للعين، فالتجلي متجدد وصورة ظهوره متجددة أيضا، وإن حجب ذلك على غير العارفين، هذا الإدراك هو ما يجعل الحجاب كاشفا بتجده، إدراك التجلي متوقف، إذن، على خيال العارف، خيال لا يتحصل بدون تجربة خاصة يخوضها الصوفي مع الألوهية، يبلغ فيها وبها «إدراك كل الصور بوصفها مظاهر، أي إدراكها بما هي سوى وبما هي هو»^(١٩)، كما يبلغ بها رؤية هذه المظاهر متجددة على الدوام، إدراك الحجاب متجددا يلطف من كثافته ويسمح بالاقتراب من خصيصة التجدد التي تسم المتجلي، من هنا ذهب ابن عربي إلى أن «التجلي المتكرر في الصورة الواحدة لا يعول عليه»^(٢٠)، لأن تصور الوجود بوصفه تجليات متجددة ينفي التكرار في الوجود، فما يبدو تكرارا ليس إلا من مكر التجلي وعجز المتجلي له عن استيعاب خصيصة التجدد المحجوبة بتماثل الصور، ذلك أن المظهر الإلهي لا يتقيد، كما يرى ابن عربي، في نفسه وإنما يتقيد في نظر الناظر «وإدراك الفرق بينهما عسير جدا»^(٢١)، عسر هذا الإدراك ناجم عن تعقد آلية التجلي القائمة على التجدد، لأن التجدد في التجلي محجوب بمائلة تنطوي على الاختلاف، فالوجود، في نظر الشيخ الأكبر، سلسلة من التجليات المتجددة، ثمة في كل لحظة اختفاء وإيجاد دون أن يكون بينهما فاصل^(٢٢)، لأن الاختفاء والإيجاد لا يتوقفان، غير أنهما يتحققان في المائلة، أي في صور تبدو،

بالتماثل الذي يحكمهما، كأنها متطابقة مما يجعل الناظر يتوهم تكرارا في الصور، وواقع

الأمر، كما يرى ابن عربي، ألا تكرر في الوجود، ذلك أن الماثلة الظاهرة في صورته قائمة على الاختلاف، والتباس الماثلة بالتطابق يمنع إدراك دوام التجلي في الوجود، ومن ثم فالتطابق حجاب متحصل عن التوصل بغير المعرفة التي تقود إلى إدراك التجلي، لأن هذا الحجاب يحول دون ملامسة التجدد في الماثلة^(٥٣)، إن التجلي، حسب ابن عربي، دائم لا تقيدته الأوقات، فثمة، في كل لحظة، خلق جديد يتحقق في الماثلة المحجوبة بوجه التطابق، لأن «من المحال أن يبقى شيء في العالم على حالة واحدة زمانين^(٥٤)»، فدوام التجلي مبني على التحول في الصور التي تبدو كما لو أنها ثابتة بسبب التماثل الذي يحكمها، يضيء ابن عربي هذا التصور اعتماداً على مفهوم «الخلق الجديد»، الذي يوضح به آلية التجلي، انطلاقاً من علاقة المتجلي بصور الوجود، ويعضده بتأويله للآية القرآنية «بل هم في لبس من خلق جديد^(٥٥)»، تأويل يقوم على إبراز دوام الخلق في الوجود، إنه الدوام الملتبس على من لم يستند إلى معرفة القلب، أي المعرفة التي تبدو بها صور التجلي بدون نهاية تقف عندها^(٥٦)،

تكمُن أهمية التجدد، الذي تقوم عليه آلية التجلي، في إرساء معرفة تحتاج إلى تحيين متعدد الجوانب، وقبل أن نلمح لإمكان هذا التحيين، لنا أن نخترل أهمية تصور ابن عربي عن آلية التجلي في :

أ- الكشف عن محدودية النظر العقلي، الذي يمكن أن يعقل موضوعه بتقييده في حد ذاتي، يلغي التجربة ويمجد المفاهيم المجردة، ولا سيما عندما يقوم النظر العقلي على الفكر، وفي ضوء هذا الكشف، كان ابن عربي يرسخ، سيرا على ما أرساه صوفية قبله، معرفة تقوم على تجدد دائم لتجدد الموضوع الذي تروم الاقتراب منه، ولما كان موضوع هذه المعرفة قائماً على التجلي، فإنه كف عن أن ينحصر في مجال دون غيره، وهو ما يجعل هذه المعرفة مقترنة بالمسافة التي يفتحها الصوفي مع قضايا الاجتماعية والدينية وغيرهما،

ب- الانفتاح على صور الوجود بوصفها هي ولا هي، أي بوصفها برازخ، مما يسمح باستيعاب التضاد برؤية خيالية، وإدماج هذه الرؤية في المعيش اليومي،

ج- إدراك الاختلاف الساري في التماثل الظاهر،

د- بناء ذوق خاص لدى الصوفي يجعل حياته سفراً متجدداً، وهذا ما يفسر تمجيد الصوفية للحيرة، بل إن ابن عربي اعتبر الهدى «أن يهتدي الإنسان إلى الحيرة فيعلم أن الأمر حيرة

والخيرة قلق وحرقة ، والحركة حياة^(٥٧) ، فاستزادة الصوفي للتحرير طلب لإدامة التجلي^(٥٨) ، لأن إدراك دوامه يصون الصوفي من الحجاب المستقر ، مادام التخلص من الحجاب كلية رهان مستحيل في التجربة الصوفية ، والمعرفة التي لا تتجدد هي أكثر الحجب تهديدا لمسار يعول على التجلي المستمر ،

ما يغري بالتحسين في معنى الصوفي إلى إدراك التجلي هو المعرفة التي يعول عليها في اقترابه من موضوعه وفي العلاقة التي يفتحها مع الوجود ومع الله^(٥٩) ، مسالك هذا التحسين تشمل مجالات عديدة ، نقتصر في التمثيل لها على الآفاق التي تفتحها معرفة آلية التجلي للمسلم قصد إعادة بناء علاقته بدينه ، وما تسمح به هذه الآفاق من مساواة للغلو الذي يهدد هذه العلاقة ،

المعرفة التي تحصل عن خيال التجلي متجددة على الدوام ، لذلك نص ابن عربي على أن المعرفة التي لا تتنوع مع الأنفاس لا يعول عليها^(٦٠) ، معرفة هذه ستمتلا لا يمكن أن تهض إلا على القلق والخيرة ، كما لا يمكن أن تستقيم إلا في التأويل وبه ، وهو ما يضمن لها التجدد ، وفي ضوء تجديد هذا التجدد أدمج ابن عربي الخيال في الدين ، ونص في هذا الإدماج على دور آلية التجلي الموجهة للصورة في صون الدين من الجمود والانغلاق ، فمادام موضوع الدين قائما على الصورة ، أي صورة الله ، ومادامت هذه الصورة مبنية على التجلي ، فإن إنتاج معرفة مغلقة عن الدين ليست إلا حجابا يلغي التأويل الذي به يحيا الدين ،

إن علاقة الخيال بالدين في خطاب ابن عربي متشعبة ، تنطلق من أركان الإسلام إلى أكثر القضايا الدينية عمقا ، وهي بذلك تحتاج إلى دراسات مستقلة تستعجلها وضعية الدين الإسلامي في القراءات الراهنة ، من هنا نكتفي في الإلماح لهذه العلاقة بما يرتبط فيها بآلية التجلي ،

خص الشيخ الأكبر حيزا واسعا من كتابه الفتوحات المكية لإعادة تأويل أركان الإسلام ، على نحو كشف عن التخييل المتحكم في هذه الأركان (٦١) ، وهو متخيل يمنع تحويلها إلى رسوم جامدة ، وبذلك أرسى الشيخ الأكبر فقها يقوم على اعتبار الباطن ، فيه تبدت هذه الأركان بوصفها ممارسة خيالية لا مجرد شعائر متكررة ، غير أن هذا الفقه ظل منسيا إذا استثنينا بعض القراءات الاستشراقية (٦٢) ، وليست أركان الإسلام هي كل ما أعاد ابن عربي تأويله بإدماج الخيال ، بل وسع ذلك ليشمل كل مظاهر علاقة الإنسان بالله ، وفي هذا السياق مجد العبادة بالخيال وحذر من الجمود الذي يمكن أن يتسرب لهذا الخيال إن هو عجز عن ملاسة آلية التجلي ،

فالحيال، عند ابن عربي، معرفة مجددة للعلاقة مع الله، ولكن شريطة تجدد هذا الخيال وإلا تحول إلى موضوع عبادة، وهذا ما يستشف من قول الشيخ الأكبر إن من قيد الحق «بصورة دون صورة فتخليه عبد (٦٣)»،

يظل الخيال قادرا على إنتاج المعرفة ما احتفظ على خصيصة التجدد المؤسسة لموضوعه، تجدد يصون الصورة من أن تتحول إلى علامة، وكلما تحولت الصورة إلى علامة إلا وتسرب الجمود إلى الدين وتراجع التأويل المتجدد، مما يسمح بسرّان الغلو إلى الفهم والإدراك، فتوقف التجدد لا يمس إلا الإدراك، لأن موضوع هذا الإدراك متجدد على الدوام، غير أن من يتحصل له هذا الجمود يلتبس عليه الإدراك الذاتي بواقع موضوع هذا الإدراك، فيغدو الإدراك الجامد بديلا عن الموضوع المتجدد، وهذا حال اللبس من الخلق الجديد، تحويل الصورة إلى علامة هو بذرة الغلو، لأن هذه البذرة تنشأ من التحجر الذي يطول الإدراك،

يضيء ابن عربي تحول الصورة إلى علامة انطلاقا من مفهوم «الحق الاعتقادي»^(٦٤)،

مفهوم سمح له بالتمييز بين معتقد عارف يتسع قلبه لتحول الحق في الصور ومعتقد دغمائي يحصر الحق في صورة معتقده، وينكره في غيرها، وبذلك تتحول صورة معتقده إلى علامة، وتصبح وحدها الدالة على الحقيقة^(٦٥)، وواضح أن الحقيقة، بهذا المعنى، جمود يتعارض مع آلية التجلي، اقتران الحقيقة بعلامة ثابتة وانفصالها عن صورة متحركة ومتجددة إلغاء لانتفاع التأويل، على نحو يحول الدين إلى غمائل ويسمح لآلية التكفير بأن تصبح بديلا عن آلية التجلي، التي لا تحيا إلا بمعرفة متجددة، أي بتأويل محصن، إن وهم الانفراد بالحقيقة، الناجم عن تحويل الصورة إلى علامة، هو ما يفسر دغمائية المعتقدات والصراع المتولد بينها^(٦٦)، لأن هذا الصراع ليس مؤسسا على الاختلاف، وإنما يوجهه الإلغاء، من هنا تظل آلية التجلي تحصيلنا للدين من الدغمائية، وتحصيلنا للحق من التقيد، «فمن قيده أنكره في غير ما قيده به، وأقر به فيما قيده به إذا تجلى، ومن أطلقه عن التقيد لم ينكره وأقر به في كل صورة يتحول فيها ويعطيه من نفسه قدر صورة ما تجلى له إلى ما لا يتناهي، فإن صور التجلي ما لها نهاية تقف عندها»^(٦٧)، وقد كان ابن عربي واعيا بخطورة الغلو الذي يمكن أن يترتب عن عبادة العلامة، لذلك توجه إلى قارئه بالقول الآتي «فإياك أن تقيد بعقد مخصص وتكفر بما سواه فيفوتك خير كثير بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه، فكن في نفسك هوى لصور المعتقدات كلها»^(٦٨)، تطوي الدعوة إلى جعل الدين

هيو إلى لصور المعتقدات على تمجيد التسامح ، لأن مضمون هذه الدعوة قائم على مقاومة التشدد وتربية النفس على الاختلاف ، وهو المضمون الذي خبره الشيخ الأكبر تجربة في ما يدعوه بدين الحب ، دين مكن قلبه من قبول كل صور المعتقدات كما صرح بذلك في قصيدته الشهيرة ،

إن آلية التجلي غير منفصلة ، في تصور ابن عربي ، عن آلية التوالج ، وخصوصا عندما يقارب ابن عربي المتجلى له بوصفه صورة للمتجلي^(٩) ، مما يسمح برصد التجدد في ذات المتجلى له ، يفتح تأمل الوشيجة بين الأليتين ، انطلاقا من هذا الموقع ، على قضايا أخرى لا ننوي إثارتها ، حسبا أن نلمح لهذه الوشيجة بناء على ما يشدها إلى أفق التحين المشار إليه ، فقد تبدي أن الرهان من آلية التجلي هو صون الصورة من خطورة التحول إلى علامة بما يستتبعه هذا التحول من انغلاق يلغي الاختلاف ، وهذا الرهان سار أيضا في تمجيد ابن عربي لآلية التوالج ، ذلك أن هذه الآلية تنتج معرفة لا تقوم على الإلغاء وإنما على التماثل مع الغير ، مما يجعل منها معرفة مفتوحة تعول على هوية أساسها الاختلاف ، لأنها تتحدد بين اثنين ، وهكذا فإن معرفة الذات في الغير تشطب على الدغمائية المترتبة عن نسيان آلية التجلي ،

الهوامش :

paul Nwya, Exégèse coranique et langage mystique, Imprimerie catholique Dar (١)

٣١٨-١٠٠ ص. ١٩٧٠ ، el-Machreq éditeurs, Beyrouth

(٢) ابن عربي ، الفتوحات المكية ، دار الفكر ، المجلد الأول ، ص ، ٣٨ ،

(٣) المرجع السابق ، المجلد الأول ، ص ، ٥٩ ، والمجلد الرابع ، ص ، ٧٤

(٤) انظر تأملنا لهذا الإشكال في الكتابة والتصوف عند ابن عربي ، دار توفيق للنشر ، الدار البيضاء ، ط ١ ، ٢٠٠٤ ، ص ، ٨٣ وما بعدها ،

(٥) الفتوحات المكية ، للمجلد الأول ، ص ، ٢٧٨ ،

(٦) ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بدون تاريخ

(٧) ابن عربي ، كتاب شق الجيب ، ضمن مجموع الرسائل الإلهية ، حققه ووضع حواشيه إبراهيم مهدي ، مؤسسة الموارد الطاقية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩١ ، ص ، ٧١ ،

(٨) لسان العرب ،

(٩) ثمة منطلقات منهجية أخرى تعلمنا مصاحبة خطاب ابن عربي لمحصين القراءة بها ، وهي تحتاج إلى دراسة مستقلة ، لذلك اقتصرنا في الإشارة إليها إلى ما يقترن منها بموضوع المقال ،

(١٠) الفتوحات المكية ، م ، س ، المجلد الثاني ، ص ، ٢٩٨

(١١) المرجع السابق ، للمجلد الثاني ، ص ، ٢٩٧

- (١٢) المرجع السابق، المجلد الثاني، ص، ٢٩٨
- (١٣) المرجع السابق، الصفحة ذاتها،
- (١٤) ذلك ما فصل ابن عربي القول فيه في مؤلفه التفسيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، إذ بنى هذا الكتاب بأكمله على فرضية أن التجلي في الإنسان هو عينه التجلي في العالم،
- (١٥) حول الصوفية كثيرا على هذا الحديث، وإن لم يكن ثابتا، فقد أولاه ابن عربي عناية خاصة واستند إليه في إضاءة علاقة الإنسان بالله،
- (١٦) الفتوحات المكية، المجلد الثاني، ص و ص، ٢٩٨ و ٢٩٩،
- (١٧) المرجع السابق، المجلد الثاني، ص، ٣١٦
- (١٨) يعد هذا الحديث منطلقا مركزيا لتأويل ابن عربي، لذلك لا يكف من استدعائه في معظم كتبه، وهو حديث صحيح أورده البخاري،
- (١٩) الفتوحات المكية، المجلد الثاني، ص، ٢٩٩ وما بعدها،
- (٢٠) ابن عربي، فصوص الحكم، تحقيق وتعليق أبي العلا حفيظي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠، ص و ص، ١١٥ و ١١٦،
- (٢١) الفتوحات المكية، المجلد الأول، ص، ١٦٨
- (٢٢) المرجع السابق، المجلد الأول، ص، ١٧٠
- (٢٣) المرجع السابق، المجلد الأول، ص، ١٦٣
- (٢٤) المرجع السابق، الصفحة ذاتها،
- (٢٥) ابن عربي، التفسيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، تحقيق وتقديم حسن عاصي، مؤسسة بحسون، بيروت، ط ١، ١٩٩٣، ص، ١٨٩،
- (٢٦) الفتوحات المكية، المجلد الأول، ص، ٧٠٨،
- (٢٧) المرجع السابق، المجلد الأول، ص، ٣٠٤،
- (٢٨) رسالة لا يحول عليه، ضمن رسائل ابن عربي : تقديم محمود محمود الغراب، ضبط محمد شهاب الدين، دار صادر، بيروت ١٩٩٧، ص، ٢٥٨،
- (٢٩) فصوص الحكم، م، ص، ص، ٢١٦،
- (٣٠) المرجع السابق، ص، ٢١٤،
- (٣١) لجمعية هذه الحقيقة دلالة متعلدة الجوانب، انظر جانبها منها في مقارعة ابن عربي بين دعوة نوح ودعوة الرسول عليه السلام، المرجع السابق، ص، ٦٩ و ٧٠ و ٧١،
- (٣٢) رسالة لا يحول عليه، ضمن رسائل ابن عربي، م، ص، ص، ٢٥٤،
- (٣٣) فصوص الحكم، م، ص، ص، ٢١٤،
- (٣٤) المرجع السابق، ص، ٣٢٣ من تعليقات أبي العلا حفيظي،
- (٣٥) المرجع السابق، ص، ٢١٧،
- (٣٦) المرجع السابق، ص، ٢١٦،
- (٣٧) المرجع السابق، ص و ص، ٢١٧ و ٢١٨،
- (٣٨) المرجع السابق، ص ٢١٦ و ٢١٧،
- (٣٩) المرجع السابق، ص، ٢١٧،
- (٤٠) الفتوحات المكية، المجلد الأول، ص، ٧٣٩،
- (٤١) فصوص الحكم، م، ص، ص، ١٣٤،

- (٤٢) الفتوحات المكية، المجلد الأول، ص، ١٦٦،
- Henri Corbin، *L-Imagination créatrice dans le soufisme d-Ibn Arabi*، Fammariou، (٤٣) Paris، ١٩٥٨، ص، ١٢٣-١٣٣.
- (٤٤) انظر تفصيلاً أوسع لهذه المقارنة في مقالنا: الرويا في الخطاب المتقدم لتأليف ابن عربي، مجلة البيت، عدد ٧، خريف ٢٠٠٣، ص، ٨٧،
- (٤٥) فصوص الحكم، م، ص، ، ص، ١٠٤،
- (٤٦) *L-Imagination créatrice dans le soufisme d-Ibn Arabi*، op. cit، ص، ١٧٠،
- (٤٧) المرجع السابق، ص، ١٧١،
- (٤٨) المرجع السابق، ص، ١٤٥،
- (٤٩) المرجع السابق، ص، ١٤٦،
- (٥٠) رسالة لا يعول عليه، ضمن رسائل ابن عربي، م، ص، ، ص، ٢٤٩،
- (٥١) المرجع السابق، للصفحة ذاتها،
- (٥٢) *L-Imagination créatrice dans le soufisme d-Ibn Arabi*، op. cit، ص، ١٥٥،
- (٥٣) المرجع السابق، ص، ١٥٦،
- (٥٤) الفتوحات المكية، المجلد الأول، ص، ٧٠٠،
- (٥٥) سورة ق، الآية ١٥،
- (٥٦) فصوص الحكم، م، ص، ، ص، ١٢١،
- (٥٧) المرجع السابق، ص، ١٩٩ و ٢٠٠،
- (٥٨) كتاب التجليات، ضمن رسائل ابن عربي، م، ص، ، ص، ٤٢٥،
- (٥٩) تظلل المسالك الأخرى التي يفتحها تصور ابن عربي من التجلي محروسة على تأويل يروم التحيين، نشير هنا إلى المسالك التي يسمح بها رصد اشتغال هذا التصور في الخطاب الصولي، على النحو الذي يضيء وضعية اللغة في هذا الخطاب ويكشف عن آلية بناء الدلالة فيه،
- (٦٠) رسالة لا يعول عليه، ضمن رسائل ابن عربي، م، ص، ، ص، ٢٥٥،
- (٦١) راجع الفتوحات المكية، المجلد الأول، من ص ٣٢٩ إلى ص، ٧٥٩،
- (٦٢) انظر تحليل هنري كوربان للصلاة بما هي ممارسة خيالية في القسم الثاني من كتابه المشار إليه سابقاً، ولا سيما الفصل الثالث من هذا القسم،
- (٦٣) الفتوحات المكية، المجلد الأول، ص، ٤٩،
- (٦٤) فصوص الحكم، م، ص، ، ص، ١٢١،
- (٦٥) *L-Imagination créatrice dans le soufisme d-Ibn Arabi*، op. cit، ص، ١٥٣،
- (٦٦) المرجع السابق، الصفحة ذاتها،
- (٦٧) فصوص الحكم، م، ص، ، ص، ١٢١،
- (٦٨) المرجع السابق، ص، ١١٣،
- (٦٩) المرجع السابق، ص، ١٢١،



حوار مع جمال الدين بن التنيخ الإبداع العربي بين التثخيري والمتخيل أحمد المديني

فقدت الحياة الثقافية ، منذ أشهر ، الكاتب والشاعر والأكاديمي الجزائري جمال الدين بن شينخ الذي كان يكتب بالفرنسية . نحيّة لذكراه ننشر في ما يلي مقتطفات مَوْسعة من حوار طويل أجراه معه الكاتب المغربي أحمد المديني قبل ما يزيد عن عشر سنوات .

الشعر والشعراء :

من العصر الوسيط إلى الحداثة

* منذ أن ناقشت ، قبل عقدين من الزمن ، أطروحتك لدكتوراه الدولة ، الموسومة «الشعرية العربية» ، وأنت تواصل بدأب وشغف رحلتك في متون الثقافة العربية وحقلها الإبداعي على الخصوص . ولم يكن هذا العمل في الحقيقة ، إلا نقطة الانطلاق ، أو بالأحرى بداية

الباحث العربي في المحيط الثقافي الغربي (= الفرنسي) لانتهاج قطيعة مع التصوّرات والأدوات الكلاسيكية في قراءة الموروث الشعري العربي للعصر الوسيط، بغية الوقوف، بأدوات منهجية مستحدثة وجهاز مفاهيمي متطور، على ما يؤسّس خاصيّة الإبداع في هذا الشعر ونظامه، أي البويطيقا القرينية به. وهو ما أسميته بعبارة تك: «أن نجرؤ على القيام بفعل الشاعر» وأن نعيد خلق أنماط إبداع».

أعرف أن هذا كله أصبح بعيداً بالنسبة إليك، ولكنني أعتقد، أيضاً، بأن اشتغالك ورويتك ما زال لا يحتفظان براهنيتهما، وبالتالي بإمكانك إنعاشهما بالحديث عنهما مجدداً، وإعادة التعريف لمناسبة الحوار التي تجمعنا الآن.

♦♦ صحيح تماماً أن الشعر شكّل بالنسبة إليّ صلة الوصل الأولى لخوض البحث في الثقافة العربية، ومرجع ذلك إلى عدّة أسباب. أولها، ارتباط الشعر بعملية الجمع والتميز للغة، والتي بدت ضرورة محسوسة في الحضارة الإسلامية. فالإسلام سيلزم بثلاثة أمور مقترنة بالنصّ القرآني والمؤسّس لهذه الحضارة. في الأول، شرح اللغة وتحديد قواعدها. وغني عن الذكر أنّه من أجل فهم جيّد للقرآن، فإن توجّه العرب نحو الشعر لم يكن توجّهاً جمالياً. لقد كانت تلك ضرورة يمكن تسميتها بالضرورة اللاهوتية. إن فهم هذه اللغة، ووضع قاموس لها وتحديد قواعدها، كلّ ذلك سيجعل من الشعر بمثابة متنّ ثانٍ للتفسير القرآني. وعليه، فبمجرد ما يبدأ الإدراك بأن هذا الشعر بصدد فصم العُرى مع النصّ المؤسّس، سواء بمفرداته أو صوره أو تيمات، فإنه يخرج من دائرة الاعتبار بوصفه كتابة أصولية.

والنقطة الثانية التي ستجعل من الشعر محطّ عمل هي دراسة البلاغة. ففي نهاية القرن الثاني الهجري سيتبنّى للعرب أنهم بذلوا جهداً كبيراً في العمل المعجمي، وجهداً باهراً في الدرس التحوي، لكنهم سينهون إلى تقصيرهم من ناحية دراسة الأنماط التعبيرية للتفكير، وخاصة في ما يتصل بالسطرة النامة على فهم الصور البلاغية، وهو ما سيدفع إلى مبحث البلاغة، وفي الشعر. ولماذا الشعر؟ لأن هناك مشكلاً عويصاً يطرح تجاه القرآن، ويتمثل في كونه نصّاً مؤسّساً ومستعصياً على التقليد في آن واحد. هنا يعلن عن إعجاز القرآن، أي عدم إمكان محاكاته في طرائق إنتاجه للمعنى. وبالنتيجة، فإن البلاغة ستتخذ من الإعجاز مبحثاً أساساً لها بالاعتماد على المتنّ القرآني، لكن الشعر، أيضاً، سيكون له حظ لا بأس به في الاستشهاد، وبالتالي

سيأخذ حصّة مهمّة في تشكيل البلاغة العربية.

والنقطة الثالثة تخص حركة أو عملية تقلّص الشعر. فكما سبق أن ذكرت لم يكن المقصد عند العرب من الشعر ولا منحى الوصول إليه منحىً جمالياً، طالما أن الشعر كان مندرجاً في مجموع كلّ شيء هو المباحث الجوهرية، أي الأسس، التي هي التفسير والحديث والفقه، تليها الأبحاث الفرعية أو الفروع، التي هي النحو، واللغة والمعاجم إلخ... غير أن العرب أو الإسلام العربي، وبعد شرح القرآن، سيتقلّون أو يدخلون مجال الكتابة، أي أنهم سيشرعون في التفكير بالكتابة، وهم يكتبون، وهو ما يختلف تماماً عن التفكير شفاهياً أو بالكلام. سيتم الانتقال إلى تفكير كتابي، وسيشرع بالتفكير في عدّة قضايا مهمّة من بينها، في باب كتابة الرسائل، في ميدان السياسة، ما يتصل بتسيير وتدبير شؤون وسياسة الحضر. وكذلك التفكير في الأخلاق، وفي الأدب، أي ما له علاقة بتربية وتكوين المرء، الإنسان المؤمن، طبعاً. لكن الشر هو الذي سيتولّى التعبير عن هذا التفكير، أمّا الشعر فستوكل إليه مهام أكثر خصوصية أوضح مثال لها المديح، سيتقل الشعر إلى نوع من الوظيفة، وظيفة المدح السياسي. فيما سيلوذ الخلق والإبداع فيه إلى ميادين تعتبرها العقيدة، إما قاصرة أو خطيرة من قبيل أشعار الغزل والزهد والخمريات.

وستكون هذه الإبداعية هامشية، وسيبقى الإبداع اللغوي للشعر دائماً عند تخوم الكتابة الأصولية الأمّ. انطلاقاً من هنا، يتمرّس شعراء أمثال أبي تمام، البحتري، ابن الرومي، والمتنبي، أيضاً، يتمرّسون «بشعر مدرسة» وهي تسمية استعملت في فرنسا، في القرن السابع عشر، لتطلق على الشعر الذي يتجاوب وينضبط لمعايير وضعها لغويون أو بلاغيون أو نقادون من طراز ابن قتيبة وقدامة بن جعفر وابن طباطبا.

* أو إنها، أيضاً، معايير مستخلصة أو مستنبطة من النصوص الشعرية وكيفية بنائها وتكوينها.

** لا أرى ذلك، بل هي عملية مقلوبة. فانطلاقاً من متن محدّد وقواعد لغة مصنّفة ومقنّنة من طرف النخاعة من أجل شرح القرآن، سيتم تعريف ما هو الشعر، ذلك التعريف الذي سيفلت منه الكثير، فابن قتيبة، مثلاً، لا يتحدّث إلّا عن القصيدة غافلاً عن تجارب أخرى.

وسينجم عن ذلك أن النموذج النظري المعرف بدءاً من القرن الثالث الهجري سيلقي بظلاله على الإبداع، وسيصبح الشاعر ملزماً بالكتابة أو بنظم الشعر وفق تحديدات المنظرين. ولا ينبغي أن يغرب عن بالنا أن هؤلاء لم يكونوا يشتغلون على الشعر بوصفه نصّاً أدبياً فقط. لقد كان الأديبيّ غائباً عند عرب العصر الوسيط، فيما انصبّ اهتمامهم على نصوص المعرفة وكتابات المتخيل. لم يكن هناك أدب بالمعنى العصري - اليوم - للكلمة، بل إن الكلمة العربية القرينة بهذا المعنى لم تستعمل إلا في نهاية القرن التاسع عشر، وبصيغة الجمع، لتنتقل في ما بعد إلى المفرد.

الشاهد عندنا هو العصر الوسيط، وهنا، فإن الشعر كان مندرجاً في ثقافة شمولية، وليس من الممكن اجتزاؤه أو فصله عنها كما فعل ذلك المستشرقون جاعلين منه ضرباً من التعبير عن الجميل، أو تعبيراً عن العاطفة بانتزاعه من البيئة الكلّية للثقافة. والثقافة العربية بنيت مرتكزها ابتسولوجيا المعرفة، أي أن تراتبية المعارف تعطي موقعاً لكل الكتابات، والشعر من ضمنها يعزل عنه، ما عدا بالنسبة لشعر التصوف، فتلك قضية أخرى. وإذا، فإن ما يعينني، أنا، هو تعقّب خطى مغامرة الشعر هذه.

✽ على هذا الأساس فإن شعر العصر الوسيط، والشعر العربي الكلاسيكي عموماً، لا يعدّ في نظرك أكثر من عملية تطبيق لمعايير مفروضة من رجال المعرفة، فقهاء ولغويين ونحاة وغيرهم، والشعراء، إنما نظموا ونسجوا قصائدهم لتأتي متوافقة مع ضوابط سابقة عليهم، أو لا يوجد هنا بخس إعطاء هؤلاء الشعراء أو الشاعر الواحد - ما دمت تراهم ينسجون جميعاً على منوال واحد -، وحصرهم في دور من يعطي رجع النص المقدّس.

✽✽ لقد قلت إن الشعر متعلّق بهذه الثقافة، وإن المعجميين والنحاة حين يسعون لإعداد القاموس والنحو العربيين، فإن أمامهم متناً مكتوباً سلفاً، إنّه القرآن، وعليهم أن يشرحوا ويوضحوا هذا المتن، أن يفكوا مغاليقه. ولعلماء اللغة متنان: القرآن والشعر، وسيقومون بإعداد نموذج للغة عربية قديمة تصبح لها القوة الشرعية بينما تكلم العرب لغتهم من قبل، وطيلة قرون، دون أن يضعوا لها متناً، وكانت لهم استعمالات مغايرة جداً سواء على صعيد المفردات أو النحو. وما أن جاء الإسلام حتى قام بعملية توحيدية، والإسلام طراز

من الحضارة الموحدة، أي أنها مركزية، لها قلب ينبغي لكل ما هو خارجه أن يعود إليه، وسيتولى النحاة والمعجميون توحيد هذه اللغة. والشعراء، من جهتهم، سيصبحون مجبرين على التعبير بهذه اللغة، وحين سيستعمل أبو نؤاس أو أبو العتاهية لغة غير مألوفة سيتصدى لهما اللغويون، وكذلك الشأن مع أبي تمام في ولعه بالبعد في الاستعارة، ولذلك، فإن هني منصب على كتابات المتخيل.

إنني بصدد العبور بمجموع الأماكن التي حل بها المتخيل دون أي إيعاز قبلي، دون نحوي، ولا متكلم، ولا فقيه يأتي ليقول هكذا ينبغي أن تكون الكتابة. . إنني أعني حكايات ألف ليلة وليلة، كتب العجائب، قصص المعراج، كل الشعر الناقد من الأصول، فكل هذه النصوص ليست مُسَيِّرة، بينما المقامة لا تكتب، إلا هكذا، والقصيدة العمودية هكذا.

• وعليه، مرة أخرى، تؤكد أن الشعر العربي لم يوجد، إلا مقترناً بخطاب سابق عليه وضوابط مسبقه، وفي نهاية المطاف، فإن الوجه الإبداعى فيه منعدم أو شبه منعدم!

• لا، كلاً، لم أعن هذا. .

• وماذا عن الشعر الجاهلي. . أولم يوجد قبل الإسلام؟ لا بد للدارس أن يأخذه في الاعتبار. .

• أبدأ، أنا لم أتغافل عن الشعر الجاهلي، فهو من منظوري جزء من المتن الأصولي، وما حدث هو اقتطاف أشعار مختارة، وربما أيضاً تصحيح لغتها ليُقال لنا هذه هي المعلقات السبع أو العشر التي تمثل الإنتاج الشعري للجاهلية. وحين قام طه حسين ليقول إن هذا الشعر وُجد طيلة خمسة قرون، وإن القبائل كانت لها لغات مختلفة، وإن الرواة اللاحقين هم الذين رتبوا كل شيء؛ حين فعل طه حسين فعلته «النكراء» تلك قامت في وجهه القيامة كما تعلم، وفصلوه من الجامعة. علينا أن نتأمل قليلاً هذا الحدث. فهذا عالم، وكاتب مهم أيضاً، كل جريرته أنه ألقى بظلال شك علمي حول أصالة المتن الشعري للجاهلية داعياً إيانا للتأمل في حقيقة ما إن كانت النصوص المعلومة هي ذاتها التي قيلت في أصولها، ثم هناك نصوص أخرى. لقد أجبر طه حسين على تصحيح كتابه، وعلى مغادرة المدرج الجامعي.

الديني: حوار مع ابن الشيخ

لأعد إلى ما بدا أنه أعلاه، مذكراً بأن هذه الثقافة التي يعدّ الشعر جزءاً منها هي ثقافة موحّدة، إن للثقافة الإسلامية ثلاث وظائف: إنها مبنية، أولاً، على التوحيد، فكل شيء فيها النموذج هو شأنه، إنها حضارة نموذجية. لماذا؟ بسبب وجود نموذج غير قابل للمحاكاة في ممارسة اللغة، إنه القرآن. وهناك نموذج للكتابة الشعرية، إنه المتن الشعري للجاهلية، وكل المعارف العربية تشتغل على نماذج، فهي إذاً، توحيدية. الوظيفة الثانية هي انتقالها إلى مجال الكتابة أو المكتوب. حين يجري الحديث عن الإسلام يطول الحديث عن مرحلة الدعوة وانتشار الرسالة، وعن الفتوحات وغير ذلك، ولكن يتم نسيان شيء جوهري وهو أن الإسلام وحده علّم العرب التفكير بالكتابة. إنه شيء هائل حقاً. فعلى مدى قرنين استطاع الإسلام أن يوحد لغة العرب، وأن يحدّ حضارتهم، وأن يقيم مجتمعاً متعدّد العرقيات، وأن ينقل حضارتهم إلى التفكير المكتوب، وهو ما يسمّيه جان جوفيا العقل المكتوب.

استدراكاً لما سبق، فأنا لم أقل إن الشعر العربي ليس خلاقاً، وكلّ ما هنالك أن إبداعيته وُجدت في الحدود المرسومة له. ولأناظر معي إلى كتب البلاغة في القرن الرابع، في الموازنة بين أبي تمام والبحتري، أو حين يتعلّق الأمر بشعر المتنبي حيث تجد البلاغيين يقولون: حذار، إن الاستعارة هي كذا وليس كذا، والتشبيه والكناية ينبغي أن يكونا على هذا الوجه وليس على غيره، أو أن هذه الكلمة ليست مستعملة حيث ينبغي لها.

✽ علينا أن لا ننسى أن الشاعر العربي لم يقبل دائماً هذا التحكم، أوليس أبو نؤاس هو القائل «لنلك أبكي ولا أبكي لمنزلة (...).»

✽ أجل، ما في ذلك من شك، وهنا أسجل بأن بشار بن برد قد قُتل بتهمة الزندقة، وأن أبا نؤاس ربما قضى نحبه في السجن، وهذا ليس صدفة. الشيء نفسه بالنسبة للشعر الرافض للتقييد، إنه شعر الليبدو، شعر الروحية الغنوصية، والإبداع الأندلسي. هذه هي الينابيع الثلاثة الكبرى. وبالليبدو نمثي شعر الرغبة، ما يثير الحب ويستدعي الحمرة وتغنى بجمال العالم (التوريات)، (الروضيات) إلخ. وهذا تقليد وجد قبل الإسلام أيضاً، فقد أحبّ الناس العالم دائماً، وهو تقليد استرسل رغم اللغويين. أما الجمعي فإنه يحو هذا كلّه بجرّة قلم. وشعر الرغبة والفرح بالوجود الذي أتحدّث عنه سيواجه ثلاث عقبات كبرى في طريقه،

أولاهم، الفقهاء ورجال الدين الذين يعتبرون بصفة عامة أنّ تخصيص الشعر للتغني بالحياة الدنيا لهم من قبيل الخفة والاستهتار، وثانيتها أنّ هذا التغني شأن غير محمود بالنسبة للغة. لماذا؟ لأنّ في الغزل وشعر الخمرية استعمالاً للغة يقترب من الوجود المعيش، ولذا سيقرّر القدماء بأنه شعر محدث، وبالتالي فهو لا يمكن أن يؤصل للغة. ونحن نعرف أنّ القضية الأساس لدى النحاة واللغويين هي التوفّر على الشواهد، ونجدهم يقرّرون أنّه انطلاقاً من منتصف القرن الثاني الهجري لم يعد مقبولاً استمداد الشواهد من عند الشعراء.

* أي أن اللغة فسدت . .

** لا يقتصر الأمر على ذلك، أي على سلامة أو صفاء اللغة، بل لأن الشعر ينقل صوراً، كلمات وتيمات غير مقبولة، وإلاّ كيف يمكن أن يُنظر في تفسير للقرآن أو في تحليل فقهي، أو أدبي إلى أبيات شعرية تستعمل قاموس المجون والفحش، وهذه عقبة أخرى. وإذا، فإن العقبة الأولى تتمثل في خفاء وحرّاس المعرفة تماماً قد يلحق باللغة من فساد، والصّور والأخيلة من عبث. والثانية سيصطلم هذا الشعر بوضع التعددية العرقية على أساس أن «المفسدين» من أرومة غير عربية، وشعرهم يلحق الضّرر بالعروبة. فالأجانب دائماً هم محطّ كل التّهم، كل متجان الكوفة، منذ واهبة، وأبي نّوّاس ومطيع أبي إيّاس، كلّهم سيرمون بتهمة فساد الأصل، وعليه فلفتهم غير معتمدة، وهم أعاجم من خارج الأرومة الصّافية. يُقال هذا وسواه، وتقفز الذاكرة اللغوية والبلاغية والفقهية على ما هو موجود عند امرئ القيس، وطرفة بن العبد، وآخر أكثر قريباً هو عمر بن أبي ربيعة. والعقبة الثالثة التي يواجهها هذا التيار الشعري ذات طابع ديني صرف، ذلك أنّ هذا الشعر، الغزلي، الخمري، سيدخل في حساب التّصوّف.

* بآية كيفية أو معنى يمكن ربط التّصوّف بهذا التّيّار؟

** بمعنى استعماله القاموسي، أو إعادة استعماله وصبغه بصبغة روحية، وهو ما سيولد تعابير الخمرة الإلهية والمحبة الإلهية، وما شاكل، بدءاً من رابعة العدوية ووصولاً إلى الحلاج وابن الفارض.

* كل هذا لا يزحزح من اقتناعي بوجود عطاء إبداعي في الشعر المقتد، أما العقبات فبالإمكان تقديم المزيد . . .

* من جانبي أشدد على أن الإبداعية متوفرة في الأغراض والأنواع الشعرية غير المقتدة، أي ليست في قصيدة المديح، مثلاً.

* ولكن ما أكثر ما نجد هذه الأغراض (مديح، رثاء، هجاء . . الخ) تستخدم من لدن الشاعر مطبقةً لأمرٍ أخرى، وأن الأمر لا يقتصر على تعداد مناقب الممدوح، بل هناك أشياء أخرى تخص الشاعر، إحساساً وموقفاً وتعبيراً. ثم أليس الشاعر هو من يبنى وينسج نصه مما يدفعنا إلى القول بعدم النظر في هذا النص إلى ما يتصل بالضوابط القبلية وحدها، أو إلى التعريف النظري للشعر القائل: إنه كلام موزون مقفى يدل على معنى.

* ولكن النظري يتداخل في النص، وأنا لست متأكداً بالنسبة للشعر العربي القديم ما إن كان الشاعر هو الذي يدع النص أم أن هذا الأخير هو الذي يخلق الشاعر. ونحن نعرف، بعد هذا، أن قروناً من الاشتغال بنظام شعري تستتفز، شئنا ذلك أم أبينا. لقد عَمَّرَ الشعر العمودي طويلاً، قارن هذا مثلاً بالأدب الفرنسي. لم يزد عمر الكلاسيكية الفرنسية عن قرنين. ومنذ حقبة ما قبل الرومانسين، أي قبل الثورة، كان الشاعر الفرنسي حين ينظم شعره على بحر (ALEXANDRIN) (بحر شعري يتكون من اثني عشر مقطعاً صوتياً) يُقال له هذا طراز راسين، يُقال له هذا ليس بشعر. أنظر كيف كان زمن التطور مقتضباً.

* لكن ماذا عن هذه الحيرة في مصدر الإبداع: الشاعر أم النص . . ؟

* حين كان الشاعر العربي القديم يكتب، علينا أن نستحضر بأن ذاكرته كانت مشحونة بآلاف الأبيات، لقد كان مسكوناً حقاً. ولكي يثبت جدارته الشعرية كان لا بد له من كتابة قصيدة مديح، ولا أحد يصبح شاعراً كبيراً بكتابة الغزل أو الحمريات، فالتكريس يأتي أولاً مع المديح، تماماً كما هو عليه الشأن في المعهد الموسيقي، حيث لا يطلب منك أن تقدم عملاً إبداعياً في الموسيقى. كلاً تعطاك مقطوعة لباخ ويطلب منك العزف، وإذا لم تنفذ العمل

كما يجب فأنت لست عازف بيانو. هذا هو الأمر، والشعراء العرب كانوا، على طريقتهم، يذهبون إلى المعهد، إنهم حفاظ، يكتبون كما تنتظر منهم ثقافتهم أن يكتبوا، والشاعر يؤدي وظيفة أساسية، وظيفة نشر الثقافة، وإذا، فإن هذه الثقافة المتضمنة في الكلمات، والصور البلاغية، والمواضيع والمشاعر والمواقف. . هذا كله هو ما يشكل النص.

* كأي بك تقول: بالإمكان أخذ شاعر عربي واحد لنجد عنده الشعر العربي كله، والباقي مجرد تكرار واجترار!

** وأنت تقولني ما لم أقله. وأضيف بأن عدد الشعراء البارزين في القرن الثالث الهجري لا يتجاوز ثلاثة: أبو تمام، البحتري وابن الرومي، في قرن عرف مئات الشعراء. والباحث التونسي إبراهيم النجار فرغ مؤخراً من إعداد أنطولوجيا من ستة أجزاء عن القرن الثالث سماها: «الشعراء المنسيون». ثم إنه ليس من السهل أن تكرر، كما هو الشأن في المعهد الموسيقي، حيث لا يظهر أكثر من ثلاثة عازفين حقيقيين خلال القرن الواحد.

* في الكتاب الأخير، وبالإشتراك مع البروفيسور أندري ميكل، (عن العرب والإسلام - باريس، منشورات أوديل جاكوب، ٢٩٩١) نجدك تصدر جملة من الأحكام على الشعر العربي أقل ما يمكن أن توصف به أنها مقلقة، خاصة منها تلك التي تعني بها المنتبي الذي لا ترى فيه أكثر من خطيب وأنه سيد الخطابة العمومية، معتبراً شعره للسماع لا للقراءة. بالمقابل، فإنك تمحض إعجابك كله لأبي تمام الذي ترى أنه «أقر شعر الكتابة» (ص ٦٥)، وبأن شعره يندرج في تقليد «الشاعر كاتباً». وما يعنيني ليس هو معرفة قوة الحجة في مثل هذا التقويم، ولكن بالأحرى إلى أي حد يتطابق وخصائص الشعر العربي وكذا طريقة تلقيه. أما أن يكون شعر أبي تمام، وإليه كذلك أضيف أبا العلاء المعري على ما ذكرت، فهذا مما أغنى شعر العصر الوسيط.

** بالنسبة إلي لا وجود لما يقلق. فحين أقول عن المنتبي إنه خطيب فلأنه كان يحق سيد الخطابة في شعره، ولا هو لقب بالمنتبي عبثاً، ولأنه كان موهوباً في الدعوة لأيديولوجيا، وذو قدرة على التلاعب بالكلام. لقد كان باهراً في البداية، فقط، ثم لن يلبث أن ينضم إلى القطيع،

ليصبح مداحاً مثل الآخرين . وفي المتنبي المتمرد تجد كتابةً شعرية مدعومة بالشفوية ، هناك حركة ونَفَس وروح ودَقٌّ ، إنه الخطيب .

✽ أو ما نسمّيه في أيامنا الشعر المنبري؟

✽ بالضبط ، لأنّ المتنبي ليس كاتباً متوحداً ، فهو لا يحمل رقعةً وينزل ليكتب عليها بل هو شاعر مُطالب ، محتج ، صائح . ولذا فأنا أعتبر المتنبي مثلاً لآخر لحظة لشكل معين من البداوة ، في الوقت الذي كان فيه الشاعر حاذقاً في استعمال الكلمة .

وماذا عن أبي تمام؟ ما هي قضيّته؟ خلال إقامة له بخراسان اكتشف في خزانة الوالي مخطوطات متضمّنة للشعر البدوي ، ووجد فيها صوراً واستعارات ، وعكف على هذا الشعر قراءة ، ثم سراه يصبح أستاذ الجناس والاستعارة المركّبة ، والتشبيه ، ولا عجب بعد ذلك إذا أخذه الأمدى في «الموازنة» بما نعرف ، وكذلك قوله ابن الأعرابي «إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل» ، والسبب أن أبا تمام كان يفرق في الجناس ويولّد فيه ، ويلج على البعد في الاستعارة ، وهو عمل لا تنتج الشفافية بل المكتوب . وعليه ، فانا لست أتمنّ يقولون : الشعر العربي بإطلاق ، أو بصيغة الأفراد ، مفضلاً صيغة الجمع ، نظراً لوجود نماذج عديدة فيه بدلاً من نموذج واحدٍ أريد له أن يتفرّد ويهيمن .

نصّ المتخيّل

وفضاء الذات

✽ والآن ، لا شك في أنّك ستوافقني تماماً إذا قلت لك إنه أصبح بوسعنا ، بعد كل المسائل المهمة الفاتية ، أن نجعل حوارنا يأخذ نقلة نوعية مطلوبة ، أعني في المجرى الذي لا شك في أنّك أحببت أن يذهب فيه منذ البداية ، في نهر المتخيّل الذي أحس أنّك سبحت فيه دائماً ، رغم أن اهتماماتك الأكاديمية ، فكرية وأدبية على الخصوص ، كان لها قصب السبق عليه في البدء . في سبيل التعرف على طبيعة هذه النقلة ، هل لك أن تحدّثني عن الكيفية التي تمّ بها التحول من موقع البحث الأوّل ، الموصوف بالضبط ، عن الحوافز التي دفعت بك دفعاً

في المجرى الدافق لعالم المتخيل والحلم ، سواء في مصنفاتها المعروفة ، أو غيرها مما تواصل فيه النبش والحفريات .

الجواب لديّ جاهز ، وتختصره جملة واحدة مقولها هو : إنه أبو تمام . لقد كنت أقرأ الهجومات الموجهة ضد أبي تمام في أعمال كتاب مثل «الموازنة» للأمدي ، مثلاً ، وكنت أفكر في عبارة ابن الأعرابي ، المشار إليها آنفاً ، وتساءلت : لماذا يؤخذ على شعر أبي تمام أنه ليس شعراً عربياً؟ وشرعت في تحليل الفصل المخصص في «الموازنة» عن الاستعارة ، وفي «البعد في الاستعارة» خاصة . وقد لاحظت أن كل الاستعارات التي كانت محط انتقاد شديد في شعر أبي تمام وشعراء آخرين كانت تحيل في الحقيقة إلى متخيل لم يعد متقبلاً .

من ذلك مثلاً ، استعارات وقف عندها الأمدي ثم عبد القاهر الجرجاني ، بعده ، تتصل أساساً بمرجعيات ومعتقدات بدوية ، ذلك أن أبا تمام كان مُتَبَذِّناً وقرأ الكثير لشعراء البادية وتعلم منهم أخيلة تحيل إلى مخلوقات ما وراثية وإلى قوى كونية قائمة على عالم من التمثلات .

وقد خطر ببالي أن أتساءل وأضعأيدي على المفارقة : ما هو ذا كلام كثير عن الشعر والنظرية ، عن الوزن والقافية ، ولكن لا شيء عن المضامين . يجري الحديث عن الأغراض لكن ليس عن المضمون . وشيئاً فشيئاً طرحت السؤال المركزي : ترى ماذا فعل العرب بمخيلتهم؟ فحين ظهرت الرسالة المحمدية لم يكن العرب يعيشون حالة تظهر أو يتخلصون من كل ما تشكلت به أخيلتهم على مدى قرون ، حتى يتهاى لهم الانخراط في العقيدة الإسلامية . بل إن القرآن ذاته يظهر لنا ويروي قصصاً عديدة سينكب عليها المفسرون ، وستشكل حول المتن القرآني علوم ستسعى إلى كبت واستبعاد ما يمس العالم التخيلي وتصورات العوالم الأخروية . ولنا أن نتساءل عن المصير الذي آل إليه هذا كلّ . وماذا حدث؟ لقد تمّ ضبط كل شيء : التفسير ، الفقه ، الحديث ، وانتقل الضبط الديني ليسري على اللغة والشعور ، وأوضاع الحاضرة . بمعنى أنه شرع في تقنين الإنسان وتثبيت نماذج له . إن الثقافة العربية هي ثقافة النموذج . النموذج اللغوي ، النموذج الديني ، الأخلاقي ، الاجتماعي ، وعليه ، فقد تبين لي أنه تمّ كبت المتخيل الذي استطاع رغم ذلك أن يستمر . كيف تأتى له الاستمرار؟ يرجع ذلك ، إلى سببين : الأول كامن في تواصل التقليد الشفوي ، فهنا ينلدرج دور القاص في الحفاظ على هذا التقليد . لكن هذا وحده لم يكن كافياً . ذلك أن التخيل الذي يرتبط في كل الحضارات بالشفوي سرعان ما يضمحل إذا لم تأخذه

اللميني: حوار مع بن الشيخ

الكتابة بالحسبان . ومن جانبي ، فقد لاحظت أن حدود الكتابات العربية كانت متنافذة ، بمعنى أن التخيل كان قادراً على العبور بينها . فنحن نعر ، مثلاً ، في التفسير على الأسطورة ليس عند مقاتل وحده بل وعند الطبري ، وفي نصوص لابن الجوزي ، وللعلم ، فإن سبط بن الجوزي هاجم جده بعنف لقبوله الأساطير . وإذا ، فقد لاحظت ان كل نصوص المعرفة نفذ إليها التخيل . ثم ظهر لي ثانياً أكثر من ذلك ، بحيث وجدت أنه ليست هناك كتابة علمية (في علوم الدين واللغة) إلّا ولها نذ معين ، إنها مقترنة بكتابة غير علمية . وعلى سبيل المثال عندك كتب للتاريخ وأعمال موثوق بها مثل كتب الطبري وابن الأثير ، ولكن الى جانبها أعمال لنقل إنها من درجة أدنى معطاة بوصفها تعليقات تاريخية وناقلة لكل أنواع الحكايات والأخبار . وفي الأدب الجغرافي ، هناك في علاقات الأسفار أعمال موسومة بالعلمية مثل ما للمقدسي وابن حوقل ، وإلى جانبها أخرى لابن فضلان ، مثلاً ، مسكونة بالتخيل . وهذا الأخير يعمر الشعر ، بالطبع ، أكثر من أي مجال آخر . وهناك أيضاً ، الحكاية والملاحم الحربية وقصص الحب فضلاً عن حكايات ألف ليلة وليلة ، دون أن ننسى كتب العجائب . ثم إنني وقد أصدرت دراستي عن «الشعرية العربية» ، وبعد إعادة طبعها سنة ٩٨٩١ أضفت إليها بحثاً مطوّلاً ، قلت : الآن سأصرف إلى دراسة كتب العجائب ، وألف ليلة وليلة ، والرسائل ، لأرى عن كتب كيف استطاع التخيل العربي أن يتبلور ويندرج في الكتابة .

• حسناً ، كل ما قلته هنا مفيد وإن أثار فقط ، الجانب الخاص بفضول الباحث وعنصر الاستقصاء

العلمي ، لكن ماذا عن الحوافز الشخصية . . . الشاعر الذي هو أنت ، مثلاً ؟

•• أجل ، هذا صحيح تماماً . لقد كانت هناك حوافز أخرى ، ولطف منك الإشارة إلى حافز

الشاعر عندي . لدي دواوين وقصائد مشبعة بالإثارات ، ولكن ليس هذا كل شيء . لقد

حاولت النظر إلى الإنسان العربي ككل ، ولقد أريد لي دائماً أن أعرف على نموذج المؤمن ، ما

ينبغي لي وما لا ينبغي شأن ما نجد عند اللغويين : يقال ولا يقال . إنها القواعد ، ولم أستطع

تحمل هذا الوضع . حضارات أخرى متشرة أمام ناظري ، والكائن الإغريقي منتصب إزائي

بتناقضاته وتنازعاته ومشاعره . فلماذا يكون الإنسان العربي مصنوعاً بالإيمان وحده . . كلاً ،

هناك لا وعي ، وتخيل ورغبة ، لا كائنات مضبوطاً بقواعد العلماء ، وهذا ما قادني إلى ما أنا

بصدده الآن، أي إلى البحث في الحكايات والعجائب والليالي وصولاً إلى انشغالي الأخير بإعداد قاموس للعشق عند العرب، والدافع لهذا العمل بالذات انتباهي إلى أن تصريحات العلماء، وهم أجلاء لا ريب، تذهب إلى طرح آراء وإقرار مبادئ، وأن هنالك متحفاً أو خزانة عجيبة هي خزانة اللغة، قاموس الكلمات، وللكلمة ذاكرة رهيبية. وبعبارة مشيل فوكو، فالكلمة نوع وينبغي القيام بحفر، أي أن الكلمة والدلالات تنشأ على طبقات متتالية، وأنها لا تنسى الطبقات أبداً.

✻ ما أراني إلا مواصلاً الإلحاح على الحافظ الشخصي في هذا التوجه من البحث، الحافظ الذي يولده عالمنا الخاص، ذاك الذي كونه وعشنا فيه رغم كل تقنين من جانب الفقهاء أو سدنة التقاليد، الذين افترضوا كلية الإنسان العربي ووضع النموذج. فما أكثر ما مزقنا النموذج وتمردنا عليه، وذلك منذ الطفولة حيث عشنا حياتنا في ضرب من الازدواجية. في مدينة فاس، وأنا تلميذ، كنت أنتظر يوم الجمعة بلهفة، لا لأنه يوم عطلة فحسب، بل لأنه يمنحني فرصة التخلص من صرامة التعليم والحياة معاً، والهروب إلى «الحلقات» طلباً للحلم ورحلة الخيال بأجنحة تلك الحكايات على ألسنة رواة يجتمع حولهم في أطراف المدينة الأطفال والرجال والعاطلون والنساء أيضاً، والشيء نفسه كان يحدث في مدن عربية عريقة أخرى، دون شك، بحثاً عن الحلم حين نكون قد تركنا الأسوار وراعنا.

✻ أراك تقودني إلى النقطة الأخيرة، الأكثر أهمية بالنسبة إليّ. لقد تجسّد مساري بما أملته عليّ النظرة التي ألقيتها وألقيها على تبلور هذا الشكل من الإسلام الذي يسمى المجال أو المبحث الإسلامي. فانا الذي يكبرك سناً، بشكل محسوس، عشت أيضاً في حاضرة إسلامية، بين الدار البيضاء وتلمسان. في هذه الأخيرة تجد كل ما كان معهوداً في الحواضر الإسلامية، حيث فضاء الرغبة مرتب شريطة أن يكون على الهامش، أي ليس في قلبها ما عدا في قصور الملوك، وهذا شأن آخر. هذا، وسواء في بغداد أو في القاهرة أو القيروان، فإن كل النصوص تشهد كيف أن الرغبة والمتعة عرفا ترتيباً معيّناً في الفضاء. أنت تحدّثني عن فاس، وأنا أجلس لك مثال تلمسان. على بعد سبعة كيلومترات من هذه المدينة، وفي موقع بديع، في شكل شلالات متتالية، يتوافد عليه الشباب جميعهم، وحيث كان معروفاً أنهم

يطربون للموسيقى ويعاشرون الفتيات ويقضون أماسيهم بين الشرب والغناء، ثم يعودون بعد ذلك إلى تلمسان، وكما كنا نقول بعاميتنا «ماسحين شواربهم» لكن ابتداءً من بلوغ الشاب الخامسة أو السادسة والعشرين كان الأب يقرر بأن ساعة الزواج قد دقت ولا بدّ من رجوع الأمور إلى نصابها. وانظر إلى ما حدث الآن، حيث ظهر لدى سيطرة (الجهة الإسلامية) في الجزائر على البلديات (١٩٩١ و ١٩٩١) أن الإسلام الأصولي الحالي يريد أن يشغل كل فضاء الحاضرة، بينما كان الحكم الإسلامي سابقاً، وفي أغلب الأوقات، وحسب الخلفاء، يحافظ على نوع من التوازن بين واجب الاعتقاد وضرورة الوجود. ويبدو أن هذه الضرورة باتت مهددة بصورة جدية حقاً، ونحن نرى الآن إلى أين يقودنا اختلال التوازن هذا.

✽ إذا ما تتبعنا هذا المسار، سنجد في النهاية أن المتخيل العربي أو البحث فيه يأخذ شكله ومادته من خلال البحث المتعمق والدؤوب في ألف ليلة وليلة، على الأغلب.

✽ ولكنك تعرف أنني اشتغلت على نصوص أخرى: كتب العجايب، قصص الأنبياء... فهي الأعمال التي نصبت معالم فضاء التخيل. وإذا ما أخذنا لائحة الأعمال فسنجد أن ألف ليلة أثّرت للملاحم الحربية، للحروب البيزنطية والمسيحية ولقصص الحب، وكذلك عالم اللصوص والمحتالين (دليلة المحتالة، على الدّفن، ورؤساء عصابات بغداد). وصيغة عجيب وغريب ترسم منارة كل التخيل الذاهب نحو العالم الما ورائي. وهذا في الوقت الذي كان العلماء قد قاموا بالفرز في قصص الأنبياء بين الأخبار المحققة وغيرها من الأخبار والقصص غير المحققة. انهم قاموا، في الواقع، بعملية تشويه بإقرارهم معيار الحقيقة. لقد شوّها الحلم الذي تحدثت عنه آنفاً. ذلك أن هنالك فرقاً بين أن يكون نبي من الأنبياء قد ولد في سنة كذا، ونسب إلى القبيلة الفلانية، وأنه ولد بالفعل في مكان محدّد، فهذا مطلب الحقيقة. وبين أن يحلم الفرد بعيسى كما يشاء أو يحلم بموسى أو يوسف، إنه حقه المطلق في ممارسة إنسانيته، في إعادة تخيل الحروب كما جرت ضد هذه الفئة أو تلك، في حين أن حق الحلم هذا تعرض لهجوم عنيف على يد الكتابة العالمة وذلك باسم الحقيقة. علينا أن نصرح بأن الحق في الحلم يجعل معه الحق في شكل من الإرباك. فهناك ضرب من الاضطراب يحدث لأن التخيل لا يقبل الشّخرة، أي أنه ليس عبداً. وإذا كانت كتابة المعرفة

تكرّس لخدمة الحقيقة، فإن كتابة أو قول التخيل هو حرّ، وقادر على إبداع أشياء خارقة.

❖ سابقى متشبّهاً بتركيز الحديث على «ألف ليلة وليلة»، التي أصبحت من أبرز المختصين فيها بلا منازع.. أريد من ذلك أن نتحدث عن الحلم، ثم الحلم والحقيقة. والليالي هي الفضاء النصي لهذا الحلم أو أحد فضاءاته الغنية. لكن الحلم ليس واحداً. سأشرح: في كتابك «ألف حكاية وحكاية» تقول: «بين حياة غنية بالمغامرات العاطفية وشعر ليس إلّا الظل الباهت، بين الحب وخطاب وعظي يريد أن يسوده ويكتبه مثلما يستبعد خطراً، كان هناك مكان لفعل حلم حقيقي، لتمثيل غير مراقب، وعلى الجملة لقصة حب ملتقطة في جريان المعيش وليس في حركة الفكر. وليس كذلك في الحكايات القصيرة التي سجلتها كتب مثل «مصارع العشاق»، أو «كتاب الأغاني»، بل روايات حب حقيقية مبنية وموجهة بغية إعادة تركيب الوجود» (ص ٧٦٢). على ضوء هذه الفقرة أود أن أعرف المزيد، وخاصة ما تعنيه تحديدًا بالحلم الحقيقي، من جهة، وكون الليالي وضعت من أجل إعادة تركيب الوجود، من جهة أخرى.

❖ سيكون جوابي بالدرجة الأولى من خلال الحديث عن «رواية» الحب، ان هذه الرواية (وطبعاً ليس بالمعنى الحديث للجنس الأدبي) هي من ثلاثة أنواع: الإلهام الأساسي للروايات الأكثر أهمية جاء من الأوساط التي سُمّيت أوساط ظرفاء بغداد. وفي قصور الخلفاء كان يعيش جنباً إلى جنب شعراء وفنانون عظام، وأنا أرفض تسميتهم بالمغنين أو الراقصين، كذلك القيان والأميرات، أيضاً (عليّة بنت المهدي)، وغير هؤلاء. هذا الوسط تكوّن خارج الحاضرة الإسلامية الخاضعة لتعاليم رجال الدين، خارجها لأنه قريب من الحكم ولا أحد يجرؤ على المساس به، في داخل هذا الوسط، وفي قلب كل خلافة وجد العديد من الأمراء الذين يتحدث عنهم «كتاب الأغاني» الذين عديموا حظهم في الوصول الى سدة الحكم، وبالتالي، فهم يعيشون في القصور حيث يتكاثر الشعراء والفنانون والأميرات والقيان، اللواتي هن إماء في الأصل وأسميهن أنا نساء حُرّات لأنهن ترعرعن وتعلّمن في الحجاز، وتلقين لا الموسيقى وحدها بل اللغة والعلوم الدينية أيضاً، فهن نساء عالمات وممثلات لأنوثة منحررة. في مثل هذا الوسط نحب. هناك قصص حب بين أميرات وشعراء، لتتذكر العباس

بن الأحنف وفوز، التي ليست إلا عليّة بنت المهدي، وهناك علاقات من قبيل ما يطلق عليه «الشلوذ الجنسي»، والتي ستتج عنها وتترعرع مفردات أخلاقية مثلى كالمحبة والوفاء والتعفف الخ. . وتلتقي كلها حول ثابت واحد يؤكد فنّ العيش. هذه المفردات التي ستعمق في هذا الوسط الأخير، سوف يتسلمها بعد عشرات السنين أدباء ورجال علم ودين ليصوغوا منها المبادئ التي تنظم المعاشة كما عبّر عنها التوحدي في «الإقناع والموانسة». ونحن نجد أن الليالي تنهل من هذا الإعداد الثقافي المهم بالحب المدفوع إلى حدّ الموت، وبالتضحية، وليست الليالي هي المثال الوحيد، فهناك «كتاب الزهرة» لمحمد بن داود، الفقيه الظاهري الذي يضحي بحبه ويفعل ذلك بغية الإبقاء على الرغبة ثابتة بما يبلور فكرة طريفة جداً، أي عدم المساس بموضوع الرغبة، بل وعدم إعلان هذه الرغبة، كي لا تتزعزع الشهوة. وعلى هذه الشهوة المطهرة سينكب أهل التصوّف للتعبير عن المحبة الإلهية.

وهناك النوع الثاني من روايات الحب التي لا تتغذى من هذه الثقافة المعدّة لكن تلك التي تعاش في الحاضرة. لقد وجد الحب دائماً بين الفتيات والفتيان العرب. لكن الأمور كانت في غاية البساطة في المجتمع البدوي على خلاف، من علة وجوه، مع المجتمع الحضري. ويأتي بعد ذلك، النوع الثالث من روايات الحب الذي يبرز في ما يمكن تسميته، إن صحّ ذلك، الرواية الثقافية، رواية حب مدنّس، التي تروي مغامرة غرامية ترسم لقاء العشاق وقد لا تخلو من مقطع جنسي وإذاً، فكل هذا يعدّ بمثابة القاعدة المعيشة للممارسة الغرامية. وأنا وجدت أن بالإمكان الاهتمام بالتعبير عن العشق عبر الشعر وأبعد منه، علماً أن الليالي تتضمن ٥٢١ مقطعاً شعرياً تتراوح بين عشرة إلى أربعين بيتاً، فهي كذلك خزّان شعري.

* بقي لنا أن نفهم أكثر ما تعنيه بالحلم الحقيقي.

** هذه الصيغة منبتها معجم حيث الاتصال الغرامي بالنساء المحصنات، النساء الفاضلات، ممنوعاً كلياً، تقريباً أو بتاتاً. والمحصنة امرأة محجوبة لا تصل إلى الثقافة، ولا تستطيع العيش في وسط ذكوري. أما الحلم الحقيقي أي أن نحلم وتعيش الحب فهو ما توفره أوساط خارج فضاء الفضيلة حيث الفتيات وحدهن يستطعن النفوذ، وهنّ اللواتي كن زوجات لعدد من الخلفاء وقد هاجمهن الجاحظ بشلّة في كتابه «القيان» وكذا في كتاب «العشق»، وما ذلك

بُغضاً للنساء، ولكن لأن هؤلاء النساء كنّ يرسين الأثوثة في قلب الفضاء الذكوري.

✱ دائماً في إطار ألف ليلة وليلة نقرأ لك في كتابك «القول الأسير...» الرغبة في تحديد ما تراه سجيناً داخل هذا النص، فهل تعتقد أنك نجحت، وما هو هذا القول وقد أطلق سراحه، أم أن الأمر مجرد محاولة لم تفعل أكثر من تقوية فضاء الغياب حيث تقطن الليالي وتسعى لإلغائه، حسب تعبيرك بالذات.

✱ لقد كبرت في الليالي حينما كانت تُروى لي أشياء وتحجب عني أخرى، ولم يطلعتني أحد على خيانة الملكات لشهريار وشهرزمان. ما سمعت هو أن امرأة تأتي كل ليلة لتقصّ حكايات، وظل هذا هو المخطط الذي عشت فيه على امتداد طفولتي. ثم تبين لي أن المرأة [شهرزاد] لم تكن تقص للشيء بل لأن الموت كان لها بالمرصاد، وذلك منذ أن قرر شهريار وشهرزمان أن يعقدا كل ليلة نكاحاً على فتاة جديدة ويقتلها في الصباح انتقاماً من الخيانة الأصلية. وهو ما سيحث شهرزاد على استلام الكلمة واتخاذ القول سلاحاً ضد الموت. وماذا كانت تقص على شهريار؟ في الليلة السابعة شرعت تروي له حكاية ملك خائنه زوجته الشابة. لقد استغرقت لهذا حقاً، إذ كيف تفعل ذلك فتاة همتها إنقاذ النوع النسوي، وإذا النوع البشري.

بعد أن أصدر الملكان قرارهما الرهيب ذاك، هاهي ذي تروي حكاية الخيانة!... بدالي أن في الأمر خللاً ما، وهو ما دفعني إلى تحليل الوضعية من نقطة البداية، هذه الوضعية المحكومة بالكامل بالرؤية الذكورية. ويقال لنا بأن هنالك ملكتين، لا يعطانا اسمهما بتاتاً. انهما بلا اسم، أي إنها المرأة. وماذا تفعلان. تصوّر أنهما. وفي حضارة معلومة بصرامتها في ما يخص الخلق الفاضل للحاكم، تصوّر أنهما تخونان زوجيهما علناً، وعلناً تمجنان مع عبيد سود في حديقة القصر وليس في مخادع سرية. ظهر لي أنها وضعية جدّ كاريكاتورية لكي لا نعتبرها رمزية. أجل انه من الوارد أن توجد هنا أو هناك ملكة ما خانت زوجها ولكن أن تقدم لنا الصورة كوضعية نموذجية، فهذا شيء آخر، أي باعتبار أن المقصود هو أن المرأة بطبيعتها منحرفة وعرضة للفساد وتجرّ إلى التدمير الخلقي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي للحاضرة، إنه رمز. فنحن لو أمعنا النظر، فسنرى أن الملكين سيقتلان زوجتيهما وسيقولان -بالحرف- إنهما سيتنقلان في أرجاء

العالم لمعرفة ما إذا كانت الأحوال تسير على هذا المنوال في كل مكان. وستأتي الحكاية التي تؤكد قرارهما وخطتهما لقتل جميع النساء، ولتأكيد أن جميع النساء منحرفات، وهي حكاية الجنني الذي سيسجن فتاة في صندوق. وفي تنقلتهما سيصادف الملكان الجنني وشاهدانه وهو يفتح الصندوق على الفتاة ويسترخي نائماً بعد ذلك. وتنظر الفتاة حواليتها فترى الملكين وتجبرهما على مضاجعتها. وإذ يعودان إلى مقرهما الأصلي يرسخ اقتناعهما بأن النساء متشابهات، وعليه ينبغي قتلهن. هناك مقطع حُذِف من بعض ترجمات الليالي، وعثرت عليه في كل المخطوطات والطبعات الجدية، ومنطوقه أن الفتاة قبل أن تطلب من الحاضرين أمامها مضاجعتها روت لهما حكايتها مع الجنني فأخبرتهما أنه في ليلة عرسها، حين كانت ستزف إلى ابن عمها الأمير الذي كانت تحب، حضر الجنني فقتل خطيبها وخطفها. ومن وقتها وهي تنتقم من فعلته، وأضافت: انظرا إن حول أصابعي مائة خاتم، وهذه المرة المائة التي أخونه [الجنني] فيها.

والواقع أن الأمر لا يتعلق بمثال عن ضلال النساء، بل هو مثال عن الحيف الكبير الذي لحق بهن. أما الملكان فقد نفذاً حكم الموت في كل النساء آخذين الحجة من السلوك الذي نعرف. انطلاقاً من هنا، فهمت بأن هذا العمل، الليالي، ليس الا تمثيلاً على البطش المطلق للرجال ولا تشخيصاً لفضيلة النساء، بل هو إقامة للزوج الذي يشكل كل واحد منا ومجموع البشرية: الرغبة والقانون. فالملوك ليسوا ملوكاً مجسدين ولا المرأة امرأة مجسدة: هنا يوجد الزوج المشكل لوحين ولغريزة الرغبة، ولضرورة القانون. إنها المواجهة بين القانون والرغبة، ولذلك ليس عبثاً أن تكون ألف ليلة وليلة من بين أعظم ما أنتجته البشرية. أما عن بقية سؤالك حول ما إذا كان عملي في هذا الشأن محاولة قد لا تؤدي سوى إلى مضاعفة فضاء الغياب، فإني أقول بإيجاز، إنه لا يستطيع أن يلغي الغياب بقدر ما لا يعمل على إلغاء القانون. . . وباختصار، فالليالي من الكتب النادرة للأدب العربي. . . انه كتاب يتضمن عبرة بسيطة جداً، يقول انظروا سأريكم المسافرين، والمحاربين والعشاق، وقطاع الطرق وأشياء كثيرة، وستجدون أن الطبيعة البشرية هي هذه: هناك من ينطق الرغبة، والبعض الآخر القانون، ولكن دائماً في نهاية المطاف ثمة ألم غائر، تمرق عميق في داخلنا، ولذا فهو كتاب عجيب.

* في خانة كتابك «القول الأسير. .»، وكنوع من الاستخلاص، تصرح بأن لا شيء يبدو

محسوماً وأبسط جواب يبقى صعباً . أسوق هذه العبارات : «ماذا يعني هذا كله» فهل تخفي الحكاية بحثاً عن الخلود ، طقساً من طقوس التمرّس الروحي ، تراجيديا عن الحب ، أم أنها موكولة لخدمة الديانة المحمدية ، وهل لها مكانتها في خزانة الأعمال الواعظة أم أنها تنقل أساطير سابقة (ص ٩٢٢) .

انك تريد أن تعطينا الانطباع ، ويتواضع كبير ، كما لو أنك قمت بمحاولة مستحيلة ، وإن الأهم يوجد في مكان آخر ، وخاصة عندما نتحدث عن الشيء العنيد ، أي المستعصي على الفهم ، الذي يمثله مغامرة عجيبة لقول انطلق يجوب العالم الماورائي ويجعله أهلاً بالتمثيلات . والحقيقة بعد هذا أنك في منتهى الاقتنان بهذا العمل .

❖ لكي أجيب على سؤالك لا مناص من الاعتراف بأن لا علاقة للمسألة بالتواضع ، ولكن بفعل وعي . أما حالة الاقتنان فمفرّدها إلى تكويني الأدبي ، وبصرف النظر عن كل الأسئلة حول ما إذا كانت الأمور تدور حول ما هو حقيقي أو غير حقيقي ، أو غمس المعتقد أو لا تمسه ، فأنا أعتقد بأن العبقريّة العربية وجدت في نصوص اعتُبرت قاصرة . مثل الأساطير وكتب العجائب والرحلات إلخ . . . ، وعموماً مجموع النصوص التي أبحث فيها ، أقول وجدت سعادة للمتخيل ، وقد أوتيت هذه الحضارة موهبة الصور وحفلت بعوالم وحوّت خيالها وهو ما أنتج الجمال ، وعليه ، فأنا مفتن ككاتب وكمعجب بهذه العبقريّة .

ويبقى السؤال الأهم حول انعدام اليقين الذي تحس أنه يتخلّل طروحاتي . والحق أن انعدام اليقين هذا أمر صحيح ، وذلك لسببين : أولاً ، لأنني لا أتبنّي الأهمية التي يوليها العرب لتخييلهم . ينظر إليهم دائماً من زاوية السياسة أو الدين أو الاقتصاد وليس أبداً من زاوية الرغبة والحال أن العرب في التنوع الهائل الذي يكونهم ، في هذا التنوع لا أستطيع أن أفرز حقاً أي اهتمام لعنصر التخيل . طبعاً ألمح ذلك في بعض الأفلام ، الروايات ، والشعر المعاصر ، ولكنه يظل غائباً في وعي الفرد . السبب الثاني هو أن التخيل فضاء متحرك لا فضاء محدود . إنه متحرك في ذاته وفي الديمومة معاً . هل نحصر المسألة في القديم أم في الحديث . . أنت تعرف أن أبحاثي مكرّسة للمستوى الأول . ولكني ، انطلاقاً من المجال الأندلسي ، يبرز لي بوضوح كيف تعبر أسطورة أو حنين الأندلس كتابات عربية عدة . لا شك ستوافقني إذا سقت لك كمثال كتاب محمود درويش «ذاكرة للآسيان» ، حيث نجد ذاكرة مُكوّنة بعملية (الكولاج) ، وحيث تتناص

كتابات قديمة في النص المعاصر . ثم انك أنت أيضاً صاحب ديوان «أندلس الرغبة» . وعليه ، فإن هذا يسند رأيي في أن المتخيل القديم الذي أحلّ متجذّر في الوعي المعاصر ، وإن كنا للأسف نعاني نقصاً في الدراسات ، وترى طلابنا يملون إلى دراسة المضامين أو التيمات الكبرى ولا يتحمسون للمكتوم والجوهري ، السحري النافذ ، وما هو رمزي ونبع . وقد يحتجون بأنهم لا يرغبون في تحليل أعمال ونصوص قاصرة ، كاليالي . .

✽ ثمة سؤال آخر ، وأخير عندي حول ألف ليلة وليلة . يبدو لي على قدر كبير من الأهمية . سؤال قد يؤخذ كسوء تفاهم أو كإشكالية ، أيضاً . يتعلق الأمر بينة ونسيج الليالي ، قل بوضعها بين الشفوي والمكتوب أو الشفاهة والكتابة . من خلال استقصاء عام أجد أمامي وجهتي نظر حول هذا الوضع : الأولى تعتبر الليالي من صنف الأدب الشفوي ، الشعبي ، وهي وجهة نظر سائدة في العالم العربي وعند باحثين مصريين على الخصوص .
✽ أنا أرفضها مطلقاً .

✽ وهناك وجهة النظر الأخرى ، ومن أنصارها كما تعلم زميلك وصديقك البروفيسور أندري ميكل . تقرأ له في المدخل الذي كتبه للترجمة الجديدة لألف ليلة وليلة «إن الصنف الأدبي لليالي شفوي أو يمكن أن يعدّ كذلك ، ولكن من حيث السطح فقط . إنها مكتوبة [أو كتابة] من بحث نسيجها ولغتها ذات الكمال الكلاسيكي وتعابيرها المسجوعة وشعرها على الأخص» (ص ٥١) . ويضيف ميكل قائلاً ما معجمله أن الانتقال من الشفوي إلى المكتوب ، إلى الأدب بمعنى الكلمة تمّ في فترة أفول للحضارة العربية الإسلامية جرت فيها المحاولات -وفي مصر خاصة- لتدوين كل ما يمكن إنقاذه . في تحليل ميكل نلاحظ (نعم وتليها) (ولكن) . . إلّمّا هناك وجهة نظر ثالثة ، وهي التي تقول بها أنت ، وأرجو أن أكون قد استوعبتها جيداً . ففي كتابك المذكور أعلاه تعتبر الليالي عملاً كبيراً ، وهو ما لا يمنعك من القول : «إن لغتها فقيرة وأسلوبها تكراري وجملتها تقريبية» (ص ٥٨) . ماذا تقول ، إذاً ، في هذه الآراء المتضاربة .

✽ حول وجهة النظر الأولى القائلة بانتماء العمل إلى الأدب الشعبي فهي ناجمة عن شيء محدد ، ذلك أن القائلين بهذه الفكرة يعتبرون الليالي عملاً واحداً ومنسجماً ، بينما هي ،

شأنها شأن الكلمات : إنها طبقات ومراتب تراصت فوق مجموع ، وهو المجموع الذي أزعج بأني حدّدت تكوينه . ولذا ينبغي معرفة عن أي من الليالي نتحدث ، عن روايات المحتالين وقطاع الطرق والعالم التحتي لبغداد . ؟ هذه حكايات ذات تقاليد شعبية ، لأننا نشاهد فيها لصوصاً وأفاقين وشحاذين . وإذا تحدثنا عن السندباد البحري فهذه حكاية شعبية ، أما إن نحن أخذنا حكاية حسيب كريم الدين أو روايات الحب كما عرفها قصر هارون الرشيد ، فسنجد أنفسنا أمام أدب من تقاليد رفيعة . ولذا ينبغي معرفة الشيء الذي نتحدث عنه أولاً .

ثانياً ، فمن حيث اللغة يبقى رأيي على ما هو عليه رغم ما يقوله ميكل . إنها حكايات تنوقلت لفترة طويلة شفوية لأسباب محددة ، وبالذات لأن قصص حب نشأت في قصور هارون الرشيد والمأمون والأمين والمتوكل ، وكان من الخطورة كتابتها . ولذا رويت لوقت طويل ، وفي يوم ما نُقلت إلى الكتابة . وكما أن الليالي لا توجد كعمل متجانس فكذلك ليس لها لغة . وحين استنسخت هذه النصوص كان الأميريد الناسخ . فالمخطوطات المصرية ، والتي قدم عنها محسن مهدي أفضل صورة ، هي بمثابة مدونة للحن ، وليست إلا العامية المصرية ، تشبه تماماً ما سفهه الحريري في مقامته «درة الغواص في لحن الخواص» . وعندك إلى جانب هذا حكايات تنتمي إلى طراز التقليد الأرستقراطي ، وصادف الحظ أن لقيت في سوريا بالذات ناسخاً تحريراً فكتبها بعربية جيدة . فالليالي متباعدة أسلوباً وتركيباً وقاموساً ، بل إن الحكاية الواحدة يترادف فيها حوار العامة مع مقطع مسجوع من طراز المقامات . لذا أقول : إن الليالي بمثابة مجرّة ، كتابة شديدة التنوّع ، متعددة الاستلhamات ، وأنه اجتمعت فيها شتى النصوص التي نستطيع بسرعة تقصي استلhamها . إنني أعني الاستلham لا الكتابة .

ولا يفوتني في هذا المقام ، أن أشدّد على كوني لم أعن فحسب بالمتخيّل في الليالي بل كان هدفي ، أيضاً ، دحض التشخيصات المزيفة والمشوّهة التي قدمها عنها الاستشراق . ما فعله بها «ماردروس»^١ قبيل رقصة البطن والمشاهد الجنسية التي هي اختلاق محض لماردروس وأضرابه .

* والآن ، لنرسم هذا التوازي ، وأرجو أن لا تجد في ذلك أي تحرش . إن ما ينبغي أن نعتبره ، في النهاية ، قيمة أدبية في الليالي هو في الجوهر فحص واستكشاف المتخيّل ، لكن داخل

ماذا؟ داخل ثقافة عامية، غير عالمة. وفي هذه الحالة، فإن المشكلة لا ينبغي أن تطرح حول الوضع الشفوي أو الكتابي للنص باعتبار أن اللغة النسيج الخ. ليسا هما منطaq الأهمية وإغما، المعنى والخيال، إنه إنتاج المعنى كما تحب أنت أن تسمي ذلك. وفي هذا السياق، لا بأس لو أفضت قليلاً في شرح هذه الصيغة بأبعد مما هو رائج في التعريفات النظرية.

*** ان المقصود بهذه الصيغة في الليالي هو الكيفية التي يدل بها العالم بالعلاقة مع العالم، مع ذاته، مع الآخرين، مع القانون، ومع الرغبات.

* انطلاقاً من هنا، ألا ترى أن الليالي تولد محاكاتها الخاصة، والتي تختلف عن تلك التي للإغريق، عن قواعد أرسطو.

*** بكل تأكيد، وهذا بالمعنى الأصلي لكلمة محاكاة. ان الليالي تقترح نفسها أيضاً كنموذج يؤخذ بالاعتبار وليس كنموذج لما ينبغي أن يُعمل، بل كصيغة لتخيل ممكن. وعليه، فلا تحرّش في ما تذهب إليه، بل إنها إحدى الملاحظات المهمة التي تُقدم عن كتاباتي في الموضوع، وأرتاح لها. والسبب هو أنني أدافع عن أنماط لتمثيلات المعنى وذات غنى وافر في الأدب.

إدوارد سعيد موسيقياً

صلاح حزين

في وقت مبكر من حياته حدد إدوارد سعيد موقفه في ما يتعلق بالموسيقى، فقد كان في العاشرة من عمره حين بدأ له الموسيقي الألماني ريتشارد فاغنر لغزاً، وذلك قبل أن يتحول إلى نموذج عظيم له في عالم الموسيقى ويأخذ مساحة واسعة من كتاباته النقدية الموسيقية، وخاصة بعد أن تعرف على أوبرا «خاتم النبيلون» التي تتكون من أربع أوبرات كتبها الموسيقي الألماني على مدى أربعة وعشرين عاماً، وتبلغ مدة عرضها كاملة نحو 15 ساعة، ولكن كان عليه أن ينتظر حتى العام 1958 ليزور مدينة بايروث مسقط رأس فاغنر، ويشاهد ذلك العمل الفريد في مجال الموسيقى الأوبرالية والذي يعرف اختصاراً باسم «الحق».

في ذلك الوقت المبكر من عمره أعلن إدوارد سعيد انتمائه إلى موسيقى بتهوفن وفاغنر وباخ وهابيدن وموتسارت، أي ما يمكن أن نطلق عليه اسم المدرسة الألمانية النمساوية في الموسيقى، وذلك في مقابل الموسيقى اللاتينية التي يغلها الموسيقيون الفرنسيون والإيطاليون والإسبان أساساً، فهو حسم أمره بتفضيل أعمال النمساوي فولفغانغ أماديوس موتسارت، والألماني ريتشارد فاغنر الأوبرالية على أعمال الموسيقيين الفرنسيين من أمثال جورج بيزيه وشارل غونو وكاميل سان سان والإيطاليين جيوسيبي فيردي وجياكومو بوتشيني ويواكينو روسيني وسواهم، كما فضل أعمال بتهوفن وموتسارت وشوبرغ السيمفونية على سواها من الأعمال الموسيقية.

لم يأت موقف سعيد من فراغ، بل جاء بناء على خبرة طويلة شكلها على مدى سنوات من الاستماع الدؤوب للموسيقى الكلاسيكية والتفكير والتأمل فيها والقراءة عنها، وعلى ذائقة استثنائية جاءت محصلة لعملية فرز بين أنواع موسيقية مختلفة ومدارس متباينة، فهو تدرب على أن يكون مستمعاً جيداً للموسيقى الكلاسيكية منذ الصغر، وعازفاً على البيانو باعتبار هذه المعرفة ركناً أساسياً من الحياة البرجوازية التي كان والده في ذلك الحين يعمده لها. وقد جاء عليه وقت كان لولعه بالموسيقى يعتقد بأن مستقبله هو أن يصبح

عازفا للبيانو. وعلى أي حال فقد تحقق له ذلك جزئيا، ففي المستقبل من تلك الأيام سوف يصبح سعيد عازفا بارعا على البيانو إلى درجة مكنته مرات عدة من المشاركة عازفا عليه في بعض الحفلات الخاصة، وحين تغير هذا المسار إلى الأدب والفكر حول سعيد معرفته الحرفية بالموسيقى إلى ثقافة نظرية عميقة أعلته لأن يكون إلى جانب عمله الأكاديمي والأدبي والفكري ناقدا موسيقيا كبيرا، وحين رحل سعيد عن الدنيا قبل نحو عامين، كان قد ترك لنا إرثا كبيرا في مجال الموسيقى جاء بعضه متناثرا في مقالاته ومقابلاته التي جمعت في كتب بعد رحيله والتي دأب فيها على الحديث عن الموسيقى بوصفها مكونا أساسيا من مكونات الثقافة الإنسانية، وجاء بعضها الآخر في شكل محاضرات عميقة وشاملة جمع ثلثا من أبرزها في كتاب نشره عام 1991 تحت عنوان «تنويعات موسيقية»، وذلك باستثناء المقالات العديدة التي تألق فيها على صفحات مجلة «ذا نيشن» الأسبوعية الأميركية وهي مجلة الهماس الأميركي المثقف التي كان سعيد ناقدا موسيقيا لها. وهو في كل ذلك انطلق من موقف ثقافي واضح وظف فيه معرفته الواسعة بالموسيقى في صوغ أفكاره ليس في الأدب والفن فقط بل وفي الفلسفة والتاريخ أيضا.

تعرف سعيد على الموسيقى الكلاسيكية من خلال الأسطوانات التي كان والده يحضرها له، ومن خلال الحفلات الموسيقية التي كان يحضرها مع عائلته على مسرح دار أوبرا القاهرة أو على مساح أخرى في العاصمة المصرية. كما تابعها من خلال هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) التي ظل يذكر أنه استمع منها في شهر آب 1949 إلى خبر وفاة الموسيقي الألماني ريتشارد شتراوس كما يذكر في كتاب «خارج المكان» (ص 193).

وفي كتابه هذا يسترجع سعيد ذكرى أول نقاش جدي خاضه حول الموسيقى الكلاسيكية، ففي صيف العام 1949 وبينما كان سعيد يقضي الصيف مع أهله في مصيفهم الأثير في شهور الشوير في لبنان دخل سعيد في حوار عاصف مع اثنين من الشبان اللبنانيين حول الموسيقى. كان سعيد قد اكتشف لتوه سيمفونية (لينز) لموتسارت، واعتقد «أن وضوح سياقها وأناقته التقنية يجعلان منها الذروة في التعبير الموسيقي» (خارج المكان ص 221)، كما يذكر. ويضيف سعيد قائلا إنه دافع عن قضيته بالفضل ما استطاع، ولكن الصبيان الأكبر سنا منه صداه وأشارا إلى موسيقاه المفضل موتسارت بأنه «خفيف» وبأنه «خال من البعد الفكري» (خارج المكان ص 221). والمفردة التي يذكر أنه سمعها بوضوح في تمجيد برامز هي أنه «عميق» فلم يفهمها تماما ولم يستعملها قط في كتاباته الموسيقية، «عميق عويص غامض مريب مثير معبر: هكذا وصلت سيمفونية برامز الأولى» (خارج المكان ص 221)، لقد كان الصبيان بقدران برامز عاليا، ويستغفان موتسارت الذي كان سعيد يكن له إعجابا خاصا. كانت تلك تجربة حفزته على التأمل عميقا في شؤون الموسيقى، وكانت تلك على ما يبدو أول محاولة للتعبير عن تعلقه الخاص للموسيقى، هو الذي أصبح فيما بعد واحدا من أبرز النقاد الموسيقيين في العالم.

وقد عاد سعيد إلى هذه النقطة ليتحدث بتفصيل أكبر عن انجذاراته الموسيقية ولكن في صورة أكثر عمقا في مقابلة أجريت معه في العام 1999 ونشرت في كتاب «إدوارد سعيد حوارات ومقالات» الصادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر عام 2003. في تلك المقابلة أوضح سعيد أن موسيقى فاغنر أو باخ أو 베토벤 قد جذبت أكثر من موسيقى بليني أو دونيتزي أو فيردي الذي يركز على الصوت المفرد والزخرف اللحني. «إنني ببساطة، لا أهتم بالصوت الأحادي. الصوت المتعدد، تنظيم أكثر من صوت واحد هو ما يثير اهتمامي. أشعر بالجلذاب نحو الأصوات الجماعية وكيف يصبح الصوت الواحد ثانويا بالنسبة لصوت

آخره. (إدوارد سعيد. مقالات وحوارات ص185). ويضيف «لني مهتم بالاحتمالات التي تقدم للمفسرين لإيضاح الأصوات التي قد لا تكون واضحة لمؤلف الكتاب أو المؤلف الموسيقي». (إدوارد سعيد. مقالات وحوارات ص185). ويختار سعيد باخ نموذجاً للمدرسة الموسيقية الألمانية النموسوية التي أعلن انحيازها لها منذ الصغر ويقدم تحليله الخاص لإعجابه به قائلاً: «باخ مثلاً كان يملك مقدرة هائلة على التنبؤ بأي مجموعات من الأصوات يمكن أن تخرج من عبارة موسيقية واحدة. وفي تفسير المؤلف البوليفوني ليس هناك من تنبؤ. وفي حالة غلين غولد ليس هنا تنبؤ بالصوت الذي يريد التركيز عليه في لحظة محددة. هناك أصوات تتجمع بحضور جوهري ولكنها ليست على الدوام واضحة بين الأصوات المتعددة. لذا، فإن هامشا محددا يسمح فيه للمفسر بأن يلقى الضوء على صوت مقابل صوت آخر، من دون أن يخفي الأصوات الأخرى، وذلك لكي تتمكن الأصوات الأخرى من الخروج بطريقة مختلفة والنتيجة، أصوات متعددة المستويات». (إدوارد سعيد. حوارات ومقالات ص185).

يمكن القول: إن هذا المقتطف الطويل من مقابلة إدوارد سعيد تلك يمثل جوهر نظريته التي تحكممت في خياراته الموسيقية وفي نظريته إلى الموسيقى من الداخل نظرة موسيقي هاو وناقد محترف للموسيقي.

سعيد وأدورنو

لكن الحديث عن ثقافة سعيد الموسيقية وعن دوره بوصفه ناقداً موسيقياً يحيل بالضرورة إلى الحديث عن ثيودور أدورنو والفكر والناقد الموسيقي الألماني الشهير، وهو أحد أركان مدرسة فرانكفورت الفلسفية التي كانت تبعد من خلال الفكر الماركسي ولكن من خارج إطار المعسكر الاشتراكي آنذاك، فهي اعتمدت فهما خاصاً للفلسفة الماركسية مغايراً للمدرسة السوفييتية، وكان أدورنو من أعمدة هذه المدرسة، وفي إطار هذه الفلسفة التي تعتمد المدخل الاجتماعي لفهم الموسيقى بوصفها نشاطاً إنسانياً جاءت دعوة أدورنو إلى وضع علم اجتماع للموسيقي.

وقد يدهش قارئ سعيد للعديد الكبير من الإحالات إلى ثيودور أدورنو في مقالاته ومقابلاته وأحاديثه وكتبه عن الموسيقى. وباختصار، يمكن القول إن أدورنو كان بالنسبة لسعيد في ما يتعلق بالموسيقى مثملاً كان ميشيل فوكو أو ربما غرامشي أو كلاهما بالنسبة له في الفلسفة والفكر السياسي، فسعيد ربط ما يملكه من معرفة هائلة بتفاصيل الأعمال الموسيقية المهمة في تاريخ هذا الفن بحركة المجتمع، سائراً على خطى أدورنو الذي كان أحد أبرز من قام بهذا الربط بين الإبداع الموسيقي وبين المجتمع بل وبين الموسيقى وبين السياسة في شكلها المباشر مستفيداً من منهجه الماركسي. ويمكن أن نذكر هنا أن سعيد لم يكن الوحيد الذي تأثر بأدورنو في مجال الفكر الموسيقي، فقد تأثر به كثير ربما كان أبرزهم الروائي الألماني الكبير ثوماس مان الذي شارك أدورنو عداؤه للنازية مثملاً شاركه منفاه الأميركي في فترة الحكم النازي الألماني، وفي ذلك المنفى كتب ثوماس مان روايته الشهيرة «الدكتور فاوستوس» التي استفاد فيها من أدورنو الذي كان في أثناء كتابة الرواية يجلس ليعزف على البيانو ما يعتقد أنه تعبير موسيقي عما كتبه مان في روايته تلك، كما يقول جورج ستاينز في كتاب له بعنوان «قليل من موسيقى الليل»، وهذا العنوان كما هو معروف اسم مقطوعة موسيقية شهيرة لوستارت. ويرى ستاينز أن ثوماس مان اقترب من النقل الحرفي عما كان أدورنو قد كتبه عن بيهوفن في محاضرة شهيرة ألقاها مان عن فاغنر في العام 1933 نفى فيها أن يكون الموسيقي الألماني الكبير هو المسؤول عن تفشي الروح النازية في ألمانيا ما قبل الحرب العالمية الثانية. وقد نسب الكاتب إلى

أدورنو قوله إن مان «كان نصف موسيقي».

من أبرز النقاط التي تأثر فيها سعيد بأدورنو ذلك الربط بين تطور الموسيقى الكلاسيكية وبين تطور المجتمع الغربي المعاصر والذي كان موضوعا تناوله ذهن أدورنو، النظري الناقد وتحليلاته العميقة، فهو يرى أنه بعد وفاة بتهوفن عام 1827 اجتهدت الموسيقى عن الطابع الاجتماعي مقتربة نحو الجمالي في صورة تامة تقريبا. وبحسب أدورنو، فإن أسلوب بتهوفن المتأخر يضيف للموسيقى عالما ذاتيا خاصا من الحقيقة التاريخية العادية (Musical Elaborations من 12)، وهو رأى أن منجز أرولد شوينبرغ الاستثنائي في النظرية والتطبيق بعد رحيل بتهوفن يكثر من قرن قد استوعب واستوحى المعنى الحقيقي للمسار الموسيقي في القرن السابق، وذلك بعد أن استوعبه كلياً واشتق الأساس المنطقي الجديد الخاص به من تضخيم مأساوي عميق للانفصال بين المجتمع والموسيقى. كما أنه يرى أن إدخال التقنيات على النظام النغمي الإثني عشري، وهو منجز شوينبرغ الأساسي في مجال الموسيقى، وشكله المعقلن كلياً إنما هو إلغاء للتجاوز وتأكيد وتغريب له أيضاً (Musical Elaborations من 13). كما يرى أدورنو أن كل شيء يتعلق بالموسيقى ساهم في تكوينها حتى تلك اللحظة ومفاهيمها الخاصة بالارتجال والإبداع والتأليف والتغيير والتألف الاجتماعي يأتي الآن إلى حالة من الشلل التام.

ويضيف أدورنو أنه منذ عصر الباروك لم تكن الموسيقى مجرد توثيق للواقع البرجوازي بل أيضاً أحد أشكال فيها الرئيسي، حيث أن البروليتاريا لم تشكل أبداً أو أنه لم يسمح لها بتحويل نفسها إلى موضوع موسيقي. ومع مطلع القرن العشرين بدأ نوع من الموسيقى الذي وضعه موسيقيون من أمثال شوينبرغ وتلميذه الرئيسيين بيرغ ووبرن في تجريد مادته الاجتماعية عبر وسائل موسيقية بأكملها. واليوم أصبحت الموسيقى معزولة ومتعنسكة، ليس فقط بفضل ما هو غير اجتماعي بل وبسبب هموم اجتماعية أيضاً.

ولكن سعيد، مثل كل الكتاب العظيم الذين يتأثرون بكتاب عظام آخرين يقي على تلك المسافة المهمة التي تفصل بين التأثير وبين التبعية، فسميد يرى أن أدورنو «ربما كان آخر المفكرين في الموسيقى الكلاسيكية الغربية الذي حاول الكثير من هذه الأمور العظيمة» (Musical Elaborations من xiv)، ولكنه كان واضحاً في تحديد الفروق بينه وبين أدورنو، فهو يقول «لم يكن غريباً أن أجد نفسي في جدال مع أدورنو أحياناً. فتقييماته المظلمة للمشهد الموسيقي الراهن مختلفة تماماً عن تقييماتي، وذلك لأسباب لها علاقة بخلفيته الأوروبية وبعضه. فمعظم أفضل أعماله وضعت في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية مباشرة وفي أعقابها» (Musical Elaborations من xiv).

وعلى الرغم من وضعه هذه المسافة بينه وبين أدورنو، فإن سعيد يهني على منهج أدورنو الاجتماعي مؤكداً أن «الموسيقى تبقى في إطار سياق اجتماعي بوصفها تنوعاً خاصاً لتجربة جمالية وثقافية إلى ما يمكن أن نسميه وفق غرامشي، أيضاً أو إعادة إنتاج للمجتمع المدني» (Musical Elaborations من 15)، كما أنه يشدد على البعد الاجتماعي بوصفه مكوناً أساسياً للموسيقى يجعل دراسة الموسيقى أمراً أكثر إثارة. يقول سعيد: «المسألة التي أريد إثباتها هي أن دراسة الموسيقى يمكن أن تكون أكثر وليس أقل إثارة للاهتمام إذا ما وضعنا الموسيقى باعتبارها تحدث في ما يمكن القول إنه إطار اجتماعي ثقافي. وثمة طريق أخرى لذلك هي القول إن الأدوار التي لعبتها الموسيقى في المجتمع الغربي بالغة التنوع» (Musical Elaborations من xii)، ويضيف «فكر بالربط بين الموسيقى والامتيازات الاجتماعية، أو بين الموسيقى والأمة أو بين الموسيقى والتسجيل الديني وسوف تصبح الفكرة واضحة بما فيه الكفاية» (Musical Elaborations من xii).

ولكن سعيد وبالرغم من تأثره بأدورنو فإنه لا ينسى أن يخلص أفكاره من بعض الحتميات والمعتقدات
اليقينية في نظريته إلى تطور الموسيقى الكلاسيكية في أوروبا، فيرى أن «بتهوفن قام بغورة في الموسيقى حين
نقلها من كونها اختيارات شبه رسمية من جانب الحكام والأعياد الكنسية والاحتفالات الطقسية إلى منطقة
جديدة غير مستقرة يفتتحها النظام النغمي وإيقاعاته البدائية التي يستطيع المؤلف التقدم لاستثمارها أولاً
من خلال إصرار فظ، ثم بعد ذلك من خلال مسرحية النفس، وأخيراً من خلال إعادة اكتشاف جذرية للنظام
نفسه» (Musical Elaborations ص 65).

ويصل سعيد إلى هذه النتيجة بعد تحليل مادي شبيه بذلك الذي برع فيه أدورنو، مشيراً أن دور الموسيقى
في المجتمع قد شهد تغيراً جذرياً بانتقالها من موسيقى يضعها المؤلف بنوع من «النبض الديني الهادف
إلى تمجيد الإله» (Parallels and Paradoxes ص 37)، والمثال الذي يستحضره هو يوهان سيباستيان
باخ (1685 – 1750) الذي ارتبط اسمه بأعمال موسيقية ذات طبيعة روحانية مسيحية ما زال بعضها
يعزف في المناسبات الدينية في الكنائس حتى اليوم، إلى موسيقى توضع ضمن إحساس معين و«موجهة في
صورة مباشرة إلى رعاية الفن الأرستقراطيين» (Parallels and Paradoxes ص 37)، ومثاله هنا هو بتهوفن
(1770 – 1927)، ومنها إلى موسيقى يضعها المؤلف ضمن إحساس لا يبالي كثيراً بالجمهور أو مؤسسات
مثل الكنيسة، بل بالموسيقى داخلها» (Parallels and Paradoxes ص 37)، والمثال الذي يسوقه هنا هو
يوهانس براهمز (1838 – 1897).

في إطار هذا التحليل، يرى سعيد أن بتهوفن الذي جاء في مرحلة انتقالية تحرر خلالها من الارتباط
بمؤسسة مثل الكنيسة ولكنها لم تصل إلى مرحلة يمكنه فيها أن يكون حراً تماماً في رؤياه الموسيقية مثل
براهمز، إنما كان يحاول التشديد على ذاته الموسيقية من خلال أعماله نفسها، وفي هذا الإطار أيضاً فإنه
يفسر تكرار الهيمنة النغمية عند بتهوفن في السيمفونية الخامسة والتي تعتمد تكرار الموتيف النغمية نفسها
من بداية السيمفونية وحتى نهايتها، بقوله: إن بتهوفن يبدو هنا وكأنه يقول «إن مقام سي الكبير لي أنا،
أنا الذي أنهى الفراغ الذي اكتشفته بالوتر وبفضل ذلك المفتاح مرة بعد أخرى بعد أخرى. إنه لي لي لي».
(Musical Elaborations ص 65). كما يرى أنه «مع مجيء براهمز وبروكنر أصبح للتفصيلات الموسيقية
بنية أقل نغمية وأكثر تماسكاً وصلابة وثقة» (Musical Elaborations ص 66).

ويتساءل سعيد عما إذا كانت «الموسيقى من فاغنر إلى شوبنبرغ ثم بيرغ وفويرن وإليوت كارتير تصبح
أصعب فأصعب» (Parallels and Paradoxes ص 132). ويجب بالعودة إلى أدورنو الذي كتب يقول «إن
إهمية الموسيقى هي أنها من خلال تعقدها الخشن تقدم اتهاماً للمجتمع بعدم الإنسانية لأنه يجبرها على
لعب دور المعارض الكبير للمجتمع، وهو مجتمع استهلاكي تسليعي من جهة وغير إنساني من جهة أخرى»
(Parallels and Paradoxes ص 132). ويخلص إلى أن «الموسيقى الجديدة الحقيقية هي تلك التي لا يمكن
تقديمها ولا يمكن سماعها» (Parallels and Paradoxes ص 130).

ولكن سعيد يعطي خطوات أبعد بكثير مما قطعه أدورنو في ربطه بين المجتمع، وهو هنا المجتمع
البرجوازي الأوروبي وبين الموسيقى، فهو ينفذ إلى عمق هذه العلاقة ليرى الأعمال الفنية التي وضعت في
فترة محددة من تطور المجتمعات البرجوازية الأوروبية ليس بوصفها مرآة للتطور الاجتماعي فقط بل بوصفها
جزءاً من تلك الثقافة وتعبيراً عن تطلعات استعلائية عنصرية أو استعمارية وإن تكن غير واعية أو مقصودة
فهي تكمن في نقطة عميقة في ثنايا العمل الفني في انتظار مفكر من طراز إدوارد سعيد ليكتشفه. وغني

عن القول إن تلك العملية مثلت جوهر كتابه «الاستشراق».

لقد لاحظ سعيد في أوبرا «الناي السحري» التي وضعها الموسيقي النمساوي الكبير وولفغانغ أماديوس موتسارت (1756 - 1791) كيف «تتمازج الترميزات الماسونية مع رؤى لشرق وودو، ورأى في أوبرا واختطاف من السراي» لموتسارت أيضا «مقوضا لشكل خاص ذي سماحة خاصة من أشكال الإنسانية في الشرق». (الاستشراق ص 141)، وقد علق سعيد على ذلك قائلا: إن هذا بالذات هو الذي «جذب موتسارت بتعاطف حقا نحو الشرق أكثر مما جذبته العادات السارية المستحسنة للموسيقى التركية».

(الاستشراق ص 141).

وعلى أي حال، فإن اهتمام موتسارت بالشرق قد تجلى تماما في عمل أوبرالي آخر كان الموسيقي النمساوي قد استلهمه من وحى الشرق المسلم ممثلا بتركيا العثمانية متحديدا، ولكن موتسارت لم يكمل هذه الأوبرا التي حملت اسم «زيد» فأهملت فترة طويلة إلى أن استخرجت من بين ركام الستين قبل أعوام قليلة حين عثر على بعض أجزاء هذه الأوبرا التي يعتقد أنها وضعت ما بين عامي 1779 و 1780 وعرضت في ألمانيا لأول مرة بعد أكثر من مئة عام على وفاة الموسيقي الكبير، إذ إنها لم تعرض في حياة موتسارت بل قدمت لأول مرة على المسرح في العام 1830، أي بعد أكثر من أربعين عاما على وفاته. ولكنها فقدت مجددا، إلى أن عثر عليها أخيرا ولكن نصها كان مفقودا في معظمه. ومثل معظم أعمال الموسيقي الكبير فإن الأغان التي عثر عليها كانت على درجة عالية من العذوبة، فهي تحتوي على بعض أجمل المقاطع الموسيقية والأغنيات الأوبرالية التي كتبها موتسارت، أما القسم الأكبر من الحوار الدرامي في هذه الأوبرا الناقصة، فما زال مفقودا. وقد جرت محاولات عدة لاستكمال كتابة نص الأوبرا من بينها محاولة قام بها الروائي الإيطالي الكبير إيتالو كاليفينو، ولكن الأوبرا ظلت تعرف باسم الأوبرا الناقصة ولم تقدم إلا لثلاث.

وتتحدث الأوبرا عن عالم العبيد في بلاط أحد السلاطين الأتراك (السلطان سليمان) وما يجري فيه من حب وشاعرية وبطولة. أما زيد فهو ليس اسما لعبد كما قد يفادر إلى الأذهان، بل لامرأة تعمل في بلاط السلطان سليمان الذي يقع في غرامها في حب معذب من طرف واحد.

لقد كتب موتسارت «الناي السحري» و«اختطاف من السراي» وكذلك «زيد» في وقت كانت فيه الدولة العثمانية لا تزال دولة قوية، وقبل ذلك بقرن ونصف القرن كانت جيوشها تحاصر فيينا عاصمة الإمبراطورية النمساوية، لذا، فإن صورتها لم تكن صورة الدولة الضعيفة التي تذخر بالثروات التي تغري جشع الدول الاستعمارية، وهو ما حدث في مراحل لاحقة على أي حال، وفي القرن التاسع عشر في صورة خاصة، لذا، فقد جاءت في هذه الصورة من العذوبة والرومانسية التي لا تخفي خلف جمالياتها البادية أبعادا سياسية تمتد إلى الأطماع الاستعمارية وأحلام التوسع والهيمنة ولهب الثروات.

لذلك كله، فإن الأعمال التي وضعت في القرن التاسع عشر هي التي توقف عندها سعيد طويلا ليرى خلف الموسيقى الحيوية والجميلة وفي عمق العمل الفني انحكم وشيجة تربطها بهدف يتناقض تناقضا حادا مع ذلك الجمال المعلن، وهو الهدف السياسي الاستعماري الكامن خلف تلك الأعمال الجميلة النابضة بالحيوية، فسميد يرى أن «الأعمال الأدبية العظيمة والأعمال الموسيقية الماثلة مشبعة بشكل أو آخر بالسياسة» (Musical Elaborations ص 65). ويشدد على حقيقة أن وضع أوبرا «الطرواديون» لهكتور برليوز خلال الغزو الفرنسي لشمال إفريقيا يجب أن يؤخذ في الاعتبار لدى التصدي لتحليل العمل الفني، والأمر نفسه ينطبق على أوبرا عابدة جيوسيبي فيردي التي وضعت خلال فترة الهيمنة الأوروبية على الشرق

الأدنى . ووضح هذه الحقيقة في سياقها التاريخي، وفي فترة تاريخية شهدت وضع العديد من الأعمال الفنية التي تصور الحياة في الشرق وشمال إفريقيا بوصفها «مكان وعد وقوة على قدر كبير من الأهمية» (الثقافة والإمبريالية ص 176)، وبكلمات سعيد، فإن أوبرا عايدة «معجزة بصرية وموسيقية ومسرحية تؤدي الكثير من الأشياء العظيمة من أجل الثقافة الأوروبية وفيها؛ وأحد هذه الأشياء هو تأكيد الشرق وتبنيته مكانا غرائبيا وقصيا وأثريا في الجوهر، بوسع الأوروبيين فيه أن يقيموا استعراضات معينة للوقوة» (الثقافة والإمبريالية ص 179). وعلى الرغم من أن أوبرا عايدة تمثل أوج تطور فيردي الموسيقي كما يقول سعيد، فإن هذا لا يعميه عن حقيقة أن عايدة في الوقت نفسه عمل «ينتمي إلى تاريخ الثقافة وإلى التجربة التاريخية للسيطرة الماورابحارية». (الثقافة والإمبريالية ص 179).

ويتفق سعيد مع تحليل بول روبنسون لعائدة والذي يرى أن المقصود من أوبرا عايدة هو «أن تكون مغاني سياسية تطفح بالحدة وعلو النبرة البلاغيين والموسيقى العسكرية والعواطف الجياشة الطفلية» (الثقافة والإمبريالية ص 178). ويخلص إلى القول إن الهوية المصرية لأوبرا عايدة إنما كانت جزءا من الهوية الأوروبية للقاهرة.

وعلى أن نذكر هنا أن مصر في زمن الحديوي إسماعيل، وهو الزمن الذي وضعت عايدة فيه إنما كان يحضي بفتونه ومعمارته وصناعاته وتقدمه الاجتماعي وما ينتج عنه من تعبيرات سياسية في اتجاه عام كان ينظر إلى أن مستقبل مصر يكمن في تحولها إلى جزء من الهوية الأوروبية باعتبارها بلدا متوسطيا، أي جزءا من بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط. ولكن هذا لا يلغي فكرة سعيد الأساسية والتي ترى أن أوبرا عايدة قد «نقشت بسلطانها وصرامتها على تلك الجدران التخيلية التي تفصل أصلا من المدينة الاستعماري عن أحيائها الإمبريالية. إن جماليات عايدة هي جماليات العزل والفصل». (الثقافة والإمبريالية ص 193). ومن الواضح أن سعيد قد كتب هذه الفكرة الأخيرة وفي ذهنه مقارنة بين عمل فيردي الكبير وبين تلك القصيدة الصغيرة ولكن العظيمة التي كتبها الشاعر الإنجليزي جون كيتس بعنوان «إلى إناء إغريقي»، فهو يلاحظ أنه «ولا يسعنا أن نرى في أوبرا عايدة ذلك التلازم مع مدينة القاهرة، وهو ما رآه كيتس في النقش الموجود على الإناء الإغريقي وفي ما يتراسل معه». (الثقافة والإمبريالية ص 193). ما حدث في عايدة كما يرى سعيد هو أنها أنتجت «مصر مشرقية بلخها فيردي في موسيقاه بمفرده وبصورة مستقلة» (الثقافة والإمبريالية ص 185).

على أن سعيد يعود ليؤكد أن عايدة أوبرا جميلة وممتعة وأنها عمل عظيم من دون شك، وأنها شأنها شأن «كثير من أشياء الإمبراطورية الجمالية تذكر اليوم وتحظى بالإعجاب دون قراءتها بجعب السيطرة التي حملتها عبر عملية الانتقال من التصور إلى الإنتاج» (الثقافة والإمبريالية ص 194).

وفي إطار النظرة نفسها التي لا تفصل الموسيقى عن النشاط الاجتماعي يحض سعيد على خطى أدورنو الذي انطلق من النظرة نفسها ليكتب عن تلك المفارقة غير الإنسانية التي كثيرا ما ربطت ما بين فن عظيم وبئيل مثل الموسيقى وبين ممارسات بشعة وغير إنسانية مثل سوق نزلاء معسكرات الاعتقال من شيوعيين وأخترائيين ويهود وغيرهم على أنغام موسيقى فاغنر، فمن المعروف أن أدورنو كان من أوائل من ناقشوا هذه القضية حين أشار إلى موسيقى فاغنر وصواه من الموسيقيين العظام والتي كانت تعزف في معسكرات الاعتقال النازية أثناء اقتياد نزلاء معسكرات الاعتقال إلى غرف الغاز أو الإعدام أو التعذيب. ويدوره فإن

سعيد لم يتردد في أخذ المقارنة نفسها وتطبيقها على ما تفعله قوات الاحتلال الإسرائيلي في سجونها، فهي أيضا لم تتورع عن استخدام الموسيقى بوصفها تعذيباً، كما حدث مثلاً حين استخدمت القوات الإسرائيلية الموسيقى المعدنية «ميتال ميوزيك» لإزعاج المأخوذين في كنيسة المهدي عام 2002 في أثناء الاجتياح الشهير للضفة الغربية في آذار من ذلك العام.

يقول سعيد: «إنني مهتم جداً بالكون الاجتماعي للموسيقى. أي مشكلة أخلاقية أثارها أدورنو لعرف الموسيقى الكلاسيكية في معسكر اعتقال أوشفيتز، حيث يقوم قائد المعسكر بقتل الناس نهاراً ويعزف باخ ليلاً» (إدوارد سعيد. مقالات وحوارات ص 186). ثم ينتقل إلى ذكر بعض الممارسات العنصرية التي اعتادت أن تقوم بها القوات الإسرائيلية في فلسطين والتي تتضمن بث أجهزة المخابرات الإسرائيلية أشرطة موسيقية ليهود من الاستعانة بمكبرات الصوت وتشغيلها بأعلى ما يستطيعون في السجون الإسرائيلية أثناء تعذيب المعتقلين الفلسطينيين لإجبارهم على الاعتراف باعتبار ذلك نوعاً من الضغط البدني المعتدل، كما وصفه الإسرائيليون. يقول سعيد: «بلغني أن أحد أصدقاء ابني، وكان عضواً في حركة «دحماس»، أنه لا يحتمل سماع موسيقى يهودية. سأله: لماذا؟ فأجاب بأنهم في إسرائيل حيث التعذيب قانوني، ويستخدم في الدلالة عليه تمبير «ضغط بدني معتدل»، كانوا يضعونه في الليل في زنزانة مجهزة بمكبرات صوت ويعزفون الموسيقى الكلاسيكية بأعلى صوت ممكن وذلك لمواصلة الضغط عليه». (إدوارد سعيد. مقالات وحوارات ص 186). ويصل سعيد إلى جوهر القضية بقوله إن استخدام الموسيقى الكلاسيكية من جانب أناس لديهم ثقافة موسيقية رفيعة المستوى - حيث أن فرقة الأوركسترا الإسرائيلية تعزف أعمال يهودية وموتسارت وآخرين مثل أي فرقة أوركسترا في العالم - في مراكز الاستجواب ضد الفلسطينيين هو ببساطة، أمر لا يمكن الدفاع عنه.

الصمت والصوت

ولكن استخدام اللهج الاجتماعي لنقد الموسيقى يبلغ ذروته عند سعيد في مقالة مهمة نشرت في كتاب بعنوان «من الصمت إلى الصوت وعوداً على بدء». في هذه المقالة التي أعطت الكتاب اسمه يبحث سعيد بعمق مقولة «الصمت والصوت»، وهي واحدة من عدة مقولات استعارها من عالم الموسيقى ليستخدمها في مجال النقد الأدبي، فهو اعتبر الصمت والصوت مكونين أساسيين من مكونات الموسيقى حيث الصمت في النهاية صوت «وليس ثمة تضاد بين الموسيقى والصمت» (من الصمت إلى الصوت وعوداً على بدء. ص 29). وقد أخذ سعيد هذه المقولة من مصدرين الأول: جملة للروائي الفرنسي مارسيل بروست قال فيها إن العمل الفني هو «ابن الصمت» وأنه أنتج على حساب التعامل اليومي، والثاني: كتاب للموسيقي الأميركي جون كيج (1912-1992) بعنوان «الصمت» (1961) رأى فيه «أن الصمت والصوت أصبحا صوتين» (من الصمت إلى الصوت وعوداً على بدء. ص 28). وهو رأى أن «الفن والطبيعة غير متضادين، وأن الصوت لا يعتمد على ما هو مقصود بل على ما هو غير مقصود» (من الصمت إلى الصوت وعوداً على بدء. ص 29)، ودعا إلى عصر موسيقى جديد من التجريب يكون فيه إنتاج وتنظيم الصوت والصمت أو الشيء والعلم تجريبيين ومفتوحين بلا حدود.

وانطلاقاً من هذه الأرضية يرى سعيد أن بين الصوت والصمت ترابطاً يكاد يكون درامياً وفالموسيقى في شكلها الآلي فن صامت لا يتحدث بلغة الكلام الدلالية، ويتعمق غموضها من كونها تبدو وكأنها تقول

شيئا . ولذلك ، فإن الحديث عن الدلالة الموسيقية يؤكد بالضرورة التعارض بين الصوت واللاصوت . (من الصمت إلى الصوت وعودا على بدء . ص 26) . وهو يرى أن التطبيق الأمثل لهذه الفكرة تم على أيدي بتهوفن في العمل الأوبرالي الوحيد الذي كتبه ، وهو أوبرا « فيديليو » ، وفاغنر في أوبرا « الحاتم » الشهيرة ، ففي العملين الكبيرين يتحول الصوت الإنساني إلى دليل على الحياة وضمان لاستمرارها وتوقفه يعني الموت في ظلام السجن الذي يقبع فيه بطلا العملين لفترة في انتظار الموت ، تماما مثل شهرزاد التي كان عليها أن تستمر في ابتكار الحكايات وسردها على شهریار من دون توقف لأن توقفها ، توقف صوتها وتحوله بالتالي إلى صمت يعني موتها .

وفي الإطار الأوسع لهذه المقولة ينظر سعيد إلى تجربة بتهوفن في الاستعانة بصوت ناطق من الموسيقى كما فعل في السمفونية التاسعة التي جعل الحركة الأخيرة فيها هي أغنية « نشيد الفرح » وهي قصيدة كتبها الشاعر فردريك شيللر ، فالكلمات وعندما تضاف إلى الموسيقى تعطي بعدا إضافيا بالغ الغنى حتى لبيدو باقي بذاته بعد توقف الصوت النهائي » (من الصمت إلى الصوت وعودا على بدء . ص 16) ، وفي إطار هذا الفهم استعادة من جانب سعيد لما كان قاله فاغنر عن بتهوفن حين اعتبر أن سمفونيته التاسعة إنما كانت « خلاص الموسيقى » وأنها مفتاح الدراما العالمية التي لن يكون وراءها خطوة للتقدم . (من الصمت إلى الصوت وعودا على بدء . ص 16) ، وبكلمات أخرى ، فإنه لن يكون وراءها سوى الصمت . وللتغلب على هذا الصمت ، وجعل العبارة الموسيقية تمتد إلى ما بعد النهاية أو النغمة الختامية « فتح بتهوفن دنيا اللغة التي تمكنها طاقاتها على استيعاب النطق الإنساني الصريح من أن تقول بنفسها أكثر مما تستطيع الموسيقى قوله » . (من الصمت إلى الصوت وعودا على بدء . ص 17) ومن هنا ، كما يقول سعيد « وجد فاغنر الدلالة الهائلة لثوران الصوت والكلام في النسيج الكلي للسمفونية التاسعة ، فما رآه كان تجسيدا إنسانيا للغة تتعدى صمت النهاية والموسيقى نفسها » . (من الصمت إلى الصوت وعودا على بدء . ص 17) . فالموسيقى « رغم كل ما تتصف به من طلاقة وقدر على التعبير فإنها تخضع للزمن والإقبال أي للصمت » . (من الصمت إلى الصوت وعودا على بدء . ص 17) .

وكدأبه في الربط الحيوي بين أشكال الإبداع المختلفة طبق سعيد مقولته في الصمت والصوت على بعض الأعمال الروائية والشعرية ، فرأى في قصيدة جون كينس الشهيرة « أغنية إلى إناء غربي » التي ينفذ فيها إلى عمق الرسومات التي تزين الإناء ، « مقارنة مجازية مسهبة بين ما هو ساكن صامت وغير مسموع وما هو غير ذلك ، وتستمر هذه المقارنة في القصيدة كلها مبنية خصب الصمت وأفضليته الجمالية على شعر الشاعر الجميل » (من الصمت إلى الصوت وعودا على بدء . ص 26) ، وفي رواية « الدكتور فاوستوس » لثرماس مان يدعو لبركون ، بطل الرواية أصدقاءه إلى بيته الريفي ليبوح لهم بعقد مع الشيطان ، ولكن ضعفا شديدا ينتابه ليسقط في النهاية على البيانو ضاربا على مفاتيحه « لحنا شديد النشاز » ثم يهوي على الأرض ويستسلم إلى صمت نهائي في اللحظة نفسها التي تكون فيها ألمانيا في قمة انتصاراتها عام 1940 ، وبذلك فإن مان « يجعل من انحدار الصوت وانحدار ألمانيا شيئا واحدا » (من الصمت إلى الصوت وعودا على بدء . ص 24) .

ويلاحظ سعيد أن أوفيليا في مسرحية « هاملت » تقف عاجزة عن الحديث تحت وطأة ما رأت ولا تستطيع البوح به : « لقد رأيت ما رأيت وأرى ما أرى » ، أما إياغو في مسرحية عطيل فإنه بعد أن يحقق هدفه في تدمير عطيل يخلد إلى الصمت قائلا « من هذه اللحظة فصاعدا لن أقول كلمة واحدة » . (من الصمت إلى الصوت

وعودا على بدء. ص 24).

ولكنه لا يكتبني بإيراد هذه التأملات النافذة والتوصيفات الدقيقة بل يعني بالفكرة إلى آفاق أخرى بعيدة فيطبق هذه الأفكار على حركة التاريخ والمجتمع، فيرى أن الصمت بوصفه صوتا من نوع خاص إنما هو في أحد أشكاله صوت للممومين والمهمشين والمضطهدين الذي أسكت عبر التاريخ، وأن الانتفاضات الفاشلة التي قام بها هؤلاء في التاريخ البشري لم تكن سوى تعبير عن قمعهم وظلمهم واضطهادهم، فالانتفاضة حين تفشل تتحول صوتا مقمومعا، تتحول صمتا.

من هذه الزاوية ينظر سعيد إلى كتاب المؤرخ الإنجليزي المعروف إي إم ثومبسون وتكوين الطبقة العاملة الإنجليزية بوصفه تسجيلا لثقافة الطبقة العاملة وقصصها المخبوءة، فقبل ذلك الكتاب لم يدون تاريخ الطبقة العاملة بل كان يدمج في التاريخ البريطاني. ويعلق سعيد على ذلك قائلا إنه بعد ثومبسون أصبح الصمت أكثر رسوخا عند مؤرخي الثائونين Subaltern)، وهم طائفة من المؤرخين الذين اهتم بهم غرامشي تحديدا، والذين يصفهم سعيد بأنهم «أولئك الذين طرح كفاحهم ضد النمط المهيمن في حبس الصمت أو أسسهم تمثيلهم في النبرات الوثائق من الطبقة الموجهة»، (من الصمت إلى الصوت وعودا على بدء. ص 34)، وكذلك عند علماء ما بعد الاستعمار الذين قضى على انتماءاتهم إلى الحركات السياسية والثورات والطبقات - وفي الحقيقة إلى الشعوب - بالصمت في أنظمة السلطة والقوة التي شوهت، (من الصمت إلى الصوت وعودا على بدء. ص 34)،

ويلاحظ سعيد أن ما حدث بعد ثومبسون هو أن الصمت في التاريخ أصبح أكثر رسوخا عند حركة مؤرخي الثائونين وأبرزهم «ورناخت غوها» الذي يرى أن تاريخ الهند «لم تصنعه النخبة القومية من حركوا وطلوا في إفسار الروح الاستعمارية، وإنما صنعه فقراء المدن والفلاحون الذين كانت أصواتهم محجوبة بكتابة التاريخ القومي التي محتهم على وجه التقريب»، (من الصمت إلى الصوت وعودا على بدء. ص 36)، فلم يبق من ثوراتهم سوى «أحاديث أولية أو ثانوية أو من الدرجة الثالثة، كل ما تفعله هو أن تلقي بحقيقة الثورة أو محتواها إلى الصمت من جهة أو أن تذيبها في تفسيرات مختلفة فتجدها من قوتها كثرة من جهة أخرى». (من الصمت إلى الصوت وعودا على بدء. ص 36)، وبعد الفشل المأساوي لهذه الثورات، فإن صوتهم يؤزل إلى صمت يحتضنه التاريخ حيث يتجمد إلى أن يجد من يحوله إلينا صمتا، فما يستمر هو الصمت الذي يجد تعبيره في ما أسماه ميشيل رولف تروير «استقرار الماضي»، حيث يتجمد التاريخ ويتحجر في بعد يتعذر الوصول إليه أو استعادته ليوصل نفسه إلينا صمتا» (من الصمت إلى الصوت وعودا على بدء. ص 37). وهو يرى أن رواية «قلب الظلام» لجوزيف كونراد تمثل أقوى نموذج للصمت، فصوت مارلو هو كل ما نسمعه، أما الأفارقة الذين تكتظ بهم الرواية وفدورهم قاصر على صوت لا يفهم ودقات من الكلام الركيك. ليس ذلك فحسب بل إن شخصية قوية مثل كورتز تسكت إلى الأبد بصوت سرد مارلو الذي يشد إليه الانتباه ويتصف بغموض مطمئن». (من الصمت إلى الصوت وعودا على بدء. ص 37)، فليس هناك صوت ولا لفظ يكفي للتعبير عما ينزله الظلم والقوة بالفقير والحرور والمجرد من الميراث، كما يقول سعيد.

إن سعيد بحمله لمصطلح موسيقي مثل «الصمت والصوت» وزرعه في أرض جديدة هي أرض الأدب إنما كان يرسخ تقليدا خاصا به في التجول آخر ليس بين أشكال الكتابة الأدبية المختلفة فقط بل وبين أشكال الكتابة عموما، فقد كان هذا ما فعله في مقولات أخرى سجلت باسمه مثل استخدامه لتعبير «أداء» وهو

تعبير موسيقي بامتياز في وصف الكتابة الإبداعية، واستخدامه تعبيراً موسيقياً معروفاً مثل «تألف الألحان» في النظر إلى مشهد في رواية، أو حتى في شرح موقف سياسي، فمنه انطلق سعيد للنظر إلى الصراع الفلسطيني الإسرائيلي بوصفه تعاملاً مع تجربتين غير متصالحتين إطلاقاً (إدوارد سعيد حوارات ومقالات ص 188)، ولكن التجربة الأهم في هذا المجال هي محاولته إيجاد وشيجة بين الموسيقى ولغة الشعر بوصفها نوعاً خاصاً من اللغة، (Parallels and Paradoxes ص 119). ولكن اللغة في النهاية هي اللغة سواء تلك التي يكتب بها كيتس قصائده أو تلك التي يضع فيها الرجل العادي قائمة بمشترياته، فاللغة ديمقراطية بمعنى أن أي شخص يمكنه استخدامها، وهو قول ينسب سعيد إلى ريتشارد بواريه. ويضيف أن «اللغة الشعرية أو المجازية تقترب من بعض أوجه الموسيقى». غير أن سعيد يستدرك قائلاً «إنك لكي تقرأ قصيدة لكيتس فإن عليك أن تفهم الإنجليزية، ولكنك لا تحتاج إلى تعلم أي لغة إذا أردت أن تستمع إلى قطعة موسيقية».

(Parallels and Paradoxes ص 120).

إدوارد سعيد وأم كلثوم

لم يكن سعيد على معرفة جيدة بالفناء العربي، وهو ذكر في أكثر من مناسبة أنه لم يكن يحب استطرادات أم كلثوم الغنائية، وهذا أمر ربما كان مفهوماً في إطار ميله إلى المدرسة الموسيقية الألمانية ممثلة في فاغنر وباخ وموتسارت كما ذكرنا سابقاً فهو، حين يتعلق الأمر بالموسيقى، لم يكن يهتم بالصوت الأحادي بل بالصوت المتعدد الذي يضم أكثر من صوت واحد. كما أشار إلى تفضيله لهذه المدرسة الموسيقية على المدرسة اللاتينية، فالمدرسة اللاتينية هي الأقرب إلى الذوق العربي والشرقي عموماً، وهو ذوق يميل إلى الاستطراء والتكرار ويحتفي بالزخرف الفني بوصفه أحد جماليات الأداء الغنائي والموسيقى العربية والشرقية.

وقد أوضح سعيد موقفه هذا من خلال مقالة كتبها عن الراقصة تحية كاريوكا لدى رحيلها عن عالمنا عام 1999 ونشرها في صحيفة الحياة (في 10 تشرين الأول 1999) وهي إحدى مقالاتين مطولتين كتبهما الراحل عمن كانت راقصة مصر الأولى يوماً ونشرهما في صحيفة الحياة في مناسبتين مختلفتين كانت الثانية منهما بمناسبة رحيلها عن دنيانا عام 1999. وفي المقالتين إشارة إلى أن الموسيقى والفناء والرقص لم تكن بعيدة عن اهتماماته الهائلة في اتساعها.

وقد اعترف سعيد الذي عاش في القاهرة في فترة كانت فيها أم كلثوم تحظى بما يشبه الإجماع من حيث الإعجاب بين العرب جميعاً بأنه ربما كان استثناءً وحيداً من هذا الإجماع على الإعجاب بأم كلثوم، وهو رأي ناتج عن تجربة حقيقية لسعيد استمع خلالها لأغاني لأم كلثوم في طفولته، وهي أغان كانت من الكثرة بحيث وصلت «إلى حد النخمة» على حد تعبيره. يقول سعيد: «إنني لا أستطيع تحمل أغانيها التي تستمر الواحدة منها أكثر من أربعين دقيقة، ولا أتقبلها ذوقياً كما يتقبلها أولادي (الذين يعرفونها من التسجيلات فقط). ولكنها بالنسبة إلى الذين يميلون إلى النمذجة الحضارية، تمثل شيئاً يعبر في شكل جوهرى عن الثقافة العربية والإسلامية، بتكراراتها المترامية الطويلة ونخبها البطيء وإيقاعاتها الزاحفة وأحاديثها الصوتية المضجرة وأغانيها الدامعة أو اللبديية، وهي عناصر تطربني أحياناً ولكنني لم أستطع التألف معها، ولا أزال أشعر بأنني لم أستطع اكتشاف سر قوتها، وربما كنت الوحيد بين العرب من يشعر بذلك». (الحياة ص 9).

وإن كان في ما يقوله سعيد هنا نوع من الاعتراف بعدم قدرته على التفاعل مع أغنيات أم كلثوم التي تمثل معياراً مهماً لذوق الفن الغنائي العربي في نموذجها الأكثر مثالية، فإن ما يلفت النظر في ذلك المقطع

الذي أصبح شهيرا في صورة ما هي تلك الدقة في وصف أسلوب أم كلثوم الغنائي، فأغنيات أم كلثوم تتميز حقا بالتكرار والإيقاع البطيء وأحادية الصوت، وهي ذاتها العناصر التي تجعل من الأغنية الشرقية عموما والعربية خصوصا أغنية ناجحة ومعبرة وربما مثالية في حالة أم كلثوم. وعموماً، فإن سعيد يكاد هنا يضع الأمر في سياق يبرر له موقفه من أغنيات أم كلثوم الذي يقول إنه لم يستطع التألف معها، وإنه لم يستطع اكتشاف سر قوتها، فهو ومن دون أن يذكر ذلك صراحة يضع أغنيات أم كلثوم في مقارنة ليست في صالحها لأنها مقارنة مع الموسيقى الكلاسيكية التي تقوم على أسس تختلف تماما عن تلك التي تقوم عليها الموسيقى الشرقية عموما والأغنية العربية في صورة خاصة.

وما لم يقله سعيد باستفاضة في مقالة محددة تنشر في صحيفة يومية قاله في صورة أكثر تفصيلا في كتابه «تنويعات موسيقية» (Musical Elaborations) السابق ذكره، ففيه يتحدث عن أن كثيرا من التجارب الموسيقية المبكرة لا تتوقف عن معاودة مشاغله ذهنه، وذلك على الرغم من مشاعره الواعية التي تنبئه بأن هذه التجارب قد أصبحت قديمة وثانوية لأن تجارب أكثر صلابة وتماسكا منها قد أحدثت تغيرا في ذوقه، أو أنها أصبحت جزءا من ماض لم تعد له به صلة قوية.

ويسترجع سعيد ما يصفه بأنه أول حفلة موسيقية حضرها في حياته وهو بعد فتى صغير وذلك في أواسط الأربعينات قائلا: إن التجربة كانت محيرة وطويلة ولكنها كانت استحوذية، ولم تكن تلك الحفلة سوى إحدى الأساليب الغنائية التي اعتادت أم كلثوم، والتي كانت في قمة شهرتها آنذاك، على إحيائها في صورة دورية في القاهرة في تلك الفترة.

يقول سعيد «لم يكن لدي ما يعنيني على معرفة أن قوتها الاستثنائية بوصفها مؤدية نابعة من جماليات طابعها الأساسي وهو القيام بتنويعات يكون فيها التكرار، وهو نوع من التثبيت التأملي على نسق صغير أو نسقين، مع غياب شبه تام للتوتر التطوري (بالمعنى الجيوفني)، هو العنصر الرئيسي». (Musical Elaborations ص 98). يمثل هذا التشخيص يضع سعيد يده على نقطة اختلاف جوهرية بين جماليات كل من الموسيقى العربية الشرقية والموسيقى الغربية الكلاسيكية، فالموسيقى الشرقية، والموسيقى هنا تتضمن الأغنية، تجنح إلى التكرار وهو تكرار يجد لنفسه ربما لأول مرة تفسيراً عميقاً من ناقد موسيقي بحجم سعيد الذي يرى فيه نوعاً من «التثبيت التأملي»، وبالتالي التكرار اللغني، وبالتالي تكرار الكلمات الذي هو في الوقت نفسه تكرار للمعنى ليس حلية زخرفية يستعرض فيها المغني طبقات صوته المتعددة ومساحة صوته العريضة فقط، وهذا جزء من عملية التطريب التي يهدف المغني إلى إيصالها للمستمع على أي حال، بل هي في الوقت نفسه عملية تثبيت للحالة النفسية التي يعبر عنها المغني، وتثبيت للفكرة التي تولدها الأبيات الشعرية التي يغنيها.

أما الموسيقى الكلاسيكية، فإنها وعلى النقيض من الموسيقى الشرقية، تسير في اتجاه آخر تماماً هو الاتجاه التطوري الذي يكون فيه مطلع الجملة الموسيقية الافتتاحي نقطة انطلاق لتطور لغني في اتجاهات متعددة ومتشعبة على نحو ما نرى في الأعمال الموسيقية الكلاسيكية المختلفة وخاصة في أعمال بتهوفن. ويعني سعيد في إيراده للاختلافات الجوهرية بين الموسيقى الشرقية والغربية الكلاسيكية فيرى أن «جوهر الأداء» في الموسيقى الشرقية لم يكن يهدف إلى الوصول إلى نهاية بناء منطقي شديد العناية - يعمل من خلاله - بل للاستمرار بمختلف أشكال الأساليب الفرعية، وللتطوير والتكرار والتفصيل، والتغيير. للانحراف ثم للانحراف عن الانحراف». (Musical Elaborations ص 98).

وبعد هذا النفاذ العميق للفرق بين جوهر الموسيقى الشرقية والغربية يعود سعيد إلى العامل الثقافي الذي يلعب الدور الأساسي في تكوين الذوق الفني، فيقول: «وبسبب ثقافتي (الموسيقية والأكاديمية) التي يغلب عليها الطابع الغربي، فقد بدا لي أنني مكرس لأخلاقيات الإنتاجية والتغلب على العقبات، فنوع الفن الذي تقدمه أم كلثوم بقي مهما بالنسبة لي، ولكنه بالطبع نفذ إلى ما تحت سطح إدراكي الواعي حتى عدت، في الأعوام الأخيرة، إلى الاهتمام بالثقافة العربية حيث أعدت اكتشافها وأصبحت قادراً على ربط ما فعلته في الموسيقى ببعض ملامح للموسيقى الغربية الكلاسيكية». (Elaborations Musical من 98).

لقد جاء موقف سعيد من الموسيقى الشرقية عموماً وأغنيات أم كلثوم في صورة خاصة نوعاً من تحصيل الحاصل لموقفه الأساسي الذي أعلنه منذ البداية، فهو بانحيازه إلى المدرسة الألمانية في الموسيقى وعدم تحبذه للموسيقى اللاتينية، لم يعلن موقفاً واضحاً ومحدداً من نوع خاص من الموسيقى الكلاسيكية يكاد يكون هناك إجماع على أنه ليس الأكثر رقياً والأكثر تعقيداً والأكثر صعوبة فقط، بل وإلى مدرسة موسيقية تقوم على أساس مختلف تماماً من ذلك الذي تقوم عليه الموسيقى الشرقية. وهو انطلق في موقفه هذا من موقف متحيز من داخل الثقافة الغربية نفسها وهو في النهاية أحد أعلامها وفيها يصب إسهامه الأساسي. ومن موقعه هذا في الثقافة الأوروبية الغربية يأتي موقفه من الموسيقى الشرقية، وهو وإن لم يتمكن من استيعاب الموسيقى الشرقية وهضمها فإنه في المرات القليلة التي كتب عنها قدم تحليلات نافذة ومعقدة رغم قلتها.

عمّان

المراجع

- 1) إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية. ترجمة كمال أبو ديب. دار الآداب 1998. بيروت / لبنان.
- 2) إدوارد سعيد، الاستشراق (الطبعة الثانية). ترجمة كمال أبو ديب. مؤسسة الأبحاث العربية 1984. بيروت / لبنان.
- 3) إدوارد سعيد، خارج المكان. ترجمة فواز طرابلسي. دار الآداب 2002. بيروت.
- 4) من الصمت إلى الصوت / لصور أدبية ولغوية. تحرير محمد شاهين. دار الغرب الإسلامي 2000. بيروت / لبنان.
- 5) إدوارد سعيد / مقالات وحوارات. تقديم وتحرير محمد شاهين. المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2004. بيروت / لبنان.
- 6) إدوارد سعيد. وداعاً يا تحية. الحياة. 10 تشرين الأول 1999.
- 7) Edward Said, Daniel Barenboim, Parallels and Paradoxes. Edited and with preface by Ara Guzelinian. Bloomsbury 2003. London. UK
- 8) Edward Said, Musical Elaborations. Chatto & Widus 1991. London. UK

إدوارد سعيد الناقد الإنساني فخري صالح

من بين النقد الذي وجه إلى عمل إدوارد سعيد، وخصوصاً لكتابه «الاستشراق»، القول بأنه استخدم النزعة الإنسانية الغربية، التي لا تخلو من مركزية أوروبية فاقعة، ليشن هجومه على مؤسسة «الاستشراق»¹. ومع أن إدوارد يدرك تمام الإدراك الشخصية المزدوجة للمذهب الإنساني الغربي في أزمنة التنوير إلا أنه يصير في كتاب «الاستشراق» على ضرورة تخليص هذا المذهب من مركزية الأوروبية وإعطائه بعداً كونياً. وهو من ثم يسمي إلى السير على خطى كل من الناقد الألماني إريك أورباخ، صاحب كتاب «الحاكة» *Mimesis*، والفيلسوف والناقد الألماني ثيودور أدورنو، مضيفاً مفاهيم التنوير المتعلقة بالإنسان وحقوقه السياسية على العالم غير الغربي. وهو بهذا المعنى يرغب في استخدام القيم الإنسانية الغربية ضد الميراث الإمبريالي في الثقافة الغربية، في محاولة لعلاج فشل ذلك الميراث في الاعتراف بالقيم التي تنطوي عليها الثقافات الأخرى غير الغربية؛ ومن ثم التشديد على القيم والحريات الإنسانية الحقيقية. إنه يقترح نسخة جديدة للمذهب الإنساني مشقة من كتابات فرانز فانون الأخيرة، حيث يعمل فانون في كتابه «مذهب الأرض» على تحرير الإنسانية الغربية من فريديتها الترجسية ونزعتها الذاتية الاستعمارية التي تبرر سيطرة «الرجل الأبيض»². لكن سعيد، رغم النقد الذي توأصل لنزعته الإنسانية الإشكالية، التي تتحلّى بالعناد والضدية والروح المقاومة، شاء أن يختتم حياته بكتاب عن مذهب الإنساني وتصوره لمعنى «الإنسانية» وشرح لنسخته الخاصة من «الديموقراطية»، مواصلاً ما بدأه في كتاب «الاستشراق» و«الثقافة والإمبريالية»، وفي كتبه الأخرى، وعدد كبير من الدراسات والمقالات التي كتبها على مدار ما يزيد على ربع قرن، إلى يوم وفاته في 29 أيلول عام 2003.

من هنا يبدو كتاب «الإنسانية والنقد الديموقراطي»³ *Humanism and Democratic Criticism* بمثابة تلخيص لأفكاره ورؤيته النظرية، وكذلك العملية، للنقد؛ إنه نوع من الوداع الأخير

والتشديد على أفكار ورؤى عزيزة على نفس إدوارد سعيد، ونتاج سنوات طويلة من التعليم في جامعة كولومبيا بنيويورك.

يضم الكتاب خمسة فصول؛ ثلاثة منها هي سلسلة محاضرات ألقاها إدوارد سعيد في جامعتي كولومبيا بالولايات المتحدة وكمبريدج في المملكة المتحدة، وذلك خلال فترة تلقيه العلاج الكيميائي ضد سرطان الدم الذي أصيب به في بداية تسعينات القرن الماضي. أما الفصل الرابع فهو مقدمة كتبها سعيد للطبعة الجديدة من كتاب إريك أورباخ «الحكاية» الذي نشرته مطبعة جامعة برينستون عام 2003، فيما يتناول الفصل الخامس دور الكتاب والمثقفين العام، وهو محاضرة ألقاها سعيد في جامعة أكسفورد عام 2000، وقد نشرته من قبل مجلة ذا نيشن The Nation الأمريكية التي كان إدوارد ناقدها الموسيقي. وينبغي التنويه أيضا أن هذه الفصول كتبت في الفترة التي وقعت فيها أحداث 11 أيلول (سبتمبر) 2001، ما أحدث تغييرا جذريا في المناخ السياسي في أمريكا والعالم، وقاد إلى غزو أفغانستان، وشن الحرب على ما يسمى الإرهاب، واحتلال العراق. ويرى سعيد في تقديمه لكتابه أن هذا الوضع قد ألهم العلاقة بين الغرب والإسلام، ما جعل هذه الفصول الخمسة تنوعت تحت ثقل الوضع جيو-الاستراتيجي المختشد بالصراع والعداء المتصاعد بين العالم الغربي، وخصوصا الأمريكي منه، والعالمين العربي والإسلامي.

ورغم أن إدوارد سعيد يرى أن الثقافات تتفاعل وتتشارك بدلا من أن تتصارع، فإن الواقع الراهن يدخل هذه الثقافات في جدل حاد حول أطروحة صمويل هنتنجتون التي تقول بصدام الحضارات، وهي أطروحة يقيمتها سعيدة⁴، ويصفها بالجهل والانطلاق من رؤية عرقية للعلاقة بين الذات الغربية والآخرين من الشعوب والأقوام والأعراق المختلفة، كما أنها تبني على مصادر ثابته وضلعة من المعارف، وتستند إلى التقارير الصحفية والتحليلات الهامشية والدعائية ما يجعلها بعيدة كل البعد عن الرؤية المعرفية للباحثين الكبار وأصحاب الرؤى الاستراتيجية.

انطلاقا من هذا التصور الإنساني للثقافة والعلاقة بين الحضارات، يقر سعيد أنه عاش معظم سني نضجه في الولايات المتحدة، وأنه عمل طوال العقود الأربعة الأخيرة من حياته كمعلم وناقد وباحث بوصفه إنسانيا ممارسا (الإنسانية والنقد الديموقراطي، ص: 1). كما أنه يحدد موضوع كتابه الأخير بالعلاقة التي تربط المذهب الإنساني والممارسة النقدية في وقت تمر البشرية فيه بحالة من انعدام التوازن والحروب وكل أنواع العنف والإرهاب. فدمند الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) ألحمت كلمتا الرعب والإرهاب في وعي الناس بإلحاح غريب. وفي الولايات المتحدة كان التشديد الأساسي على التمييز بين خيرنا وشره. إنك إما أن تكون معنا أو ضدنا، كما يقول جورج بوش. إننا نغفل ثقافة إنسانية؛ أما هم فيمثلون العنف والكرهية».

(ص: 8)

في السياق السابق من المواجهة والتوتر المشعون في اغيظ السياسي والثقافي الأمريكي والكورني، الذي يكتب إدوارد سعيد انطلاقا منه، يوضع المفكر الكبير رؤيته لضرورة تأهيل التيار الإنساني في النقد والإنسانيات، وإعادة النظر فيما دمته الثورة البنوية وما بعد البنوية في العلوم الإنسانية الغربية خلال ستينات القرن الماضي وسبعيناته. ففي تلك المرحلة التي ازدهر فيها الفكر الفرنسي للبنوية، ومن ثم تيارات ما بعد البنوية، في الجامعات الأمريكية والبريطانية، على أنقاض التيار الإنساني التقليدي، جرى التشديد على موت الإنسان، وكذلك على موت المؤلف، وبرز تيار معاد للنزعة الإنسانية في أعمال كل من كلود ليفي شتراوس وميشيل فوكو ورولان بارت (ص: 9).

يتناقض هذا المشروع بالطبع مع مشروع التنوير الغربي وفلسفته الإنسانية التي تضع في مركز اهتمامها ويبحثها الإنسان الفرد، ويصبح الإنسان موضوعاً للقوة وآليات عملها، كما تظهر كتابات ميشيل فوكو الذي استفاد سعيد من عمله على الخطابات وآليات عمله في كتابه «الاستشراق». لكن رغم تأثير فوكو الواضح على عمل إدوارد سعيد، خصوصاً في «بدايات» و«الاستشراق»، إلا أن سعيد نأى بنفسه عن الرؤية الكلية المناهضة للنزعة الإنسانية التي تفحص عميقاً في عمل ميشيل فوكو، وآثر أن يأخذ من فكر الأخير جوانبه التقنية دون المنظور الكلي لعلاقة الإنسان بالسلطة وطرائق عملها. ظل سعيد مؤمناً بالنزعة الإنسانية وأفكار التنوير التي تدعو إلى العدالة والمساواة والتحرر والتعلم، وأن مثل هذه الأفكار قد ساعدت البشرية على مقاومة الحروب غير العادلة والاحتلال العسكري والظلم والاستبداد (ص: 10).

لقد جرى توجيه الانتقاد واللوم إلى سعيد بسبب هذا التعارض القائم في عمله⁵، وللشرح العميق الذي يشق «الاستشراق» وكذلك «الثقافة والإمبريالية» من الداخل. ففي هذين الكتابين يدرس سعيد أشكال التمثيل وآلياته ويشير إلى كيفية تحول المستشرق أو الكاتب في ظل الإمبراطورية، إلى حامل للخطاب ومفتوه باسمه، بصورة قسرية ربما هي جزء من طبيعة الخطاب نفسه كما عينتها ميشيل فوكو. لكن صاحب «الاستشراق» سرعان ما يشدد على النزعة الإنسانية طارحاً جانباً رؤية ميشيل فوكو المتشائمة للتاريخ الإنساني وعدم قدرته على تمييز أية إمكانية للمقاومة في غابة علاقات القوة والمعرفة والخطاب المتشابكة التي يصعب شق طريق للخروج منها.

يكتب إدوارد سعيد في «الإنسانية والنقد الديوقراطي» مدافعاً عن علاقته بالنزعة الإنسانية في النقد، ومبرراً كون هذه النزعة ما زالت صالحة للاعتناق في بداية قرن يشهد حروباً عرقية وصداماً مزيفاً بين الثقافات:

« يمثل التغيير قوام التاريخ الإنساني، كما أن التاريخ الإنساني، الذي يصنعه الفعل الإنساني، ويعلمه استناداً إلى هذه الفعلية، هو الأرضية التي تقوم عليها الإنسانية.

لقد آمنت من قبل، وما زلت أؤمن، أن بالإمكان انتقاد المذهب الإنساني باسم المذهب الإنساني، وأن المرء، رغم معرفته الأكيدة بمفاسد هذا المذهب وسوء استعماله من قبل المركزية الأوروبية والإمبراطورية، يستطيع أن يصوغ نوعاً مختلفاً من النزعة الإنسانية التي ظلت كونية الطابع ومشدودة إلى النص واللغة بطرق قادرة على استيعاب دروس الماضي، لنقل تلك التي نستعدها من إريك أوريباخ وليو شبيتزر، وحديثاً من واحد مثل ريتشارد بوايه، في الوقت الذي نظل في حالة تساوق مع الأصوات الجديدة وتيارات الحاضر التي يشكل أكثرها النضوب والمهاجرون ومن لا بيت لهم، وكذلك الأمير كيون. فيما يتعلق بفرضي هنا، فإن قلب النزعة الإنسانية ينطوي على فكرة الدنيوية التي تقول بأن العالم التاريخي يصنعه الرجال والنساء... » (ص: 10 - 11)

يردد إدوارد سعيد في كلامه السابق صدى جيوفاني باتيستا فيكو (1668-1744) في كتابه «العلم الجديد» الذي يشدد على أن البشر يعرفون فقط ما يصنعون، وأن رؤيتهم للأشياء تتطابق وزوايا نظريهم، وأن معرفة البشر التاريخية تستند إلى طاقاتهم القادرة على صنع المعرفة لا على امتصاصها بصورة سلبية⁶. ويعد سعيد هذه الرؤية لتصبح «النزعة الإنسانية اكتساباً للمشاكل من خلال الإرادة والفعلية البشريتين؛ ليست الإنسانية نظاماً أو قوة لا شخصية كالسوق أو اللاوعي... » (ص: 15) وتتواءم هذه الرؤية مع تشديد إدوارد

سعيد على دنيوية النصوص وعلمانية المقاربة النقدية بصورة تقترب من نسخة النزعة الإنسانية التي ينادي بها في معظم كتبه، حتى في «الاستشراق» الذي درس فيه علاقة الخطاب بالقوة واختبر نظرية ميشيل فوكو في الخطاب.

بغض النظر عن التعارضات التي تقيم في عمل سعيد، فيما يتعلق باستنساخه نوعاً من المذهب الإنساني، أو خطاب التنوير الغربي، فإننا بصدد رؤية مثالية، كونية، لتفاهق الثقافات وتغاعلها وتكويها حول أفكار محددة خاصة بالمعادلة والتسامح ونبذ الاستبداد والدعوة إلى مقاومة الهيمنة، والاستعمار والكولونيالية، في زمن يعود فيه الاستعمار العسكري والاحتلال المباشر إلى إملاء الإرادة على الشعوب المستضعفة. إن النسخة الإنسانية التي يطالب بها سعيد هي تلك التي يتحدث عنها ليو شيجتز في كتابه «اللسانيات والتاريخ الأدبي» (1948) الذي يُعرّف المختص بالإنسانيات بأنه ذلك الشخص «الذي يؤمن بقوة العقل البشري على فحص العقل البشري». ويخفي سعيد عن النزعة الإنسانية في النقد والتفكير أن تكون ذات طبيعة انسحابية أو إقصائية لأن عملية التفحص النقدي للعمل والطاقت الإنسانية الخاصة بالتححرر والتنوير، وحتى للقراءات والتمثيلات الحاطة للماضى والحاضر الجمعيين، هي غاية هذه الرؤية الإنسانية النبيلة.

يستند إدوارد سعيد في نسخته الجديدة من النزعة الإنسانية في النقد والفكر والفلسفة إلى تغير السياقات الحضارية والثقافية في عالم اليوم. ففي نهايات القرن التاسع عشر كان نقاد الأدب، ومن بينهم ماثيو آرنولد و ت. س. إليوت ونورثروب فراي، وعدد كبير من أتباعهم، ينطوون على نزعة أوروبية مركزية، بل إنهم كانوا ذكورين في توجهاتهم، يشددون على حدود الأنواع الصارمة، أو على الأغماط البدئية كما يسميها فراي. في الوقت نفسه لم يكن هؤلاء النقاد معينين بتعيين الشروط التاريخية أو السياسية أو الاقتصادية أو الأيديولوجية التي ساعدت على ظهور الرواية أو الدراما. وكما يشدد سعيد، فإن هؤلاء النقاد، الذين ينتمون إلى ميراث التنوير الغربي الإنساني، لم يذكروا في كتاباتهم أي شيء عن كتابات النساء أو الأقليات أو عالم الفعلية الإنسانية الممتدة (ص: 39). لكن البحث الأكاديمي والممارسة النقدية مرا، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، بتحولات عميقة طالت حقول البحث واللغة النقدية والمصطلحات التي يستعملها النقاد. لقد مست يد الخشك طريقة معالجة النقد للنصوص ورؤيته للجماعات، والانتسابات التي تقوم بين الكتاب والتشكيلات الاجتماعية والطبقات والقوى التاريخية، والعلاقة بين المعرفة والقوة؛ وهو ما أدى إلى تجويف الصيغ الجمالية والحدود والأطر القومية وغير القومية التي تشرط الكتابة وأنواعها. ولهذا لم تعد مفاهيم المؤلف والعمل والأمة تعني الأشياء نفسها التي كانت تعنيها سابقاً (ص: 41). حتى مفهوم الخيال نفسه، الذي يعد واحداً من المفاهيم المركزية في فلسفة التنوير، وفي المذهب الإنساني بعمامة، مر بعملية تحول كوبرنيكي، حيث حلت محل ذلك التعبير السحري مفاهيم كالأيديولوجيا (ماركس وإنجلز)، واللاوعي (فرويد)، وبنيات الشعور (ريغوند وليامز)، والقلق (هارولد بلوم).

لقد تغير الوضع في زماننا تبعاً للتغيرات الديموغرافية التي أصابت الغرب نفسه، كنتيجة للهجرات المتعددة التي تعد الطابع الذي يسم العالم اليوم. كما تغير حال البشر بسبب الطابع العملي للكون، ودخول الإنترنت إلى مؤسسات وبيوت لا حصر لها، بحيث أصبح الفضاء التخييلي والواقع الافتراضي جزءاً من جسم المعرفة البشرية. يفتصل إدوارد هذا التغير الذي أصاب بعضاه السحرية البشر والأشياء قائلاً: إنه بدأ التعليم في جامعة كولومبيا منذ عام 1963، وكان طلابه في تلك الفترة ذكورا بيضا لكنهم صاروا في بداية القرن الحادي والعشرين ذكورا وإناثا متعددي الأعراق. في الوقت نفسه تغيرت المقررات الجامعية،

التي كانت تفرض على الطلبة، من الآداب التي تنتمي للآرث الثقافي الإغريقي والروماني والعبري، إلى تعددية ثقافية تضم، إلى جانب ذلك الإرث الغربي الأبيض، نصوصا وثقافات كانت مهملة وأصبحت جزءا من المقررات الدراسية *The Canon* الذي ساهم أشخاص، من بينهم إدوارد سعيد نفسه، في تثبيتها كجزء أساسي من تعليم الإنسانيات في الجامعات الأمريكية خاصة، والغربية عامة. ويذكر إدوارد أنه، وجيله، تعلموا على أيدي أناس مثل ت. س. إلبوت، وجورج لوكاش، و. ب. بلاكفور، ونورثروب فري، وريوند وليامز، ورونيه ويليك، وكلهم تقريبا كانوا يقيمون، على الصعيد العقلي والجمالي واللغوي والمعرفي، في العالم الأوروبي أو في منطقة شمال الأطلسي، كما أن صلتهم بالكلاسيكيات الغربية، أو الكنيسة أو الإمبراطورية أو التقاليد الثقافية أو الأدوات الأيديولوجية أو النصوص المقررة في التعليم الجامعي، جعلتهم يفضّلون النصوص الغربية وينتمون [واعين أو غير واعين] للمركزية الأوروبية (ص: 44).

يقترح إدوارد سعيد للخروج من دائرة المركزية الأوروبية الجهنمية، التي جعلت فرائز قانون يعلق قائلاً: إن نصب المذهب الإنساني الإغريقي-الروماني يتداعى في المستعمرات، أو يتم نقد النزعة الإنسانية الغربية من الداخل، بوصف ذلك النقد شكلاً للحرية الديمقراطية ونوعاً متصلاً من المساءلة ومراكمّة المعرفة حول الوقائع التاريخية لعالم ما بعد الحرب الباردة، وتشكيلاتها الكولونيالية، والامتدادات الكونية لأمريكا الدولة العظمى الوحيدة في العالم الآن (ص: 47). إنه نوع من الانقراض على تركة المذهب الإنساني بتواطئه الإمبراطورية وعلاقة المعرفة فيه مع القوة والخطاب الإمبريالي في القرنين التاسع عشر والعشرين، واستبدال ذلك المذهب بنقد ديمقراطي ومعرفة إنسانية ذات طبيعة كونية. ولا يتم ذلك إلا عبر الاستعانة بميراث الأمم الأخرى غير الغربية. يضرب سعيد على هذا النوع من الاستعانة المعرفية مثلي الإسناد والاجتهاد في المعرفة العربية الإسلامية، حيث يمكن للناقد أن يعد القراءة عملية مفتوحة قائمة على تراكم المعرفة، وهو يجادل هذا النوع من القراءة، التي تعود إلى الأصول وتطمح إلى الاجتهاد في رؤيتها النقدية، مع قراءة النقاد الأميركيين الجدد الدقيقة المحصنة *Close Reading* وميراث التأويل (الذي يظه كل من شينتز وإريك أورباخ) والاستقراء والعناية بالتفاصيل الدقيقة التي توصلنا إلى الكليات. لكن القراءة النقدية لا تكتمل هنا، فعلى الناقد الإنساني أن يواجه قوى العولمة والطموحات الإمبريالية والليبراليين الجدد الذين يشنون حرباً شعواء على قيم الديمقراطية والمساواة، ويخربون البيئة، انطلاقاً من جشعهم الاقتصادي وسيطرتهم على عدد من المؤسسات الضخمة، الاقتصادية والإعلامية.

إن هذا التركيب، الذي يقترحه سعيد، من النزعة الإنسانية، التي جرى تخليصها من مركزيتها الأوروبية وتواطئها مع الإمبراطورية والإمبريالية، هو بمثابة الوعي الذي يمكنه توفير تحليل ضدي لعلاقة فضاء الكلمات وأصولها المختلفة وطرق استعمالها في الفضاء الفيزيائي والاجتماعي. وهو الوعي الذي يعمل على تتبع علاقة النص بأشكال استنساخه أو مقاومته، بيته وقراءته وتأويله؛ بمروره من الحيز الخاص إلى الفضاء العام، من الصمت إلى الصوت، وبالعكس (ص: 83).

ويختتم إدوارد كتابه بهذه الكلمات القوية عن الدور العام للكتاب والمثقفين في العالم المعاصر: «إن بيت المثقفين المحجوز لهم يتمثل في الحقل الذي يتصل بما هو ملح وضروري ومقاوم، في الفن العنيد الذي لا يقدر المرء، للأسف، على الانسحاب منه أو البحث عن حلول فيه» (ص: 144) ما يعني أنه يرهن دور الناقد، والمثقف بعمامة، بالهمة المستحيطة للمقاوم الأبدي، للمعارض الذي ينبغي عليه أن يقول الحقيقة للسلطة مهما كان الثمن.

1. انظر: Valerie Kennedy, Edward Said: A Critical Introduction, Polity Press, Cambridge (UK), 1993, pp. 34-35.

2. انظر: Edward Said, Culture and Imperialism, Chatto and Windus, London, 1993, p. 325. 3. University Press, New York, 2004. Edward Said, Humanism and Democratic Criticism, Columbia

4. انظر مقالة إدوارد سعيد حول هنتنجتون تحت عنوان «مدام الصريعات» في: Edward Said, Reflections on Exile and: 590-Other Essays, Harvard University Press, Cambridge (Massachusetts), 2000, pp. 569.

5. يخصص الباحث الهندي إعجاز أحمد في كتابه «في النظرية: طيفات، شعوب، آداب» فصلا طويلا لسعيد، بادلا بكتاب «الاستشراق» بوصولا لكتاب «بعد السماء الأخيرة»، محاولا أن يضع يده على التمازجات التي تقيم في قلب كتابات إدوارد سعيد، خصوصا فيما يخص بطلانة نص سعيد الإشكالية مع عمل فروكو. يكتب إعجاز أحمد: «... بعد أن يحشد سرديات الأدب الأوروبي، يلما من إسغولوس وصولا إلى إدوارد لين، بوصفها جميعا تاريخا لتواطؤ الأدب مع مهمة احتقار «الشرق» وتهوين شأنه، وبعد أن يطابق بين مشروع التنوير والاستشراق والذكورونية، يلف سعيد في مواجهة معضلة التطور على نوع من الفعالية التي يمكن أن تنهي هذه العلاقة القائمة، منذ عصور، بين السرديات الإنسانية الكبرى والمشروع الاستعماري. عند هذه النقطة بالذات تكتشف استعصاء ناهرا، فما يعرضه سعيد هنا من بين أكثر الأشياء ألفة بالنسبة لنا، أي أكثر القيم الخاصة بالليبرالية الإنسانية: التسامح، والتكيف مع حاجات الآخرين، والتعددية الثقافية والنسبية؛ إضافة إلى تمهيرات تتكرر في نص سعيد مثل: التعاطف، والجمهور، والانتساب، والنسب».

Aijaz Ahmad, In Theory: Classes, Nations, Literatures, Verso, London, 1992, p. 164.

6. علينا أن نذكر أن فيكو هو واحد من أبطال إدوارد سعيد ومفاهيمه، وهو كثيرا ما يذكر اسمه على الدوام في كتبه ودراسته ومقالاته وحواراته. إنه يشرح علاقته بكتابات فيكو في واحد من الحوارات التي أجريت معه في النصف الثاني من ثمانينات القرن الماضي قائلا: «إن الأثر الذي تركه في نفسي والعلم الجديد عندما قرأته لأول مرة حين كنت طالبا في للرحلة الجامعية الأولى، قد يكون ناتجا عن المشهد الذي يرسمه فيكو في بداية الكتاب: مشهد الرجل الوديعي الولي، مشهد المصالحة؛ في المرحلة التي عقت الطوفان مباشرة والبشر يهيمون على وجوههم تائهين على ظهر البسيطة حيث يبدؤون بتعطيم أنفسهم بالتدريج نتيجة للخوف من جهة وللعداوة الإلهية من جهة أخرى. هذا النوع من المصاعبة والاعتماد على الذات سحرني ولقت انتباهي لأنه يقيم في قلب جميع الرؤى التاريخية الأحيلة والحادقة (وأنت ترى ذلك في عمل ماركس، وكذلك في عمل ابن خلدون): الطريقة التي يشكل بها الجسد من نفسه عقلا وجسدا، ثم يكون مجتمعاً. هذا في حارق وشديد القوة؛ إنه يستخدم التصور التي يدرسها بوصفها زخرفية أو فلسفية ويوظف أسلوبه الأدبي ليشكل رؤيته الحارقة لعملية التطور والتعلم. لقد بهرتني ذلك بوصفه شديد القوة والشعيرة».

انظر: النقد والمجتمع: حوارات مع رولان بارت، بولي دي مان، جاك فريدا، نورثروب فراي، إدوارد سعيد، جوليا كريستيفا، تيري إيجلتون، ترجمة وتحرير: فخرى صالح، دار كنعان، دمشق، 2004، ص: 136.

7. للتعرف على عرض إدوارد سعيد لمفهومي الإسناد والاجتهاد انظر:

Edward Said, Humanism and Democratic Criticism, pp. 68-71.

إبراهيم طوقان في مئوية ميلاده:

هل تنتشر أسلوب حياة؟

أحمد دحبور

لم يكن إبراهيم طوقان مضطراً إلى انتظار مرور قرن كامل على ميلاده، حتى تذكر فلسطين أنه شاعرها الذي ارتبط اسمه باسمها، ما دفع بنافذ من وزن د. إحسان عباس إلى القول: «لا شك في أن إبراهيم طوقان أكبر شاعر أجهته فلسطين حتى أواخر العقد الرابع من القرن العشرين». ولستنا ملزمين، طبعاً، باعتماد لغة أسماء التفصيل: أكبر، وأشعر، وأهم.. إلا أننا نأخذ منها الدلالة التي تعيننا إلى أن هذا الشاعر نسيج وحده، من حيث مروقه كالمسح في حياة فلسطين الثقافية، محروصاً، متغزلاً، متأملًا فيما هو يسخر ويفاجئ ويجدد على طريقته. وإلى ذلك حققت لحظة هذا الشاعر نوعاً من المفارقة المركبة. فهو جزء من التاريخ شبه الرسمي، شبه المعتمد، للشعر في فلسطين. وهو أيضاً حالة متفردة متعالية على النمط. أضف إلى ذلك سنواته المحدودة التي قضاه في هذه الدنيا، وحسرة قرائه المهين على مشروعه الذي قضى وهو في ذروة الفرح الفني.

في نابلس، عام 1905، رأى إبراهيم عبد الفتاح طوقان لمعة النور لأول مرة. وتشهد شقيقته وتلميذته المبدعة فدوى طوقان على شخصيته، فتؤكد أنه «كان لعرباً إلى حد بعيد، لا يقتصد إذا أخذ بسبب من أسباب العبث واللعب». أما بهيته الضيقة فتحدها فدوى في ثلاثة: جدته الحافظة الجمادة، وجده الخنون، محب الشعر الذي كان يحتضنه «فيتقارضان من الشعر والزجل والعتاب ما يعيه قلباهما»، وشقيقه أحمد الذي يشر له استهجاب العروضي، وكان رقيباً موضوعياً على بداياته، يحتفل بأحاوله الناجحة، ويأمره بتزيق المحاولات غير الناضجة، وكان الأديب اللبناني الساخر سعيد تقي الدين، يشارك أحمد في الحذب على الفتى إبراهيم وتشجيعه وتحريضه على اجتراح الجديد.

أنهى دراسته الابتدائية في المدرسة الرشيدية النابلسية، وانتقل إلى مدرسة المطران في القدس ليقفز منها، بعد نجاحه في الثانوية، إلى الجامعة الأمريكية في بيروت، فينشط، ويحب ويغازل، ويعقد صداقة مع أستاذه لويس نيكول الوهمي الذي حبب إليه شعر عباس بن الأحنف. وكان إبراهيم يفكر في تحقيق ديوان ابن الأحنف إلا أنه لم يفعل.

عاد إلى نابلس عام 1929 وفي يده شهادة التخرج من الجامعة الأمريكية . لم يحب التدريس لكن تلك كانت رغبة أبيه ، فعمل أستاذاً للغة العربية في مدرسة النجاح الوطنية .

ثمة أربع سنوات خصبه الأيمة في حياة إبراهيم ، هي تلك التي قضاها بين 1936 و 1940 رئيساً للقسمة العربي في إذاعة القدس . فخلال هذا العمل اشترك مع دعاة العامة منتصراً للفصحى المسيرة ، واقتراح قراءة جديدة لبعض فصول التاريخ ، فأذاع قصة «جزء الأمانة» التي اقتبسها من «كتاب الاعتبار» لأسامة بن منقذ ، إلا أن إبراهيم رفض أن يأخذ ولاء السموأل على محمل الشهامة ، معزّضاً بهذا الأمير الأريحي . . وكانت نتيجة هذه المشادات والمشااحنات ، أن أقبل شاعرنا من عمله في الإذاعة يوم 1/10/1940 .

إلا أن تلك الفترة - عام 1937 تحديداً - شهدت الحدث السعيد الأبرز في حياته ، عندما التقى سامية عبد الهادي ، فتحابا وتزوجا وأنجبا ، بعد ذلك ، ولداً وفتاة ، هما جعفر وعريب

كان إبراهيم يعاني من علة في المعدة . وقد عولج غير مرة ، وذهب إلى مصر للاستشفاء . أما سفره إلى العراق فكان بهدف مزاوله التعليم الذي لم يكن محبباً إلى نفسه ، فعاد أدراجه إلى فلسطين ، ودخل إلى المستشفى الفرنسي في القدس . وتقول فدوى : «وبعد أيام قليلة ، في مساء الجمعة ، الثاني من شهر أيار سنة 1941 ، أسند إبراهيم رأسه إلى صدر أمه ، وقد نرف دمه وخارت قواه ، وهناك أسلم روحه الطاهرة إلى بارئه ، واستراح استراحة الأبد . وهكذا كانت جولة إبراهيم طوقان في هذا العالم قصيرة إلى حد أنها لم تتجاوز الست والثلاثين سنة . هل نذكر ، للمناسبة ، أن هذه هي سنوات غسان كنفاني أيضاً على هذه الأرض ؟

شاعر الوطن

كان في الثامنة عشرة من العمر ، يوم رأى اسمه مطبوعاً . إذ سعد عمه حافظ طوقان بمحاولته الشعرية البكر ، وحملها إلى صحيفة محلية ، فنشرتها . ومنذ سنة 1923 أصبح إبراهيم في عداد الشعراء . وكان عليه أن يمي ، تلقائياً ، معنى أنه ابن وطن مهدد . فلم يكن قد مر على وعد بلفور المشؤوم إلا تسع سنوات ، لكن الخطر كان يجري في تيرة متسارعة . وكان قلق الفتى إبراهيم على مصير بلاده ، نوعاً من القلق الشخصي - الوجودي إن شئت . فالصراع صراع إرادات . وليس القاضي ، إلا احتل البريطاني ، الذي وعد الغريم الغازي بوطن قومي في فلسطين .

طبيعي أن تنطق أشعار إبراهيم بضمير الجماعة . فهنا «نحن» مقابل الغزاة «هم» أو «أنتم» - حسب الطبيعة الفنية للخطاب - ولكن الضمير ، في العمق والجوهر ، إنما يمرر عن لحظة وجودية تملأ على الشاعر كينونته ورؤياه . هو ذا يردد على الشاعر الصهيوني رثوين ما كتبه هذا من شعر يرمّز بالعرب ، ويتقص من أمهم التاريخية هاجر ، بوصفها جارية عند أم اليهود سارة . وسرى أن رد إبراهيم ، وهو في خضم الأيديولوجيا ، ينزع منزعاً شخصياً قلباً :

هاجرٌ أمنا ولود رؤوم	لا حسود ، ولا عجز عقيم
هاجر أمنا ومنها أبو العرب	ومنها ذاك النسي الكرم
نسب لم يضع ، ولا منزع	بابل ، أيها اللقيط الزنيم

إلا أن هذه المساجلة مع الرواية الصهيونية ، لم تصرفه عن الانتباه إلى رأس الأفعى . فوجد بلفور هو أساس البلاء . ولهذا لم يكن من المصادفة أن يتواقف نشر قصيدة إبراهيم هذه مع قصيدته «البلد الكتيب»

لناسبة إضراب فلسطين يوم ذكرى وعد بلفور. والقصيدتان من إنتاج عام 1929 :

بلفور كاسك من دم الشهداء لا ماء العنب
ما أنت إلا الذئب قد صوّرت من طين الشقاء
والذئب وحش لم يزل يضربى برائحة الدماء

ولا يصعب توزيع الخطاب الوطني في شعر إبراهيم على ثلاثة محاور: الأول، يتصل بالمساجلة ورد منطق الأعداء بمنطق الشعب القائم على الحق ومطلب الحرية. وإذا كنا نتقرب في هذا الحور قسمات وجودية لتراءى متداخلة في الشأن الموضوعي. فإن الحور الثاني يأخذ طابع السخرية المرة من واقع الاحتلال والحياز برطانيا إلى مضمون وعد بلفور. وفي السخرية يكون المشهد أكثر اقتراباً من الخطاب الذاتي. فهي ليست هجائية كالتي اشتهر ابن الرومي بها مثلاً، ولكنها نابعة من مرارة المظلوم الذي يرى عدوه المتجبر يلوي عنق الحقيقة متظاهراً بالأرحمة الخائبة. هو ذا يخاطب الإنكليز:

وجعلنا من لطفكم يوم قلتم
غير أن الطريق طالت علينا
أجلاء عن البلاد ترويون
فنجلو، أم منحونا والإزالة؟
وعد بلفور نالده لا محالة
وعليكم فما لنا والإزالة؟

وهو في سياق آخر، يقارب السمات الشخصية، الفردية، ببنية الاحتلال، كأنما الاحتلال هو مرجعية الموء والرداء، على الضد من البهجة التي هي عنوان الجمال. وما أحسب هذا الثقيل الذي هجاه إبراهيم إلا ذريعة للتعدي بالاحتلال والسخرية منه، حتى لأشك في وجود هذا الثقيل، لا لاندماض أمثاله في الحياة، بل لأنه غير ضروري إلا بما هو مجال للمقارنة مع أبشع ما في الوجود... أي الاحتلال:

أنت (كالاحتلال) زهو وكبراً
أنت (كالاكتئاب) عجباً وتبها
أنت (كالهجرة) التي فرضوها
ليس من حيلة لقومك فيها

وبواصل تشبيه الثقيل ببائع الأرض وأعداره التي يدعيها، ويوجه السهم، ويجعل جبينه كالجريدة التي ولم تجد كاتباً عفيفاً نزيهاً، أما حديثه فهو كالاحتجاج الذي يرفعه الساسة بلا معنى ولا فائدة، وينتهي:

جمعت إليك عصبه للبلايا
وأرى كل أمة تشتكيها

ويقصد عصبه الأمم، وهي الهيئة الدولية التي أنشأتها الدول الاستعمارية غداة الحرب العالمية الأولى، وورثتها، بعد ذلك، هيئة الأمم المتحدة إثر الحرب العالمية الثانية.

أما الحور الثالث، فيدور حول العامل المحرك في الحياة السياسية، مقاومة ومناورات، وإذا كان الشعب هو هذا العامل، وهو كذلك، فإنه موزع بين الفدائي والشهيد والقوى الوطنية من جهة، والرجع الدعي الناعم بالقطعة والاختلاف من جهة ثانية. ولأن إبراهيم كان طرفاً وليس معلقاً أو محلاً سياسياً، فلما أن نقدر نبرته العالية في إدارة قصائده حول هذا الحور بين السخط والسخرية والتحرّض.

شاعر الشقاء

وإذا قلت الشهيد والشهداء في شعر إبراهيم، يحضر بقوة يوم الثلاثاء الحمراء، هذه القصيدة التي ثبتت في الذاكرة الفلسطينية العربية منذ عام 1930، إثر هبة البراق، عندما اقتيد الأبطال الثلاثة فؤاد حجازي (من صفد) ومحمد جعجوم وعطا الزير (من الخليل). وأقدم الاحتلال البريطاني على إعدامهم

شقاً في عكا . ولا يزال أهل عكا حتى اليوم يحرسون قبور الشهداء الثلاثة ويدهنونها بالزيت العلم الوطني . وهكذا أصبح في الذاكرة متسع لأغنية الشاعر الشعبي نوح إبراهيم «من سجن عكا طلعت جنازة» ، لواقع القبور أخروسة .. ولقصيدة «الثلاثة الحمراء» لإبراهيم طوقان . وخلافاً للشعر الوطني الذي كان سائداً قبل زهاء ثمانية عقود ، لم تأت هذه القصيدة في بناء كلاسيكي يجمع البكاء إلى التمجيد ، بل أراد لها الشاعر بناء درامياً ، يبدأ بمقدمة تحيط بالشهد ، كأنما المكان هو أول جهة تتلقى النبأ :

لما تعرضت بجمك النحوس وترلحت بلدى الجبال رؤوس
ناح الأذان وأعزل الناقوس فالليل أكدر ، والنهار عبوس

ويعني في رصد المكان ، وقد غدا غير المكان ، والزمان وقد ابتلى بلحظة قاتمة ، فيما يأمل المواطنون - بغير كبير رجاء - أن يحصل الأبطال على غفو من أي نوع . ولكن الحاكم المستعمر هو الحاكم المستعمر . وليس للحياة ، بصوت الشاعر إلا أن تتوعد :

لا تعجبوا لمن الصخرور تبع يفرور

أما الحركة الثانية ، ولا مناص من استخدام لغة الموسيقى ، فقد وزعها الشاعر على ثلاث ساعات ، وأعطى كل شهيد ساعة تميز موقعه من الشهادة . فإذا كان فؤاد حجازي هو أول من صعد المشنقة ، فلساعته أن تقول :

أنا ساعة النفس الأبية الفضل لي بالأسبقية

أما الشهيد محمد جمجوم ، فمعروف عنه أنه سبق زميله عطا الزير إلى المشنقة ، مع أن دوره كان الثالث ، وفي هذا تقول ساعته ، حسب إبراهيم طوقان :

أنا ساعة الرجل المعتيد أنا ساعة البأس الشديد

بطلي يحطم قيده رمزاً لتحطيم القيود

وكانت الساعة الثالثة مكرمة للشهيد عطا الله الزير الذي تخرج ألم استشهاده رفيقه :

أنا ساعة الرجل الصبور أنا ساعة القلب الكبير

رمز الثبات إلى النهاية في الخطير من الأمور

وفي كل من الساعات الثلاث ، وقت للضمير الجمعي الذي يقسم بالوفاء على مواصلة المسيرة . وتأتي الحركة الثالثة بعنوان «الخاتمة» التي تجمل الشهداء الثلاثة في جنة الرضوان ، حيث لا شكوى من الطغيان .. ومع أن الشاعر استخدم ، في هذه القصيدة ، بعبارة واحدة هو الكامل ، إلا أنه أخذه كاملاً ومجزئاً ، وبتفعيلة واحدة أحياناً ، موظفاً عدداً كبيراً من القوافي : السين والغاء والهاء والدال والباء والميم والراء والهجرة والواو واللام والنون والعين ، وعمد أن ينهي كل مقطع بقافية موحدة هي الراء المكسورة . وهو نظام خاص به ، وإذا كان مسبوفاً بتجريب شعراء المهجر ، فإنه أخذ من أولئك مبدأ التجديد ، لكنه وظفه على طريقته ليطابق الإيقاع خفقات القلوب وتوتر الشاعر ، كأنما الشاعر يرثي شهداء الأمة بكل ما أوتيت الأمة من غنى في اللغة والجرس الموسيقي . وقد بشر بهذا الجرس من خلال الإشارة الوجدانية المبكرة إلى الأذان والناقوس .

أما قصيدته الشهيرة بهـ الشهيد ، فهي وإن لم تبلغ بها المغامرة درجة التنوع في «الثلاثة الحمراء» إلا أن اللات فيها هذا الاقتصاد اللغوي حتى ليجمع العبوس والابتسام والطغيان والاقتحام في بيت مجزوء مؤلف من ست كلمات :

عيس الخطب فابتسم وطني الهول فاقتمح

وما ذلك إلا لأن إيقاع القصيدة يؤاخي إيقاع الفدائي الشهيد الذي يسبق الفعل عنده أي خطاب :

وأخو الحزم لم تزل يده تسبق القضا

ولأن الجانب الذاتي يلح على الشاعر في هذا النوع من القول، فهو لم يجرد من الشهيد قديساً خارج الزمن، بل يتوقف عند شاب قد يكون سجيناً، وليس له أهل يعرفون عنه شيئاً، حتى أنه لم يحظ بالكفن:

ربما غاله الردى وهو بالسجن مرتين

لم يشيع بدمعة من حبيب ولا سكن

ربما أدرج التراب سلباً من الكفن

وعلى هذا الإيقاع، سرت قصيدة «الفدائي» التي لا تقل شهرة عن قصيدة «الشهيد». ومع ذلك كان يمكن الفدائي أن يكون أي بطل يفتدي وطنه، إلا أن الشاعر انشغل برسم ملامح شخصية له. مؤكداً، في كل مرة، أن البطل ليس آلة بطولة، وإنما هو مشاعر ورؤيا وهموم وعزبة:

لا تسلم عن سلامته روحه فوق راحته

بدلته همومه كنفماً من وسادته

شاغل فكير من يرا ه بإطراق هامته

بل إن الشاعر لا يتجاهل لحظة الضعف الإنسانية التي تلتم بهذا الفدائي، ولحظة الأنا الأعلى التي تشده إلى مهمته:

مرحين فكاد يقد قله اليأس إنما

هو بالباب واقف والردى منه خائف

فاهدني يا عواصف خجلاً من جراحته

وهكذا، من جديد، تتوالى العواطف وتتقاطع، لتخدم لحظة الانفعال والتوتر والانتقال من وضع إلى آخر من مواجهة الحقيقة. على أن إبراهيم لا يحرص دائماً على هذا التنوع والتوتر في إيقاعاته، بل يعطي لكل مقام مقالاً. سنراه مثلاً في رثاء موسى كاظم الحسيني، ذلك الشيخ الجليل، قائد الحركة الوطنية في زمانه، وإذا بالقصيدة تلبس لبوسها التقليدي بنظامها البحتي الصارم. فمثل هذا الشاعر الحاز، المستجيب، يترك الإيقاع الشعري على هدي إيقاع الحياة. ولا يمكن أن يكون متعمداً في ذلك، بل إن حرارة المشهد قلبي عليه درجة الفوران في القصيدة، لا بمعنى أن القصيدة التقليدية عنده هي استجابة باردة للحدث، بل بمعنى أن الوقار فيها يلازم وقار اللحظة، فيما تغلي قصائد الشهداء والفداء بما يجيش في اللحظة من انفعال. شاعر سياسي؟

لا يمكن وصف إبراهيم طوقان بالشاعر السياسي إلا بقبولنا التعريف الواسع للسياسة الذي يشمل مختلف الاهتمامات بالشأن العام. فما نقل عنه أحد أنه كان مشايحاً لحزب أو قائد معين. بل هو الذي كان يقول:

إن قلبي لبلادي لا تحزب أو زعيم

ولو عرض للسياسة مباشرة لكان له فيها ما لا يسر الساسة التقليديين حتى لو بدا كلامه، لأول وهلة،

ضد السياسة بالمطلق:

منذ احتلال الفاصيين ونحن نحلم بالسياسة

والله ليس هناك إلا كل قناص الرئاسة

على أن هذا التعصف عن اللعب السياسي، لا يعني أنه لم يكن غاطساً في الشأن العام حتى شحمتي أذنيه. فالتصدي لطامع المستعمر سياسة، والرد على الشاعر الصهيوني سياسة، والنطق بصورت الشهيد والفدائي سياسة، والاعتصام باخيط العربي سياسة. ولهذه المناسبة يستوقفنا أن قلقه على الشام، يوم الحريق، يعادل قلقه على مدينته نابلس يوم الزلزال، ويوم الطوفان، ونقرأ له شعراً في تعزية البيت الهاشمي بالشريف علي بن الحسين، ومرثيته لمن يسميه نسر الملوك، فيصل الأول، ومرثية للزعيم المصري سعد زغلول، وأخرى في رثاء المجاهد السوري أحمد مريود، ونقرأ له «نشيد بطل الريف، عبد الكريم الخطابي»، و«نشيد فتية المغرب»، و«نشيد رثاء الملك غازي»، و«نشيد أشواق الحجاز». أما الشريف حسين فيخصه بقصيدة تشبّهه بسميّة الحسين بن علي شهيد كربلاء:

تردون الموت في ظل العلي

آل بيت المصطفى لم تبرحوا

تشبه الكاس التي في كربلاء

كادت الكاس التي في قبرص

وليس تجواله المعنوي في الأرجاء العربية مجرد حنين ونخوة. بل إنه شريك، في اللحظة العربية، يعطي نفسه حق العتاب. هكذا نراه يحتفل بزيارة أحمد شوقي - التي لم تتم - فيذكره بواجب أمير الشعراء محمد فلسطين. ثم لا يكتفي بذلك بل يعلن في قصيدة تالية عن «عتاب شعراء مصر». ومنطلقه في ذلك أن البيت العربي واحد، أما في بؤرة اللحظة الملتبسة، لحظة فلسطين، فديندنه تجريس الزعماء السياسيين الذين ياكلون بعضهم بعضاً. لكنهم لا يقدمون أكثر من الاحتجاج الإنشائي على مؤامرات المستعمر البريطاني. وستظل الأجيال تحفظ سخريته المرة من «سماسرة البلاد» و«المخلصين للوطنة»:

بقيت في لغرسنا أمنية

ما جحدنا أفضالكم غير أنا

فاستريحوا كي لا تطير البقية

في يدينا بقية من بلاد

وهذا الدور الوطني للشاعر الشاب المتعرق شوقاً إلى تحرير وطنه، ينعكس على طبيعة الشعر الذي لا يحصل في هذا المقام إلا الخطاب المباشر حتى أن عناوين قصائده حملت معاني النداء: «يا موطني - اشترى الأرض - يا رجال البلاد - إلى الأحرار - يا قوم - أيها الأقوياء - أيتها الحكومة - أنتم - وطني أنت لي - يا سراًة البلاد» وإذا كان «الموضوع» يحمل الشاعر إلى المباشرة، فإنه يستنهض السخرية، أو اللمحة، أو حتى الطرفة، ليعيد الاعتبار إلى الفن بشكل أو آخر. أو أنه يشحن القصيدة، كما في «الثلاثاء الحمراء» بعناصر درامية تتأبى على القالب التقليدي، فيما يأخذ الخطاب عنده أحياناً شكل النشيد الملحن.

شاعر الفرح

وإذا كنا نجازف بإسباغ صفة شاعر الفرح، على هذا الشاعر الشاب الذي أنهكه المرض، وعذبه الوطن بالمخاطر التي يتعرض لها، فإن حصته من الفرح قد أخذت شكل المرأة. وفي مقدمة ديوانه نجد شقيقته فدوى طوقان شخصية الشعرية في ثلاثة محاور، فتبدأ بما تسميها الغزليات، لتضيف إليها بعد ذلك الوطنية والموضوعيات. أما د. إحسان فيدمج «موضوعيات» إبراهيم في «الوطنيات»، ويخص الغزليات بما يسميها ذروتين: ذروة الحب وذروة الشهوة. وما أنلنا أحاول الخروج بتكوين جديد، فأجعل احتفاله

بالحب والجسد والحياة بعامة، نوعاً من الفرح المطلق . يستدني في ذلك فيض من المسكوت عنه يتضمن قصائده المأجنة المكشوفة التي لم يجد أي ناشر جرأة على نشرها حتى الآن ، مع أن هذه النصوص موجودة ولعلها أكثر شيوعاً على مستوى التداول الشفوي، من بعض قصائده المثبتة في الديوان .

واللافت في اكتشاف شعر إبراهيم للمرأة، أنه لا يقدم رؤية جمالية أو أيرورتيكية . وعلى ما في هذا الشعر من إغراء بمقاربة أبيقورية تنزل اللذة منزل السعادة، إلا أن إيقاع حياة الشاعر أبسط مما نظن . فهو عاشق تلقائي للجمال . وتكاد قصائده تكون تقيمشات على مفكرة يومية ترصد تجاربه العاطفية . ولعله من الشعراء المعاصرين القلائل الذين «فضحوا» حبيبتهم أسماء وعناوين ومغامرات . وقد سمحت حياته المكشوفة بإذاعة أسرارها، فإذا أهدى قصيدته «أين الرسائل» إلى ل، أدرك القارئ المطلع أنه يقصد ليلي، وإذا أهدى «دخل الشقي بحاله» إلى م، كان معروفاً أنه يقصد ماري، أما نزهة فهو يسميها صراحة في قصيدة «غنت الطهر» وقد يهدي القصيدة إلى الحبيبة باسمها الأول، كان يقول : إلى فوز... بل إن الهوامش التي تضاف إلى القصائد تكفل بكشف المستور حتى لو كان في ذلك إحراج للحبيبة وأهلها . ويعتادى فيبلغ إلى حبيبته أنه يعنيه حتى لو لم يذكر اسمها :

حبيبي لا أسميك ولا أظهر حبيك

هبي ما شئت إن القلب ما أنفك يناجيك

وهو لا يتحرج من توظيف حدث كبير مزلول، كحريق الشام، في التلميح إلى حبيبة له من أسرة تدعى «تين» فهو يبدى خوفه على دمشق متسائلاً :

هل سرت النار إلى «تينها» وتوتها الغض وروانها؟

وهو المكتني بالتين، مشيراً إلى الحبيبة الغالية : يا تين يا توت يا رمان يا عنب... وقد ترك لشعره أن يكشف سجلاته المكشوفة أصلاً منذ البدايات . فالقصيدة التي ذاع اسمه معها ، وهو في مقتبل العمر ، «في المكتبة» تنبه إلى اهتمامه بصية تقرأ في مكتبة، أما قصائده في المرحلات - وهو الذي دخل للمستشفيات للعلاج غير مرة- فهي أشهر من أن يشار إليها . ومن المكان المحدد - المكتبة أو المستشفى، إلى عنوان البلد، فقصائده مملوءة بالأماكن التي تؤوي حسناواته من دمشق إلى الكرمل إلى كفر كنا إلى دير قدس . ولأول وهلة ، لا جديد في دينامية قصائده العاطفية . فثمة صدد وشكوى ، يقابلهما لقاء وفرح حمي :

كان هزراً طرباً بالحسن مفتناً

فابنسم الحب له فأحسن الظن

ثم رماه بالتني تبذل اللعنا

بات يهيم نالهما وطالما غنى

إلا أن المختلف التميز هو هذا الإيقاع المرح، والبوح الحميم الدال على شخصية مرحة لا تعرف استقراراً . فهذا الذي يعشق الفتيات بالجملة : «بيض الحمايم حشبهن» - أني أردد مجموعته، هو الذي تسحره صورة معلقة لفاتنة ، أو تستهويه «ذات عصابة زرقاء»، أو تشغله فتاة عابرة لا تبادل الكلام :

تعلقها قلبي ولم أدر ما اسمها وفي عينها ما بي وما سمعت باسمي

وهي المرحضة الروسية التي يتمسك بها، أو بهبة التي هام بها أخوه ولم ينتج فحرج حظه معها، وقد تكون مريضة يستهجن الناس اهتمامه بها «ذابلة، ناحلة ، قد محت يد الأسى القاسي محياها» فيرد على منتقدي هيامه بها :

السقم لا يصرف وجه امرئ
عن وجه محبوب وإن شأها
فهو يريدنا ممرضة آسية، ويقبلها مريضة متعبة. يشجيه الغرام الأول «وليلة زاهرة سامرة بالقبل»،
ويتابع ذكرى غيرها في بيروت، ثم لا تلبث أن تهب عليه نسائم الكرم والموعود الرغد. حتى إذا يس
اسلم قلبه للنسيان:

وليال ظفرت فيها من الدهر
على بخله بنعمة عطف
صحن: يكفي، فقد تولت ليال
شتيتها المنى، برلك، يكفي
ولكن ما إن يبادرها بالنسيان «هواك أصبح نسياً- كلوعتي نسياً» حتى يغني لها: «هواك جبار».. هو
ذا شاعر عاش في الحب وللحب وعلى أنقاض الحب ولم يتعفف. فقد يستحضر صوتها وهي تراوده قائلة:
«قم حبيبي فاطفي المصباح». وقد يذهب أبعد، فيعارض ذلك الجن الحمصي في مرثيته الدموية الشبهة
لضعفته المنيعة ورد، وفيها:

رؤيت من دمها الثرى ولطالما
رؤى الهوى شفتي من شفتيها
فتكون قصيدة ابراهيم على النقيض. فهو لا يقتل ولكنه يعترف:
ما كنت أرغب أن أسمى قاسياً
لأنثر الأحلام عن عينيها
ولكنه مع ذلك لا يقاوم:

وكان أشواقى بلغن بي المدى
لسقطت، لا أصحو، على شفتيها
بهذه الروح أصبح عمر الشاعر كتاباً جميلاً، وتحول إلى فضيحة منقطة. وهو لا يكفي بذكر أسماء
حبيباته، بل يورد أسماء أصدقائه ومداعباتهم في تداول المغامرات العاطفية. وهو ما يعيدنا إلى القصائد
المهظورة التي سيمر وقت طويل قبل أن نتاح للعامة. ولكننا، من زاوية الإشارة، نذكر له على سبيل
المقال:

قال أبو سلمى
زين أحبابي
صباك قد هنا
خل التصابي
قلت أجل حتما
وشاب أحبابي
ولم يذهب صباه. فقد توفي ولم يصل إلى السابعة والثلاثين، لكن طبيعته الداندية - الاستعراضية،
تسمح له بتأليف الفضيحة وإذاعتها حتى ليصبح سجلاً للحسنات والسيئات على حد تعبيره. وصدق
صديقه أبو سلمى عندما نسب إليه قصيدة بصوت عمر بن أبي ربيعة، فقد كان في هذا النابلسي المرح كثير
من ذلك القرشي الظريف، وشرهما شاهد عليهما.

شاعر الجديد؟

شب إبراهيم طوقان شعرياً في لحظة كلاسيكية. يكفي أن نتذكر أنه عصر بايع الشعراء العرب فيه
واحداً منهم أميراً للشعر، وأن من سمات أهمية الشعراء كانت تلك المعارضات التي يأتي فيها الشاعر المعاصر
وقد كتب قصيدة على غرار الوزن والقافية اللذين اتبعهما شاعر قديم. وقد رأينا إبراهيم نفسه يعارض ذلك
الجن. ولن ينكر أحد تلك الاختلاجات التي كانت تبشر بالجديد، كظاهرة خليل مطران وسط موجة أحمد
شوقي وحافظ إبراهيم، أو كبروز الشعر المهجري الذي وإن رحب د. طه حسين بغرس فتي منه هو فوزي

المعلوف، إلا أنه افترى على بقية شعرائه وخص إيليا أبا ماضي بنقد جارح لم يكن موضوعاً بالضرورة. وكان رفض الذوق السائد للمتمرّد المهجري تعبيراً عن قوة التقليد حتى لدى الرواد المنورين. ومن المفارقات أن يكون عباس محمود العقاد رائداً للمدرسة الديوان التي ضاقت ذرعاً بشوقي، ولكن العقاد نفسه وقف ضد الشعر الحديث حتى الموت. أما الشعراء البرناسيون في لبنان، صلاح لبكي وصلاح الأسير ورضوان الشهال وحتى سعيد عقل وغيرهم فقد كانوا شعراء نخبية ولم يشكلوا حالة سائدة. ولم يكن حظ مدرسة أبولو - رموزها أحمد زكي أبو شادي ومحمود حسن إسماعيل وعلي محمود طه ود. إبراهيم ناجي - بأفضل من حظ البرناسيين والمهاجرة إلا بما غنته أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب من قصائدهم.

فأين يقف إبراهيم طوقان في هذا الزحام؟.. لو كان لي أن أستعير لغة د. طه حسين لقلت إنه اختار منزلة بين المنزلتين، من حيث أنه حافظ على النسق التقليدي بما يجعل الشعر موضوعات وأغراضاً مع حرص نسبي على نظام البيت الشعري، ومن جهة ثانية، حقق خطوة خاصة به من حيث تحويل الشعر إلى شهادة يومية على الواقع المعيش مع مغامرة محسوبة في بناء القصيدة، إضافة إلى تبسطه اللغوي حتى يجعل الشعر شبيهاً بالكلام المتداول:

كيف عينك يا عمر أنا أضناهما السهر

ووعياً منه للعديد الضروري، تعتمد إبراهيم أن يخوض المغامرة الرمزية. ولأن في المغامرة جرأة وتهيباً، فقد كشف أوراقه للقارئ. وعندما كتب قصيدة من هذا الضرب المجدد- ولتكن قصيدة «مصرع بلبل» - صرح قارئه بأنها قصيدة رمزية، ولم يتردد في «شرح» ما يقصده من رموز، فقال بالخراف: «أما الليل في هذه الحكاية فرمز الشاب المخدوع، وأما الوردة فرمز بائعة اللهو والعبث، وأما الروض فهو رمز الحانة أو الملهي». ولسنا في وارد محاكمة هذا الشعر بموازين المدرسة الرمزية، لكنها إشارة كافية إلى اهتمام الشاعر بالخروج على النسق التقليدي، والتحرر على المباشرة، وهو ما يظهر أيضاً في قصيدة «الحبشي الذبيح» التي وإن لم يستخدم كلمة الرمز صراحة في المقدمة التي كتبها لها، على غرار ما فعل في قصيدة «مصرع بلبل»، إلا أنه لم يتردد في «شرح» المقصود بالقول: «كذلك هي الأمم المغلوبة على أمرها كانت وما برحت» عروس الموائد، «شأن الحبشي الذبيح، أما ريشه فتعشى به الوسائل، وأما لحمه فتحشى به البطون».

وإذا كان علينا أن نتعامل مع رمزية إبراهيم طوقان، لا مع الشعر الرمزي، ففي سياق سعيه إلى جديد يخص تجربته الفنية أولاً. وفي هذا السياق يوضح البناء المشار إليه سابقاً في قصيدة «الثلاثاء الحمراء»، عندما تنكب عن النسق التقليدي واختار النص المركب. وهو ما فعله أيضاً في قصيدة «مرايح الخلود» التي ألفها في ألفية المتنبّي عام 1935. وجعل لها «توطئة» وأدركها بقطع عنوانه «والخالدون» وتناثت المقاطع بعناوين موحية «في حضرة المتنبي» و«الحسد خالد؟» ثم شفع هذه العناوين بخمسة أشطر أطلق عليها «خاتمة». وفي هذه القصيدة المركبة لم يتعمد الشاعر على بحر الرجز وتفعيلاته الثلاث، ولكنه التزم بالنسق الخماسي، حيث جعل كل بيتين من قافية، ثم ختم البيتين بشطر ذي قافية موحدة على امتداد القصيدة، هي النون المكسورة:

ذاك الذي وقفن عن جنبه خلعت ملوك الأرض في برده

أو الأنام تحت أخمصيه قيل اسجدي خاشعة لديه

فالمتنبّي سيد المكان

وقد لا يكون في القصيدة من جديد على عالم المتنبي، لكن بنياتها المختلف عن قصائد المناسبات

المربوصة المتجهمة بقوافيها الحكمة ، أتاحت للشاعر أن يجول في دخيلة التنبي ، ويرصد طموحه وضيقة بالعصر ، وهوان الحكام وشكواه من الحسد وخلوده في الزمان ..

واللائق في شعر إبراهيم طوقان ، كثافة القصائد القصيرة ، لا تقصر نفس ، فلديه قصائد تقليدية تستوفي شروط الطول ومتانة السبك والتزام القافية ، وهي كلها قصائد مناسبات - أنظر ، مثلاً ، مراثيه لسعد زغول ونافع العبوشي وجبر ضومط وسعيد الكرمي وعبد المحسن الكاظمي - لكن القصيدة القصيرة تناسب هراه باستجابتها إلى اللمعة ، أو النبهة ، أو المفاجأة ، وهي ما ضبطها د. إحسان عباس بكلمة **Wit** . ولعله كان يعتمد الطرفة ، حتى أنه يسمي إحدى قصائده «مداعبة قدرتي طوقان» . وتراه يمزج الأسى بالمرح كما في «الدم الخفيف» عندما أشار عليه الطبيب بدم يضاف إلى جسمه لينقذه ، فقال :

لك ما شئت يا طبيب ولكن أعطني من دم يكون خفيفاً

وهذه النبهة مستباحة في المرح والجد والفرح والخطر ، فهذه الروح نقرأ سخريته من الاستعمار والسماسرة ، ونقرأ رده على الشاعر الصهيوني ، أما حين تكون السعادة سيدة المقام فإن الطرفة تأخذ مكانها بامتياز ، كمداعبته لصديق رزق بطفلة فتكون تلك مناسبة لدعاء من هذا القبيل :

رب أطعمني غلاماً شاعراً للمواصي الحسن مطلق مدحاً

وليكن مثل أبيه إننا لم نعرف عادة في شعبنا

وعند هوسه التجديدي إلى جوهر العروض ، كما في نشيده الأشهر «موطني» الذي تجاوز فيه منطقي الوزن ، فانتقل من فاعلن : «موطني موطني» إلى فاعلاتن والجلال والجمال - النساء والبهاء إلى متفععلن ودغانما مكرماً إلى فاعلاتن وهمه أن تستعلا إلى فاعلن فعول «مجدنا التليد» . وهذه الفوضى الخلاقة لا تجتمع في قصيدة مما كان يكتبه العرب حتى الثلث الأول من القرن العشرين . وحين يزعم د. لويس عوض عام 1947 أنه ابتكر تفعيلة «فاعلن» فإننا نذكر البيت العربي المدرسي : «جاءنا صالح غانماً سالماً بعدما كان ما كان من صالح» ولكننا نذهب إلى تاريخ أقرب ، عندما كتب إبراهيم نشيد «بطل الريف» عام 1925 ، وفيه :

في ثنابا المعجاج والتحام السيف

بهما الجرح فاج والثنابا تطوف

ونرى الأوزان تتداخل ، على نحو شيق ، لكنه غريب ، في نشيد «موطني أنت لي» ، مع إشارة مقيرة في الهامش وهي أن النشيد منظوم على جن نشيد إنكليزي . أي أن الشاعر كان يفقل العروض أحياناً لتيسر نقل قصيدته وفق السلم الموسيقي ، وهو أمر ما عرفه الشعر العربي من قبل .

وبالعودة إلى المنزلة بين المنزلتين ، نذكر لإبراهيم طوقان نصاً بعنوان «اقتباسات من القرآن» ، وفيه تضمينات حرفية لآيات كريمة ، كأنها الشاعر معني بترويض قصيدته بحجمل الكلم والمعاني ، فهو يحدد ويبحر ، لكنه يعترف للأصل بالرجعية . وما أحسب هيجانه الحيوي وانتشاره العاطفي إلا بهدف تحويل الشعر إلى أسلوب حياة . فهو يقلد ، في حياته ، إيقاع شعره ومسارات قصائده أو أن القصائد تضبط مساره وفق خط بهائي خارج السيطرة .

ولا يصعب العثور على فلسفة لإبراهيم طوقان . فهذا الشاب العليل جسداً ، الفوار شعوراً وروحاً ، كان يفزع أن كل شيء عابر :

أين لا أين والحياة هي الملح بالبحر

هكذا يذهب السرور سريعاً إذا حضر

ومع أنه شكل ، في حياته وشعره ، لحظة مرور سريعة ، إلا أنها لحظة مستدامة . فإبراهيم طوقان لا يتوكل ذكرى ميلاده الملة لتذكره .. إنه يبتنا ، وليس «موطني» إلا شاهداً حياً على هذا الحضور .



(85) 2005
ISSN 1607-7024
AL-KARMEI(Ramallah)